آفــــاق جديــــدة
فــى
البحث اللغوى المعاصر

الدكتــور

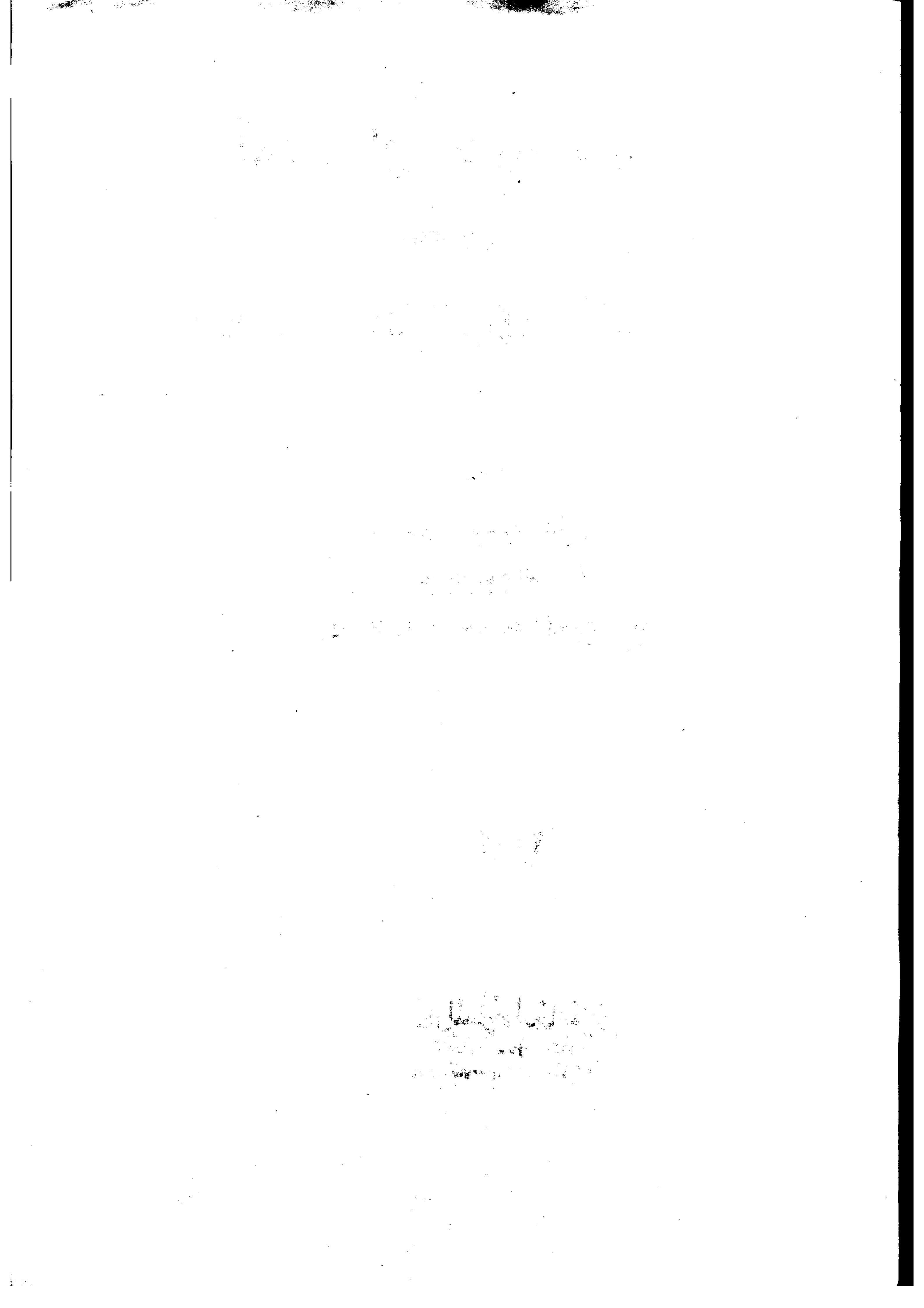
محمود أحمد نحلـة

أسـتاذ العلـوم اللغويـة

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

٢٠٠٢

دار المعرفة الجامعية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

أحمـدك اللهـم وأسـتفتحك وأستهديك، وأصلـى وأسـلم علـى نبيـك ورسولك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد

فهذه أبحاث حاولت بها أن أستشرف آفاقًا جديدة فى البحث اللغـوى المعاصر تتجاوز الأنماط الشائعة منه مجالاً ومنهجًـا، بـالبعد عمـا تغـرق فيـه مـن الجزئيات التى أصبحت تسدّ علينا كل منافذ الرؤية الشاملة، والبحث عن آفاقٍ من التنظير أوسع وأرحب، وأكثر قدرة على التجديد والتطوير، ومواكبة العصر الذى نعيـش فيـه، وذلـك هـو الجـامع بينهـا علـى اختـلاف الموضوعـات التـى تناولتها.

وهذه الأبحاث ليست منبتة الصلة عن التراث اللغوى العربى، بل تقـف منه على أرض ثابتة، مفضلة أن تقرأه قراءة معاصرة تفيد مـن اتجاهـات الـدرس الحديث، ومناهجه، وطرائقه فى رصد الظواهـر اللغويـة، ومعالجتهـا علـى نحـو مضبوط، يمكّنها من الكشف عن ملامح نظريات عربية الوجه واللسـان موازيـة لنظريات غربية معاصرة، أو عن ظواهر لم يعرض لها علماء العربية القدماء ومن صدر عن منهجهم مـن المحدثـين، أو عرضـوا لهـا ولكـن لم يوفوهـا حقهـا مـن البحث الكاشف لها والمحيط بها؛ تجديدًا للنظر فى هذا الـتراث اللغـوى القديـم، وكشفًا عن كنوزه المخبوءة، وبيانًا لعناصر القوة فيه، وإصلاحًا لما قد يكون فيه من جوانب النقص والقصور.

وهى لا تقتصر علـى الـتراث النحـوى، بـل تفيـد مـن الـتراث اللغـوى العربى كله الموزع بين كتب النحو، واللغة، والبلاغة، والفقـه، وأصـول الفقـه، والقراءات، والتفسير، والمعجمات، بما هو تراث لغوى واحد.

ومن هذه الأبحاث ما يعرض لجوانب من الدرس لم يعن بها الدارسون العرب العناية الواجبة كالتصنيف النوعى للغات ومكان العربية فيه، والعالميات وما فى اللغة العربية منها، ووظائف اللغة.

فإذا استطاعت هذه الأبحاث أن تحفز الباحثين إلى ارتياد آفاق جديدة من البحث اللغوى المعاصر، أو أن تلقى بحجر فى مياه البحث اللغوى الراكد فتلك غاية المنى، ومنتهى المأمول. والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

محمود نحلة

الاتجاه التداولى
فى البحث اللغوى المعاصر

يعود مصطلح التداولية pragmatics بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس Charles Morris الذى استخدمه سنة ١٩٣٨ دالاً على فرع من فروع ثلاثة يشتمل عليها علم العلامات أو السيمية semiotics (يؤثر موريس استخدام semiotic). هذه الفروع هي:

١- علم التراكيب syntactics أو syntax : وهو يعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض.

٢- علم الدلالة semantics : وهو يدرس علاقة العلامات بالأشياء التى تدل عليها، أو تحيل إليها.

٣- التداولية : وتهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسريها[1].

على أن التداولية لم تصبح مجالاً يعتد به فى الدرس اللغوى المعاصر إلا فى العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفى لجامعة أكسفورد هم أوستن J.L.Austin، وسيرل J.R. Searle وجرايس H.P. Grice، (مع أن سيرل وجرايس أتما تعليمهما في كاليفورنيا). وقد كان هؤلاء الثلاثة من مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية natural language أو العادية ordinary فى مقابل مدرسة اللغة الشكلية أو الصورية formal language التى يمثلها كارناب Carnap، وكانوا جميعًا مهتمين بطريقة توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها، وكان هذا من صميم عملهم، وهو من

---

(١) Levinson, S.C. (1983): *Pragmatics*. Cambridge University Press. P.1

- McArther, T. (1996): *The Oxford Companion to the English Language*. Oxford University Press, P.718
- Horn, L.R. (1993): *Pragmatics theory*, in: Linguistics: The Cambridge Survey. I Linguistic Theory: Foundations edited by F.J. Newmeyer. Cambridge University Press. P.116.

صميم التداولية أيضاً. ومن الغريب أن أحدًا منهم لم يستعمل مصْطلح التداولية فيما كتب من أبحاث[1] .

ولا تنتمى التداولية إلى أىٍّ من مستويات الدرس اللغوى صوتيا كان أم صرفيا أم نحويا أم دلاليا لذلك فالأخطاء التداولية لا علاقة لها بالخروج على القواعد الفونولوجية أو النحوية أو الدلالية، وهى ليست مستوى يضاف إلى هذه المستويات؛ لأن كلا منها يختص بجانب محدد ومتماسك من جوانب اللغة، وله أنماطه التجريدية ووحداته التحليلية، ولا كذلك التداولية، فهى لا تقتصر على دراسة جانب محدد من جوانب اللغة، بل من الممكن أن تستوعبها جميعا، وليس لها أنماط تجريدية ولا وحدات تحليل[2]

وهى كذلك لا تنضوى تحت علم من العلوم التى لها علاقة باللغة بالرغم من أنها تتداخل معها فى بعض جوانب الدرس. ومن هذه العلوم[3]

- **علم الدلالة semantics** : وهو يشارك التداولية فى دراسة المعنى على خلاف فى العناية ببعض مستوياته. ونتيجة لتنامى الاهتمام بالتفاعل بين المعنى والاستعمال ظهرت اتجاهات حديثة تحاول أن تؤلف بينهما.
- **علم اللغة الاجتماعى sociolinguistics** : وهو يشارك التداولية فى تبيين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين فى الحديث، والموضوع الذى يدور

---

(1) Leech, G. & Thomas, J. : Language, Meaning and context: Pragmatics, in: Collinge, N.E (ed.) 1990 : An Encyclopedia of Language. Routledge London and New York. P.173 f.

(2) Verschueren, J. (1999): Understanding Pragmatics. Arnold, London etc P.2.
- Crystal, D. (1989): The Cambridge Encyclopedia of Language. Cambridge University Press. P.120

(3) Verschueren, J. (1999). P.7.
- Crystal, D. (1989). P.121

حوله الكلام، ومرتبة كل من المتكلم والسامع وجنسه، وأثر السياق غير اللغوى فى اختيار السمات اللغوية وتنوعاتها.

- **علم اللغة النفسى psycholinguistics** : وهو يشترك مع التداولية فى الاهتمام بقدرات المشاركين التى لها أثر كبير فى أدائهم مثل الانتباه، والذاكرة، والشخصية.

- **تحليل الخطاب discourse analysis** : وهو يشترك مع التداولية فى الاهتمام أساسًا بتحليل الحوار، ويقتسمان عددًا من المفهومات الفلسفية واللغوية كالطريقة التى توزع بها المعلومات فى جمل أو نصوص، والعناصر الإشارية deictics والمبادئ الحوارية **conversational maxims**.

وكان من نتيجة هذا التداخل، واتساع مجالات التداولية وتنوعها أن أصبح من العسير وضع تعريف لها جامع مانع، وقد استطاع عدد من الباحثين أن يقدموا تعريفات كثيرة للتداولية ليس منها تعريف سلم من المآخذ عليه، وقد يناقض بعضها بعضا. ومن هذه التعريفات:

- **التداولية:** هى دراسة الأسس التى نستطيع بها أن نعرف لم تكون مجموعة من الجمل شاذة anomalous تداوليا أو تعدّ فى الكلام المحال كأن يقال مثلاً: **أرسطو يونانى لكنى لا أعتقد ذلك!** أو يقال: **آمرك بأن تخالف أمرى** أو يقال: **الشمس لو سمحت تدور حول الأرض.**

وعلى الرغم من أنّ إيضاح الشذوذ فى هذه الجمل قد يكون سبيلاً جيدًا للوصول إلى نوع من الأسس التى تقوم عليها التداولية فهو لا يعد تعريفًا شاملاً لكل مجالاتها[1].

---

(1) Levenson, S.C. (1983). P.6 f.

- التداولية هى دراسة اللغة من وجهة نظر وظيفـة functional perspective. وهو نوع من التعريف يحاول أن يوضح جوانب التركيب اللغوى بالإحالة إلى أسباب غير لغوية. لكن مثل هذا التعريف يقصر عن تمييز التداولية اللغوية عن كثير من فروع علم اللغة المهتمة بالاتجاهات الوظيفيـة فـى اللغـة ومنهـا علـم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة النفسى(١).

- التداولية هى دراسة كل جوانب المعنى التى تهملها النظريات الدلالية، فـإذا اقتصر علم الدلالة على دراسـة الأقـوال التـى تنطبـق عليهـا شـروط الصـدق truth conditions فإن التداولية تعنى بما وراء ذلـك ممـا لا تنطبـق عليه هـذه الشروط، وقصر علم الدلالة على هذا النوع من الأقـوال غـير مسـلم بـه فـى النظريات الدلالية التى ظهرت منذ العقد الثامن من القرن العشرين، فضلاً عن أن ما وراء ذلك لا يستطاع حصره(٢).

- التداولية هى دراسة جوانب السياق aspects of context التى تشفر شكليا في تراكيب اللغة وهي عندئذ جزء من مقـدرة المستعمل user pragmatics competence(٣).

- التداولية فرع من علم اللغـة يبحـث فـى كيفيـة اكتشـاف السـامع مقـاصد المتكلم speaker intentions أو هو دراسة معني المتكلم speaker meaning فقول القائل أنا عطشان مثلاً قد يعني أحضر لى كوبًا مـن المـاء، وليس مـن

---

(١) Ibid, P.7.

(٢) Ibid, P. 12.

(٣) Crystal, D. (1994) A Dictionary of linguistics and Phonetics. Blackwell, Great Britain. P. 271.
- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) : An Introduction to Language. Harcourt Brace Collage Pablishers. USA. P.190
- Horn, L.R. (1993) P.116

اللازم أن يكون إخبارًا بأنه عطشان، فالمتكلم كثيرًا ما يعنى أكثر مما تقوله كلماته، وإذا كان ذلك كذلك فكيف يمكن للناس أن يفهم بعضهم بعضاً ؟

على أن مصطلح معنى المتكلم مفضل عند الذين يدرسون اللغة من الوجهة الاجتماعية بالرغم من أنه لا يلتفت إلى أنّ تفسير ما نسمع يحتاج إلى التحرك بين مستويات عديدة من المعنى. ومصطلح تفسير الكلام utterance interpretation المفضل عند الذين يمثلون الاتجاه المعرفى cognitive يتجنب هذا الخطأ لكنه يصرف جل اهتمامه إلى متلقى الرسالة، وفى هذا تجاهل للضوابط والقيود الاجتماعية التى تحكم إنتاج الكلام[1] .

من هنا رأى بعض الباحثين أن للمعنى مستويات ثلاثة: المعنى اللغوى وهو المعنى المأخوذ مباشرة من دلالة الكلمات والضمائم والجمل، ومعنى الكلام وهو المعنى السياقي، ثم المعنى الكامن أو الموجود بالقوة force وهو معنى المتكلم[2] ولإيضاح ذلك نسوق المثال الآتي: إذا قال لك شخص فى سياق محدد: **أهذه سيارتك؟** فالسياق الذى ألقى فيه السؤال لا يدع مجالاً للشك فى أن "هذه" تشير إلى شئ محدد هو السيارة، وأن الضمير"الكاف" يشير إليك، وعلى الرغم من أنه ليس هناك مشكلة فى فهم معنى الكلام (وهو المستوى الأول من معنى المتكلم) فإنك حتى هذه اللحظة قد لا تكون وصلت إلى معنى المتكلم أو فهم القوة force التى تكمن خلف هذا السؤال: هل المتكلم يريد إجابة عن سؤاله بنعم أو لا أو أنه يخرج عن هذا المعنى الحقيقى إلى مقصود آخر هو التعبير عن اللوم لأن سيارتك سدت طريق المرور على السيارات الأخرى ؟

---

(1) Thomas, J. (1996): Meaning in Interaction. An Introduction to Pragmatics. Longman London and New York. P.2.
- Yule, G.:(1987): The Study of Language. Cambridge University Press. P.97

(2) Thomas, J. (1996), P.3.

وهذا هو معنى المتكلم[1].

من هنا كان أوجز تعريف للتداولية وأقربه إلى القبول هو: دراسة اللغة في الاستعمال in use أو في التواصل in interaction لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئاً متأصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في **تداول** negotiation اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادى، واجتماعى، ولغوى) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما[2].

وقد حدد بعض الباحثين ما تتميز به التداولية عن غيرها من اتجاهات البحث اللغوى بما يأتى[3].

١- التداولية تقوم على دراسة الاستعمال اللغوى أو هى لسانيات الاستعمال اللغوى. وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوى في الاستعمال الفعلى من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذى يولد المعنى.

٢- ليس للتداولية وحدات تحليل units of analysis خاصة بها، ولا موضوعات مترابطة correlational topics.

٣- التداولية تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة (معرفية cognitive، واجتماعية social، وثقافية cultural).

٤- تعد التداولية نقطة التقاء point of convergence مجالات العلوم

---

(١) Ibid, P.18 f.

(٢) Ibid, P.22.

- Crystal, D. (1994) P.120
- Malmkjær, K. (1991): Pragmatics, in; Malmkjær, K. (ed.): The Linguistics Encyclopedia. Routledge. London and New York P.354.

(٣) Verschueren, J. (1999) P.10 f.

ذات الصلة باللغة بوصفها وصلة بينها وبين لسانيات الثروة اللغوية Linguistics of language resources.

ولما كان مجال البحث فى التداولية شديد الاتساع فقد أخذت تظهر لها فروع[1] يتميز كل منها عن الآخر، فهناك التداولية الاجتماعية sociopragmatics التى تهتم بدراسة شرائط الاستعمال اللغوى المستنبطة من السياق الاجتماعى. وهناك التداولية اللغوية linguistic pragmatics التى تدرس الاستعمال اللغوى من وجهة نظر تركيبية structural، وهى بذلك تنطلق من اتجاه مقابل للتداولية الاجتماعية، فإذا كانت هذه تنطلق من السياق الاجتماعى إلى التركيب اللغوى فإن تلك تنطلق من التركيب اللغوى إلى السياق الاجتماعى الذى تستخدم فيه. وهناك أيضاً التداولية التطبيقية applied pragmatics، وهى تعنى بمشكلات التواصل فى المواقف المختلفة وبخاصة حين يكون للاتصال فى موقف بعينه نتائج خطيرة كالاستشارة الطبية، وجلسات المحاكمة، ثم التداولية العامة general pragmatics، وهى التى تعنى بدراسة الأسس التى يقوم عليها استعمال اللغة استعمالاً اتصاليا.

ويكاد الباحثون يتفقون على أن البحث التداولى يقوم على دراسة أربعة جوانب هى: الإشارة deixis، والافتراض السابق presupposition، والاستلزام الحوارى conversational implicature، والأفعال الكلامية speech acts. وسوف نفصل الحديث الآن فى كل جانب منها:

أولاً: الإشارة deixis :

فى كل اللغات كلمات و تعبيرات تعتمد اعتماداً تاماً على السياق

(1) Crystal (1994), P.271.

الذى تستخدم فيه ولا يستطاع إنتاجها أو تفسيرها بمعزل عنه، فإذا قرأت جملة مقتطعة من سياقها مثل:

سوف يقومون بهذا العمل غدًا، لأنهم ليسوا هنا الآن

وجدتها شديدة الغموض لأنها تحتوى على عدد كبير من العناصر الإشارية التى يعتمد تفسيرها اعتمادًا تامًا على السياق المادى الذى قيلت فيه، ومعرفة المرجع reference الذى تحيل إليه، وهذه العناصر هي. واو الجماعه وضمير جمع الغائبين هم واسم الإشارة هذا، وظرفا الزمان غدا، والآن، وظرف المكان هنا، ولا يتضح معنى هذه الجملة إلا إذا عرفنا ما تشير إليه هذه العناصر. ومثل ذلك أن تجد إعلاناً غير مؤرخ يقول **البيع بالمزاد العلنى يوم الخميس** فلا تعرف عندئذ أى يوم من أيام الخميس يكون، وهل انقضى وقته أو لم يزل، ولكى يكون معناه مفهومًا فلا بدَّ من معرفة ما يشير إليه بتحديد زمانه بالقياس إلى زمان المتكلم. ومثل هذه العناصر تسمى العناصر الإشارية deictics أو الإشاريات اختصارًا[1] ، ويؤثر فلاسفة اللغة أن يستخدموا للدلالة عليها المصطلح indexical expressions أو indexicals اختصارًا[2] ، وكان بيرس Peirce أول واضع له[3] .

ويلفت لفنسون إلى أنَّ التعبيرات الإشارية تذكير دائم للباحثين النظرين فى علم اللغة بأن اللغات الطبيعية وضعت أساسًا للتواصل المباشر بين الناس وجها لوجه وتظهر أهميتها البالغة حين يغيب عنا ما تشير إليه فيسود الغموض

---

(١) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P.199.
- Yule, G. (1987) P.99
- Crystal, D. (1989) P.106

(٢) Thomas, J. (1996) P.9.

(٣) Levinson, S.C. (1983). P.57.

ويستغلق الفهم[1] . من هنا كانت النظريات الدلالية الشكلية عاجزة عن معالجة هذه الإشاريات[2] .

وقد أفضى هذا إلى ظهور ما يسمى علم الدلالة المقامى situational semantics على النحو الذى وجدناه عند باروايز وبرى Barwise & Perry (سنة ١٩٨٣) حيث بذلت محاولات جادة لإدخال الجوانب السياقية فى التفسير الدلالى[3] . فأصبحت الإشاريات مجالاً مشتركاً بين علم الدلالة والتداولية[4] ، وإن كان بعض الباحثين لا يزال يراها أدخل فى التداولية منها فى علم الدلالة[5] .

وأغلب الباحثين على أن الإشاريات خمسة أنواع: إشاريات شخصية، وإشاريات زمانية، وإشاريات مكانية، وإشاريات اجتماعية، وإشاريات خطابية أو نصية، واقتصر بعضهم على الثلاثة الأول[6] ، وبعضهم على الأربعة الأخر[7] وسوف نوجز القول فى أنواعها الخمسة:

١ – الإشاريات الشخصية personal deictics :

أوضح العناصر الإشارية الدالة على شخص person هى ضمائر الحاضر، والمقصود بها الضمائر الشخصية الدالة على المتكلم وحده مثل أنا أو

---

(١) Ibid, P.54.

(٢) Levinson, S.C.: (1992) Deixis, in : Bright, W (ed.) 1992. International Encyclopedia of Linguistics. Oxford University Press. P.344.

(٣) Ibid, P.344.

(٤) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P.201

(٥) Levinson, S.C. (1983) P.55

(٦) Crystal, D. (1989) P.106

(٧) Verschueren, J. (1999) P.18

المتكلم ومعه غيره مثل نحن، والضمائر الدالة على المخاطب مفردًا أو مثنى أو جمعًا، مذكراً أو مؤنثاً. وضمائر الحاضر هى دائماً عناصر إشارية، لأن مرجعها يعتمد اعتمادًا تامًا على السياق الذى تستخدم فيه[١] ، وليس من شك فى أن الضمير أنا وأنت ونحوهما له دلالة فى ذاته على المتكلم أو المخاطب، لكن السياق لازم لمعرفة من المتكلم أو المخاطب الذى يحيل إليه الضمير أنا وأنت. أما ضمير الغائب فيدخل فى الإشاريات إذا كان حرًّا أى لا يعرف مرجعه من السياق اللغوى، فإذا عرف مرجعه من السياق اللغوى خرج من الإشاريات. ولا يدخل فى الإشاريات الضمير غير الشخصى فى نحو **It rains** فى الإنجليزية، فهو ليس ضميرًا حقيقيا **true pronoun** يشير إلى بعض الموجودات بل هو فى الحقيقة مورفيم نحوى شاغل لموقع تتطلبه قواعد التركيب الإنجليزى[٢] .

ويضيف فلاسفة اللغة بعدًا آخر يتمثل فى شرط الصدق **truth condition** فإذا قالت امرأة مثلاً: **أنا أم نابليون** فليس بكافٍ أن يكون مرجع الضمير هو تلك المرأة بل لابدَّ من التحقق من مطابقة المرجع للواقع، بأن تكون هذه المرأة هى أم نابليون فعلاً وأن تكون الجملة قيلت فى الظروف التاريخية المناسبة فإن لم يتحقق شرط الصدق كانت الجملة كاذبة[٣] . وقد نبه بيرس إلى أن الإشاريات ينبغى أن تكون محددة المرجع بتحقق العلاقة الوجودية **existential relation** بين العلامة **sign** وما تدل عليه[٤] .

على أنه قد ينشأ نوع من اللبس فى استخدام الضمائر إذا تعددت

---

(١) Levinson, S.C. (1983) P.69
- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P.199

(٢) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P.200

(٣) Levinson, S.C. (1983) P.55 f

(٤) Ibid, P.57

مراجعها أو تبادل كل من المتكلم والمخاطب أدوار الكلام فأصبح المتكلم مخاطبا والمخاطب متكلما، أو نقل متكلم كلاما لمتكلم آخر، كأن يقول رجل: **قال زيد أنا قادم الليلة / هو قادم الليلة**، وقد جعل ذلك بعض اللغويين يفرق بين المتكلم والمصدر **source** الذى ينقل كلاما كلف بنقله إلى آخر[1] . وقد يكون لضعف القرينة التى تعين على تحديد المرجع أثر فى غموض الكلام أو وقوع اللبس.

ويدخل فى الإشارة إلى الشخص **person deixis** النداء **vocative**، وهو ضميمة اسمية تشير إلى مخاطب لتنبيهه أو توجيهه أو استدعائه، وهى ليست مدمجة فيما يتلوها من كلام، بل تنفصل عنه بتنغيم يميزها[2] . وظاهر أن النداء لا يفهم إلا إذا اتضح المرجع الذى يشير إليه.

٢- الإشاريات الزمانية temporal deictics :

الإشاريات الزمانية كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم فزمان التكلم هو مركز الإشارة **deictic center** الزمانية فى الكلام، فإذا لم يعرف زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية التبس الأمر على السامع أو القارئ فقولك مثلاً **بعد أسبوع** يختلف مرجعها إذا قلتها اليوم أو قلتها بعد شهر أو بعد سنة وكذلك إذا قلت نلتقى الساعة العاشرة فزمان التكلم وسياقه هما اللذان يحددان المقصود بالساعة العاشرة صباحًا أو مساءً من هذا اليوم أو من يوم يليه[3] . وزمن الفعل نلتقى ينفى أن يكون اللقاء قد حدث

---

(١) Ibid, P.68 f

(٢) Ibid, P.71

(٣) Verschueren, J. (1999) P.18 f
- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P.200

فعلاً، بل يصرف زمن اللقاء إلى زمن لم يمض بعد[1]، ومثل ذلك كلمات مثل: أمس، وغداً، والآن، والأسبوع الماضى ويوم الجمعة، والسنة المقبلة ومنذ شهر... الخ، فهى كلها لا يتضح معناها إلا بالإشارة إلى زمان بعينه بالقياس إلى زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية.

ومن أجل ذلك قد يواجه القارئ مشكلة إذا لم يعرف مرجع الزمان فى كتاب يقرؤه فكثير من روايات أجاثا كريستى مثلاً تذكر الحرب دون إحالة إلى زمان بعينه فيضطرب القارئ فى فهم المراد، ويتساءل أى حرب هذه؟ وهو مضطر أن يتتبع السياق التاريخى وتاريخ نشر الكتاب حتى يفهم المراد بها. ومثل ذلك أن يذكر فى حديث أو كتاب وزير المالية المصري، أو أميرة موناكو أو نحو ذلك دون إحالة إلى زمان بعينه[2].

على أن الإحالة إلى الزمان قد تستغرق المدة الزمانية كلها كأن يقال اليوم الأربعاء وقد تستغرق مدة محددة من الزمان كأن يقال ضرب زيد عمرًا يوم الخميس، فضرب زيد عمرًا لا يستغرق يوم الخميس بل يقع فى جزء منه[3] وقد يتسع مدى بعض العناصر الإشارية إلى الزمان فيتجاوز الزمان المحدد له عرفا إلى زمان أوسع فكلمة اليوم فى قولنا بنات اليوم مثلاً تشمل العصر الذى نعيش فيه، ولا تتحدد بيوم مدته أربع وعشرون ساعة، وكل ذلك موكول إلى السياق الذى تستخدم فيه هذه العناصر الإشارية إلى الزمان[4].

---

(1) Verschueren, J. (1999) P.19
- Levinson, S.C. (1983) P.73 f

(2) Thomas, J. (1996) P.10

(3) Levinson, S.C. (1983) P.74

(4) Ibid, P.74

ومما ينبغى اللفت إليه أن العناصر الإشارية قد تكون دالة على الزمان الكونى الذى يفترض سلفاً تقسيمه إلى فصول، وسنوات وأشهر وأيام وساعات... الخ وقد تكون دالة على الزمن النحوى tense، وقد يتطابقان فى سياق الكلام، وقد يختلف الزمن النحوى عن الزمان الكونى فتستخدم صيغة الحال للدلالة على المضى، وصيغة المضى للدلالة على الاستقبال فينشأ بينهما صراع لا يحله إلا المعرفة بسياق الكلام ومرجع الإشارة.فالزمن النحوى لا يطابق الزمان الكونى فى كثير من أنواع الاستعمال(١) .

ويلحظ بعض الباحثين أن بعض استعمالات اللغة لا ينفك عن الإشارة الزمانية كبعض أنواع التحيات مثل صباح الخير فهى لا تقال إلا فى الصباح(٢) . وتقع المفارقة irony إذا قالها واحد من الناس فى المساء مثلاً، وليس هذا مما تضبطه قواعد اللغة، بل أعراف الاستعمال(٣) .

٣- الإشاريات المكانية spatial deictics :

وهى عناصر إشارية إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان أثره فى اختيار العناصر التى تشير إليه قرباً أو بعدًا أو وجهة(٤) . ويستحيل على الناطقين باللغة أن يستعملوا أو يفسروا كلمات مثل هذا وذاك، وهنا وهناك ونحوها إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان، فهى تعتمد على السياق المادى المباشر immediate

---

(١) Ibid, P.73 f

(٢) Ibid, P.75

(٣) Crystal, D. (1989) P.120

(٤) O'Grady, W. – Dobrovolsky, M - Katamba, F. (1996). Contemporary Linguistics. An Introduction. Longman. P.297

physical context الذى قيلت فيه[1] . ومثل هذه التعبيرات أمثلة واضحة على أن أجزاء من اللغة لا يمكن أن تفهم إلا فى إطار المعنى الذى يقصده المتكلم speaker intended meaning، فإذا قال شخص **أحب أن أعمل هنا**، فهل هو يعني: فى هذا المكتب، أو فى هذه المؤسسة، أو فى هذا المبنى، أو فى هذا الجزء من المدينة، أو فى هذه الدولة أو فى غير هذه جميعا. فكلمة هنا تعبير إشارى لا يمكن تفسيره إلا بمعرفة المكان الذى يقصد المتكلم الإشارة إليه[2] .

وأكثر الإشاريات المكانية وضوحًا هى كلمات الإشارة نحو هذا وذاك للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية وهو المتكلم، وكذلك هنا وهناك وهما من ظروف المكان التى تحمل معنى الإشارة إلى قريب أو بعيد من المتكلم، وسائر ظروف المكان مثل فوق وتحت، وأمام وخلف... الخ كلها عناصر يشار بها إلى مكان لا يتحدد إلا بمعرفة موقع المتكلم واتجاهه[3] . وفلاسفة اللغة يميلون إلى تمييز كلمات الإشارة إلى المكان عن ظروف المكان، واعتبارهما نوعين من أنواع الإشارة أما اللغويون فيميلون إلى دمجهما معًا، وجعلهما صنفاً واحدا يشار به إلى مكان[4] .

ويرى بعض الباحثين أن ال التى للتعريف تدخل فى العناصر الإشارية لأنها تقوم بالوظيفة التى يقوم بها اسم الإشارة، والفارق بينهما أن اسم الإشارة يزيد عليها بالدلالة على القرب أو البعد (+ قرب) أو (+ بعد)، فهو موسوم

---

(1) Yule, G. (1987) P.99

(2) Ibid, P.99

(3) Levinson, S.C. (1983) P.81
- Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P.200

(4) Levinson, S.C. (1992) P.343

marked بالقرب أو البعد أما ال التى للتعريف فهى غير موسومة unmarked بقرب ولا بعد، ويرى هؤلاء أن التعريف فى أساسه مفهوم إشارى[1] .

ويلفت بعض الباحثين إلى أن عناصر الإشارة إلى المكان قد تنقل للإشارة إلى ما يسمونه المسافة العاطفية emotional distance وتسمى عندئذ الإشارة الوجدانية empathic deixis[2] ، وهو قريب مما أسماه علماء المعانى عندنا: التحقير بالقرب[3] نحو قوله تعالى ﴿أهذا الذى يذكر آلهتكم﴾ والتعظيم بالبعد كقوله جل وعز: ﴿ألم. ذلك الكتاب﴾.

وقد يكون لما يسمى التقابل الإشارى أثر حاسم فى فهم بعض الأفعال الشائعة الاستعمال مثل يأتى ويذهب، فالفعل يأتى يتضمن حركة نحو المتكلم، والفعل يذهب يتضمن حركة من المتكلم إلى غيره[4] .. واليابانى مثلاً لا يستطيع أن يقول لزميله ما يقابل: **هل أستطيع أن آتى إليك** لأن الفعل **kuru** فى اليابانية لا يستخدم إلا للدلالة على اتجاه الحركة إلى مكان المتكلم، بل لابدَّ أن يستخدم الفعل **iku** يذهب الذى يدل على اتجاه الحركة من مكان المتكلم إلى غيره[5] وكذلك أمثال هذين الفعلين ونحوهما من نحو خذ وهات، ويعطى ويأخذ...إلخ فيها جانب إشارى يتحدد به معناها[6] .

---

(1) Levinson, S.C. (1983) P.83

(2) Ibid, P.81

(3) انظر: القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن: التلخيص في علوم البلاغة. ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي. دار الكتاب اللبناني د.ت ص ٦٢.

(4) O'Grady, W. et al (1996) P.297

(5) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P.200 f

(6) Crystal, D. (1989) P.106

- Levinson, S.C. (1983) P.84

٤- إشاريات الخطاب discourse deictics :

قد تلتبس إشاريات الخطاب بالإحالة إلى سابق anaphora أو لاحق cataphora، ولذلك أسقطها بعض الباحثين من الإشاريات. ولكن منهم من ميز بين النوعين فرأى أن الإحالة يتحد فيها المرجع بين ضمير الإحالة وما يحيل إليه مثل زيد كريم وهو ابن كرام أيضاً: فالمرجع الذى يعود إليه **زيد وهو** واحد، أما إشاريات الخطاب فهى لا تحيل إلى ذات المرجع، بل تخلق المرجع فإذا كنت تروى قصة ثم ذكرتك بقصة أخرى فقد تشير إليها، ثم تتوقف قائلاً: **لكن تلك قصة أخرى**، فالإشارة هنا إلى مرجع جديد[1] . على أن هذا التمييز بين إشاريات النص والإحالة إلى عنصر فيه ليس حاسمًا، ذلك بأن الإحالة فى قصاراها ضرب من إشاريات النص، أو هى أساس فيها[2] .

وقد يبدو طبيعيا أن تستعار إشاريات الزمان وإشاريات المكان لتستخدم إشاريات للخطاب فكما يقال: **الأسبوع الماضى** يمكن أن يقال: **الفصل الماضى من الكتاب**، أو **الرأى السابق**، وقد يقال: **هذا النص** للإشارة إلى نص قريب، أو **تلك القصة** إشارة إلى قصة بعد بها القول[3] .

لكن هناك إشاريات للخطاب تعدّ من خواص الخطاب وتتمثل فى العبارات التى تذكر فى النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم فقد يتحير فى ترجيح رأى على رأى أو الوصول إلى مقطع اليقين فى مناقشة أمر فيقول: **ومهما يكن من أمر**، وقد يحتاج أن يستدرك على كلام سابق أو يضرب عنه فيستخدم **لكن** أو **بل**، وقد يعن له أن يضيف إلى ما قال شيئاً آخر فيقول **فضلاً**

---

(١) Levinson, S.C. (1983) P.85

(٢) Ibid, P.87

(٣) Ibid, P.85

عن ذلك، وقد يعمد إلى تضعيف رأى فيذكره بصيغة التمريض قيل، وقد يريد أن يرتب أمرا على آخر فيقول **من ثمّ**... الخ وهذه كلها إشاريات خطابية خالصة لا تزال فى حاجة إلى دراسة تجلو جوانبها واستخداماتها إشاريات للخطاب[١] .

٥- الإشاريات الاجتماعية social deictics :

وهى ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين من حيث هى علاقة رسمية formal أو علاقة ألفة ومودة intimacy[٢] .

والعلاقة الرسمية يدخل فيها صيغ التبجيل honorifics[٣] فى مخاطبة من هم أكبر سنا ومقاما من المتكلم، كاستخدام *vous* فى الفرنسية للمفرد المخاطب تبجيلا له، أو مراعاة للمسافة الاجتماعية بينهما، أو حفظا للحوار فى إطار رسمى، وكذلك الحال فى استخدام *Sie* فى الألمانية و*أنتم* فى اللغة العربية للمفرد المخاطب و*نحن* للمفرد المعظم لنفسه. وهى تشمل أيضا الألقاب[٤] مثل فخامة الرئيس، الأمام الأكبر، جلالة الملك، سموّ الأمير، فضيلة الشيخ، كما تشمل أيضا السيد، السيدة، الآنسة. ويدخل فيها أيضا: حضرتك، وسيادتك، وسعادتك، وجنابك، وقد يقتصر استعمال بعضها على الرجال مثل معالى الباشا، وقد يقتصر بعضها على النساء مثل الهانم، وفى الإنجليزية لا يجوز أن تشير إلى سيدة أكبر منك سنا أو مقاماً فى حضورها بقولك she[٥] .

---

(١) Ibid, P.87

(٢) Verschueren, J. (1999) P.20
- Crystal, D. (1989) P.120

(٣) Levinson, S.C. (1983) P.9

(٤) Ibid, P.89

(٥) Crystal, D. (1989) P.120

أما الاستعمال غير الرسمي فهو منفك من هذه القيود جميعا، وينعكس هذا فى استعمال بعض الضمائر للدلالة على المفرد المخاطب، مثل *tu* فى الفرنسية و *du* فى الألمانية، وفى النداء بالاسم المجرد، أو اسم التدليل أو نحو ذلك، فضلاً عن التحيات[1] التى تتدرج من الرسمية إلى الحميمية مثل: صباح الخير، صباح الفل، صباح العسل... الخ.

وربما وجدنا ظلالاً للإشاريات الاجتماعية فى دلالة استخدام بعض الألفاظ على طبقة اجتماعية بعينها مثل استخدام **looking glass** الذى يعدّ فى بريطانيا إشارة إلى الطبقة الاجتماعية العليا فى مقابل **mirror**، ومثلها **lady** و**woman**[2] . ومن ذلك فى اللغة العربية استعمال حامل وحبلى، وكنيف ومرحاض ودورة مياه وحمام وتواليت، ومنها استخدام عقيلته وقرينته وحرمه وزوجته وامرأته[3] .

وظاهر أن الإشاريات الاجتماعية من المجالات المشتركة بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعى.

ثانياً: الافتراض السابق presupposition :

يوجه المتكلم حديثه إلى السامع على أساس مما يفترض سلفاً أنه معلوم له[4] ، فإذا قال رجل لآخر: **أغلق النافذة**، فالمفترض سلفاً أن النافذة مفتوحة، وأن هناك مبررا يدعو إلى إغلاقها، وأن المخاطب قادر على الحركة، وأن المتكلم فى منزلة الآمر، وكل ذلك موصول بسياق الحال، وعلاقة المتكلم بالمخاطب.

---

(1) Ibid, P.120 - Verschueren, J. (1999) P.21

(2) أحمد مختار عمر: علم الدلالة (الكويت ١٩٨٢) ص٧١.

(3) السابق ص ٢٢٨

(4) Yule, G. (1987) P.100.

من أجل ذلك كانت دراسة الافتراض السابق مثار اهتمام الباحثين منذ أوائل العقد السابع من القرن العشرين[1] لما سببه من مشكلات حقيقية لكل النظريات التحويلية، فضلاً عن أنها شغلت جانبا أساسيا من اهتمام علماء الدلالة، ثم برزت إلى موقع الصدارة من اهتمام الباحثين في أوائل العقد الثامن حين أصبحت الوجهة التداولية في دراسة المعنى بديلاً لا غنى عنه للوجهة الدلالية في هذا الجانب[2] .

وينبغي لمن يخوض في دراسة الافتراض السابق أن يكون على حذر من أمرين[3] .

أولهما: كثرة الأبحاث التي تناولت هذا الموضوع في إطار نظريات مختلفة ووجهات نظر متباينة، على نحو لم يتح لأي جانب من جوانب الدرس التداولي، باستثناء الأفعال الكلامية **speech acts**. وبعض هذه الأبحاث قديم مطّرح **obsolete** وبعضها عقيم **sterile** لا خير يرجى من ورائه. فليس بمستغرب أن يجد الباحث في هذا الموضوع الرأي ونقيضه، فضلاً عما يكتنف بعض هذه الآراء من غموض والتباس.

والثاني: التمييز الواجب بين الاستعمال العام للفظ الافتراض السابق في لغة الحياة اليومية، والاستعمال الاصطلاحي في الدرس التداولي الذي هو

---

(1) تعود المحاولات الأولى لدراسة الافتراض السابق إلى فيلسوف آخر من أكسفورد هو ستراوسن strawson (١٩٥٢) الذي أعاد إنتاج مفهوم كان قد ظهر فعلاً على يد الرياضي الألماني فريجه frege (١٨٩٢) بوصفه مشكلة من مشكلات علم الدلالة المنطقي المؤسس على الصدق Truth-based logical semantics انظر :

Leech & Thomas (1990) P.189

(2) Levinson, S.C. (1983) P.167

- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.189

(3) Levinson, S.C. (1983) P.167

أضيق مدى من الاستعمال العام. فمن الاستعمال العام أن يقال: **كتب زيد رسالة إلى عمرو** فيفترض السامع سلفاً أن عمرا يقرأ أو يقال: **إما أن يكافأ زيد أو تكافأ زوجته** فيفترض السامع سلفاً أن لزيد زوجة، وأما الاستعمال الاصطلاحى فهو مقيد باستدلالات تداولية pragmatic inferences بعينها تحملها تعبيرات لغوية معينة، ويمكن الوصول إليه ببعض الاختبارات اللغوية[1] ، كما سيأتى.

ويستثمر كثير من وكلاء النيابة والمحامين هذه الخاصية فى استجواب المتهمين والشهود، فإذا سأل وكيل النيابة المتهم: **وأين كنت تبيع الكوكايين؟** فأجاب المتهم بذكر مكان ما، ثبتت عليه التهمة، لأن تحديد مكان لبيعه يتضمن افتراضاً سابقاً بالمتاجرة به[2] وفى المحاكم الأوروبية والأمريكية يمنع أن يسأل سؤال من نحو: هل توقفت عن ضرب زوجتك؟ لأنه يتضمن افتراضاً سابقاً بأن المحكمة تبيح ضرب الزوجة[3] .

وقد ميز بعض الباحثين منذ وقت مبكر من العقد السابع من القرن العشرين بين نوعين من الافتراض السابق: **المنطقى أو الدلالي، والتداولي،** فالأول مشروط بالصدق بين قضيتين، فإذا كانت(أ) صادقة كان من اللازم أن تكون (ب) صادقة فإذا قلنا مثلاً: **إن المرأة التى تزوجها زيد كانت أرملة،** وكان هذا القول صادقاً أى مطابقاً للواقع لزم أن يكون القول: **زيد تزوج أرملة** صادقاً أيضا، إذ إنه مفترض سلفاً. وأما الافتراض التداولى السابق فلا دخل له بالصدق والكذب، فالقضية الأساسية يمكن أن تنفى دون أن يؤثر

---

(1) Levinson, S.C. (1983) P.168

(2) Yule, G. (1987) P.100

(3) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) P.199.

ذلك فى الافتراض السابق، فإذا قلت مثلاً **سيارتى جديدة** ثم قلت **سيارتى ليست جديدة** فعلى الرغم من التناقض فى القولين فإن الافتراض السابق وهو أن لك سيارة لا يزال قائماً فى الحالين[1].

على أن من الباحثين من أراد أن يجعل من الافتراض التداولى السابق بديلاً للافتراض الدلالى السابق[2]، ومنهم من رفض قصره على جانب واحد، لأن بعض ظواهر الاستعمال اللغوى تحتاج فى إيضاحها إلى افتراض دلالى سابق، وبعضها يحتاج إلى افتراض تداولى سابق، فليس من الممكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر[3]، وكثير من الباحثين خلطوا بينهما. وقد جعل هذا بعض الباحثين يرى أن الافتراض السابق مفهوم خلافى controversial notion[4].

وقد ميز بعض الباحثين أيضا بين الافتراض الدلالى السابق والاقتضاء entailment. والاقتضاء علاقة بين جملتين أو قضيتين يقتضى صدق الأولى منهما صدق الثانية فإذا كانت الجملة: **أرى حصاناً** صادقة لزم أن تكون الجملة: **أرى حيواناً** صادقة أيضا، فأنت لا تستطيع أن تقبل الأولى وترفض الثانية[5]، وقد أصبح الاقتضاء فى الدراسة الدلالية المتأخرة مقابلاً للافتراض الدلالى السابق على أساس من أن كذب إحدى الجملتين يؤدى إلى نتيجة مختلفة، فإذا كان قولك **أرى حصاناً** كاذبا فإن مفهوم الاقتضاء يوجب أن يكون قولك أرى

---

(1) Newmeyer, F.J. (1986): Linguistic Theory of Amirica. Academic Press. Inc. Orland and London. P.177

(2) Levinson, S.C. (1983), P.204

(3) Leech, G. & Thomaon, J. (1990) P.191

(4) Atkinson, M. - Kilby, D. Roca, I (1988): Foundations of general Linguistics. Unwin Hyman. Lodon. P.199

(5) Leech, G. (1978) : Semantics. Penguin Books. P.291
- Crystal, D. (1994) P.122

حيوانا إما صادقا وإما كاذبا، لكن مفهوم الافتراض الدلالى السابق يقتضى أنه إذا كانت الجملة الأولى كاذبة فإن الثانية يجب أن تكون صادقة فقولك مثلا: **توقف زيد عن ضرب عمرو** يفترض سلفاً أن زيداً كان يضرب عمرًا، وتظل هذه الجمل صادقة إن كذبت الأولى[1] . وظاهر أن الالتباس بين المفهومين لا يكون إلا فى الجمل الخبرية assertive المثبتة، فالاقتضاء مقيد بها، فى حين أن الافتراض السابق لا يتقيد بذلك فضلا عن أنه قد يكون إنشاءً أمرًا أو استفهامًا، أو تعجبا أو غير ذلك[2] .

وقد لحظ بعض الباحثين أن الافتراض السابق قد يرتبط بألفاظ وتراكيب تدل عليه، ولفتوا إلى أن هذا الأمر لم ينل ما يستحق من عناية الدارسين، فلم يظفر بعد بدراسة شاملة، ومما أوردوه من ذلك[3] مما له نظير فى العربية الأزواج الآتية من الجمل التى يكون الافتراض السابق فيها مرتبطا ببعض العناصر اللغوية دون بعض.

١- أ- زيد **اغتيل** سنة ١٨٦٨.

ب- زيد **قتل** سنة ١٨٦٨.

فاستخدام الفعل اغتال فى الجملة (أ) يتضمن افتراضًا سابقًا بأن زيدًا كان شخصية سياسية بارزة، لكن هذا الافتراض غير متحقق فى الفعل قتل فى الجملة (ب).

---

(١) Crystal, D. (1994) P.122

(٢) Newmeyer, F.G. (1986) P.178
- Leech, G. (1978). P.293

(٣) O'Grady, W. et al (1996). P.296
- Verschueren, J. (1999) P.28 f
- Horn, L. (1992). P.263

٢- أ- هل **توقفت** عن التدرب على المصارعة؟

ب- هل **حاولت** أن تتدرب على المصارعة؟

فاستخدام الفعل "توقف عن" فى الجملة (أ) يتضمن افتراضًا سابقًا بأن المخاطب كان يتدرب على المصارعة، وهو غير متحقق فى الفعل حاول فى الجملة (ب).

٣- أ- لم يتمكن أحد من حمل الصخرة **حتى** زيد.

ب- لم يتمكن عمرو **و**لا زيد من حمل الصخرة.

فاستخدام حرف العطف حتى فى الجملة (أ) يتضمن افتراضًا سابقًا بأن زيدًا أقوى من غيره ممن حاولوا حمل الصخرة وأشدّ، أو أنه متميز دونهم بقدرته على رفع الأثقال، وهذا غير متحقق فى استعمال حرف العطف الواو.

٤- أ- **لو** كان العام عام سلام ما أريقت هذه الدماء.

ب- **إذا** كان العام عام سلام فلن تراق دماء.

فاستخدام لو فى الجملة (أ) يتضمن افتراضا سابقًا بامتناع أن يكون العام المراد عام سلام، وهو غير متضمن فى إذا.

٥- أ- أرجوك أن تتجاوز عن **الخطأ** الذى وقع منى أمس.

ب- أرجوك أن تتجاوز عن **أى خطأ** يقع منى.

فاستعمال أداة التعريف فى الخطأ فى الجملة (أ) يتضمن افتراضًا سابقًا أن هناك خطأ محددا وقع، وهذا غير متضمن فى أى.

٦- أ- أنهت زينب بحثها **بعد** أن **عادت** من أوروبا.

ب- أنهت زينب بحثها **بعد** أن **ماتت**.

فاستخدام الظرف بعد مع الفعل مات فى (ب) جعل الجملة غير مقبولة لأنه يفترض سلفاً أن من المستحيل أن ينجز المرء عملاً بعد الموت، ولا

كذلك الفعل عاد.

هذه أمثلة لارتباط افتراض سابق بعينه باستعمال ألفاظ لغوية بعينها سقناها على سبيل التمثيل آملين أن يفرغ أحد الباحثين لدراسة هذه الظاهرة.

ثالثاً: الاستلزام الحوارى conversational implicature :

يعد الاستلزام الحوارى واحدًا من أهم الجوانب فى الدرس التداولي؛ فهو ألصقها بطبيعة البحث فيه، وأبعدها عن الالتباس بمجالات الدرس الدلالي، وعلى الرغم من ذلك فليس له–خلافا لكثير من موضوعات البحث التداولى– تاريخ ممتد[1] ؛ إذ ترجع نشأة البحث فيه إلى المحاضرات التى دعى جرايس H.P.Grice – وهو من فلاسفة أكسفورد المتخصصين فى دراسة اللغة الطبيعية natural language – إلى إلقائها فى جامعة هارفارد سنة ١٩٦٧م، فقدم فيها بإيجاز تصوره لهذا الجانب من الدرس، والأسس المنهجية التى يقوم عليها[2] . وقد طبعت أجزاء مختصرة من هذه المحاضرات سنة ١٩٧٥ فى بحث له يحمل عنوان: المنطق والحوار Logic and Conversation، ثم وسع فى بحثين له نشرا سنة ١٩٧٨، وسنة ١٩٨١ ما قدمه فى عمله المبكر، لكن الرجل لم يطور أفكاره تطويرًا كاملا، ولم يحكم عرضها فجاء عمله قليل التماسك كثير الفجوات، مشكلا فى بعض جوانبه، وغير مفهوم أصلا فى بعض آخر، ومن عجب أن يصبح عمل كهذا واحدًا من أهم النظريات فى البحث التداولي، وأكثرها تأثيرًا فى تطوره[3] .

---

(1) Levinson, S.C. (1983) P.97, 100
- Brown, G. & Yule, G. (1998): Discourse analysis. Cambridge University Press. P.33

(2) Thomas, J. (1996). P.56

(3) Ibid, P.56.
- Levinson, S.C. (1983) P.100

لقد كانت نقطة البدء عند جرايس هى أن الناس فى حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كل همه إيضاح الاختلاف بين **ما يقال** what is said، **وما يقصد** what is meant، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية face values وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر اعتمادًا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، فأراد أن يقيم معبرًا بين ما يحمله القول من معنى صريح explicit meaning وما يحمله من معنى متضمن inexplicit meaning فنشأت عنده فكرة الاستلزام implicature[1].

وقد نظر جرايس فرأى أن الاستلزام نوعان : استلزام عرفى conventional implicature واستلزام حوارى conversational implicature، فأما الاستلزام العرفى فقائم على ما تعارف عليه أصحاب اللغة من استلزام بعض الألفاظ دلالات بعينها لا تنفك عنها مهما اختلفت بها السياقات وتغيرت التراكيب. ومن ذلك مثلاً فى الإنجليزية but ونظيرتها فى اللغة العربية لكن فهى هنا وهناك تستلزم دائما أن يكون ما بعدها مخالفاً لما يتوقعه السامع مثل: **My friend is poor, but honest**، ومثل **زيد غنى لكنه بخيل**. وأما الاستلزام الحوارى فهو متغير دائما بتغير السياقات التى يرد فيها[2].

لقد كان ما يشغل جرايس هو كيف يكون ممكناً أن يقول المتكلم شيئاً

---

(١) Thomas, J. (1996) P.55 f
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.179

(٢) Ibid, P.183
- Brown, G. & Yule, G. (1998). P.31
- Thomas, J. (1996). P.57

ويعنى شيئا آخر؟ ثم كيف يكون ممكنا أيضا أن يسمع المخاطب شيئا ويفهم شيئا آخر؟ وقد وجد حلاً لهذا الإشكال فيما أسماه مبدأ التعاون co-operative principle بين المتكلم والمخاطب وهو مبدأ حوارى عام يشتمل على أربعة مبادئ maxims فرعية هى[1] :

١- مبدأ الكمّ Quantity :

احعل إسهامك فى الحوار بالقدر المطلوب من دون أن تزيد عليه أو تنقص منه.

٢- مبدأ الكيف Quality :

لا تقل ما تعتقد أنه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه.

٣- مبدأ المناسبة relevance :

اجعل كلامك ذا علاقة مناسبة بالموضوع.

٤- مبدأ الطريقة manner :

كن واضحا ومحددا: فتجنب الغموض obscurity، وتجنب اللبس ambiguity، وأوجز، ورتب كلامك.

هذه هى المبادئ التى يتحقق بها التعاون بين المتكلم والمخاطب وصولاً إلى حوار مثمر. وينبغى هنا اللفت إلى أمرين:

أحدهما: أن بعض الباحثين رأى فى مبدأ التعاون تعبيرًا عن فردوس

---

[1] Lyons, J. (1996): Linguistic Semantics. An Introduction. Cambridge University Press. P.277 ff
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.180 ff

وانظر أيضاً:

روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء. ترجمة تمام حسان. عالم الكتب ١٩٩٨ ص ٤٩٥ فما بعدها.

الفلاسفة philosopher's paradise الذى لا يمت إلى الواقع بصلة فهو يرى الناس جميعا متعاونين، صادقين، مخلصين، واضحين، وليس من الممكن ولا المشاهد أن يتحدث الناس على هذا النحو كل حين، بل إن أغلب أنواع الحوار الذى يدور بين البشر يخالف هذا المبدأ. والحق أن الرجل لم يقصد بمبدأ التعاون الحوارى ما عجل هؤلاء إلى فهمه، بل كان يقصد أن الحوار بين البشر يجرى على ضوابط وتحكمه قواعد يدركها كل من المخاطب والمتكلم[1] ، ولكن نوضح ذلك نسوق الحوار الآتى بين زوج (أ) وزوجة (ب):

أ- أين مفاتيح السيارة؟

ب- على المائدة.

وظاهر أن مبدأ التعاون والمبادئ الحوارية التى يتفرع إليها متحققة كلها فى هذه المحاورة القصيرة، لقد أجابت الزوجة إجابة واضحة (الطريقة)، وكانت صادقة (الكيف) واستخدمت القدر المطلوب من الكلمات دون تزيُّد (الكم) وأجابت إجابة ذات صلة وثيقة بسؤال زوجها (المناسبة)، ولذلك لم يتولد عن قولها أى استلزام، لأنها قالت ما تقصد[2].

الثاني: أن الرجل لم يغب عنه أن هذه المبادئ التى يجرى عليها الحوار كثيرًا ما تنتهك بل إن النظرية كلها قائمة على ذلك، فانتهاك مبادئ الحوار flouting of maxims هو الذى يولّد الاستلزام، مع ملحظ شديد الأهمية هو الإخلاص لمبدأ التعاون بمعنى أن يكون المتكلم حريصا على إبلاغ المخاطب معنى بعينه، وأن يبذل المخاطب الجهد الواجب للوصول إلى المعنى الذى يريده

---

(1) Levinson, S.C. (1983). P.102
- Thomas, J. (1996). P.62

(2) Thomas, J. (1996). P.64

المتكلم، وألا يريد أحدهما خداع الآخر أو تضليله[1] .

وعلى ذلك إذا انتهك المتكلم مبدأ من مبادئ الحوار أدرك المخاطب اليقظ ذلك وسعى إلى الوصول إلى هدف المتكلم من هذا الانتهاك. ولنضرب الآن أمثلة توضح ذلك:

١- فى حوار يجرى بين أم (أ) وولدها (ب)

أ - هل اغتسلت ووضعت ثيابك فى الغسالة؟

ب- اغتسلت.

فى هذا الحوار خرق أو انتهاك لمبدأ الكم لأن الأم سألته عن أمرين فأجاب عن واحد وسكت عن الثاني، أى أن إجابته أقل من المطلوب. ويستلزم هذا أن تفهم الأم أنه لم يضع ثيابه فى الغسالة، وأنه لم يرد أن يجيب بنعم حتى لا تشمل الإجابة شيئاً لم يقم به، ولم يرد أن يواجهها بتقاعسه عن وضع ثيابه فى الغسالة[2] .

٢- فى حوار بين تلميذ (أ) وأستاذ (ب)، وكلاهما إنجليزي:

أ - طهران فى تركيا، أليس هذا صحيحًا يا أستاذ؟

ب- طبعا، ولندن فى أمريكا !

فى هذا الحوار انتهك الأستاذ مبدأ الكيف الذى يقتضى ألا يقول إلا ما يعتقد صوابه، وألا يقول ما لا دليل عليه[3] . وقد انتهكه الأستاذ عمدًا ليظهر للتلميذ أن إجابته غير صحيحة، ويؤنبه على جهله بشيء كهذا، والتلميذ قادر على الوصول إلى مراد الأستاذ؛ لأنه يعلم أنّ لندن ليست فى أمريكا، وذلك

---

(١) Brown, G. & Yule, G. (1998). P.32

(٢) Lyons, J. (1996). P.278

(٣) Levinson, S.C. (1983). P.110

يستلزم أن الأستاذ يقصد بقوله شيئاً غير ما تقوله كلماته، وهو أن قـول التلميـذ غير صحيح.

٣- فى حوار بين رجلين:

أ- أين زيد؟

ب- ثمة سيارة صفراء تقف أمام منزل عمرو

وما قاله (ب) بمعناه الحرفى ليس إجابة عن السؤال، فهـو ينتهـك مبـدأ العلاقة المناسبة بالموضوع، ولكـن السـامع فـى ضـوء المبـادئ الأخـري للتعـاون يسأل نفسه ما هى العلاقة الممكنة بين وقوف سيارة صفـراء أمـام منـزل عمـرو وسؤالى عن مكان زيد، ثم يصل إلى أن المراد بهذا القول إبلاغه رسـالة مؤداهـا أنه إذا كانت لزيد سيارة صفراء فلعله عند عمرو[1].

٤- فى حوار بين رجلين:

أ- ماذا تريد؟

ب- قم، واتجه إلى الباب، وضع المفتاح فى القفل، ثـم أدره ناحيـة اليسـار ثلاث مرات، ثم ادفع الباب برفق.

وواضح أن فيما قاله (ب) انتهاكـاً لمبـدأ مـن مبـادئ الطريقـة manner وهو "أوجز" إذ كان يكفى أن يقال: افتح الباب[2] ، وإذا نظرنا إلى هـذا القـول فى ضوء تحقق مبادئ الحوار الأخرى كان لابد أن المتكلم يحاول به وجهـا غـير ما يظهر، قد يكون مؤاخذته على ما يتميز به بين بطء وتكاسل.

---

(١) Ibid, P.102

(٢) Ibid, P.108

على أن انتهاك مبادئ الحوار لا يقتصر على التعبير الحقيقى كما قدمنا، بل يشمل المجازى أيضاً[1] ، وهو متحقق أيضاً فى كل مفارقة irony يراد بها عكس ما يقال، أو غير ما يتوقع[2] .

وللاستلزام الحوارى عند جرايس **خواص** تميزه عن غيره من أنواع الاستلزام الأخرى، وقد استطاع أن يضع يده على الخواص الآتية:

١- الاستلزام **ممكن إلغاؤه defeasible**، ويكون ذلك عادة بإضافة قول يسد الطريق أمام الاستلزام أو يحول دونه فإذا قالت قارئة لكاتب مثلاً: **لم أقرأ كل كتبك**، فقد يستلزم ذلك عنده أنها قرأت بعضها، فإذا أعقبت كلامها بقولها، الحق أنى لم أقرأ أى كتاب منها، فقد ألغت الاستلزام. وإمكان الإلغاء هذا هو أهم اختلاف بين المعنى الصريح والمعنى الضمني، وهو الذى يمكن المتكلم من أن ينكر ما يستلزمه كلامه[3] .

٢- الاستلزام **لا يقبل الانفصال non-detachable** عن المحتوى الدلالي، ويقصد جرايس بذلك أن الاستلزام الحوارى متصل بالمعني الدلالى لما يقال لا بالصيغة اللغوية التى قيل بها، فلا ينقطع مع استبدال مفردات أو عبارات بأخرى ترادفها. ولعلّ هذه الخاصية هى التى تميز الاستلزام الحوارى عن غيره من أنواع الاستدلال التداولى مثل الافتراض السابق **presupposition** ولعلّ ما أراد يتضح من الحوار الآتى بين أختين:

---

(١) Lyons, J. (1996). P.383 ff
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.182

(٢) Atkinson, M. et al (1989). P.217
- Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.182
- Levinson, S.C. (1983). P.109

(٣) Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.184
- Lyons, J. (1996). P.286
- Thomas, J. (1996). P.82

١- لا أريدك أن تسللى إلى غرفتى على هذا النحو.

٢-أنا لا أتسلل، ولكـن أمشـى علـى أطـراف أصـابعى خشـية أن أحـدث ضوضاء.

فعلى الرغم من تغير الصياغة فى قول (ب) فإن ما يستلزمه القول مـن عـدم الرضا عن هذا السلوك لا يزال قائمـا[1].

٣- الاستلزام متغـير، والمقصـود بالتغـير أن التعبـير الواحـد يمكـن أن يـؤدى إلى استلزامات مختلفة فى سياقات مختلفة، فإذا سألت طفلا يحتفل بيـوم ميـلاده مثلاً: كم عمرك، فهو طلب للعلم، وإذا سألت السؤال نفسه لصبـى عمـره خمسة عشر عاما فقد يستلزم السؤال مؤاخذة له على نـوع مـن السـلوك لا ترضاه له، وإذا سألت السؤال نفسه لفتى يمنع من اتخـاذ قـرار لا يخـرج عـن تعاليم الدين ومواضعات الأخلاق والأعراف فقد يعنى ذلك أنه مـن النضـج بحيث يستطيع أن يتخذ قراره ويتحمل عواقبه.

ومثل ذلك أن يقول رجل سرق متاعه يوم العيد: **تلك أفضـل هديـة**، ومـن الممكن أن يقول هذه العبارة نفسها رجل تلقى رسالة من صديق قديـم يـوم العيد أو طالب بشر بنجـاحه... الخ[2].

٤- الاستلزام **يمكن تقديره calculability** والمراد به أن المخاطب يقوم بخطـوات محسوبة يتجه بها خطوة خطوة إلى الوصول إلى مـا يسـتلزمه الكـلام[3] فـإذا قيل مثلا: الملكة فكتوريا صنعت من حديد، فإن القرينـة تبعـد السـامع عـن

---

(١) Lyons, J. (1996). P.289
- Levinson, S.C. (1983). P.116

(٢) Thomas, J. (1996) P.80 f.
- Levinson, S.C. (1983) P.117 f

(٣) Thomas, J. (1996). P.82

قبول المعنى اللفظي، فيبحث عما وراء الكلام من معنى فيقول لنفسه: المتكلم يريد أن يلقى إلى خبرًا بدليل أنه ذكر لى جملة خبرية، والمفروض فى هذا المتكلم أنه ملتزم بمبدأ التعاون أى أنه لا يريد بى خداعًا ولا تضليلاً، فماذا يريد أن يقول؟ لابدَّ أنه يريد أن يخلع على الملكة بعض صفات الحديد كالصلابة، والمتانة وقوة التحمل، وهو يعرف أننى أستطيع أن أفهم المعنى غير الحرفى non-literal ؛ فلجأ إلى هذا التعبير الاستعارى[1] .

هذا هو الاستلزام الحوارى عند جرايس الذى يمثل نظرية متكاملة حاول الباحثون إيضاحها بأمثلة كثيرة مما قدمت، كما حاولوا تطويرها واستكمال جوانب النقص والقصور فيها، وهى قريبة جدًا مما ورد فى التراث اللغوى العربى عند البلاغيين وعلماء أصول الفقه، وقد استطاع أحمد المتوكل أن يقدم دراسة حاول بها أن يستكشف المعالم الرئيسية للوصف العربى القديم لهذه الظاهرة معتمدًا على ما قدمه السكاكى فى مفتاحه لأنه وجد تناوله يتجاوز الملاحظة المجردة إلى التحليل الملائم للظاهرة، الذى يضبط علاقة المعنى الصريح بالمعنى المستلزم مقاميا، ويصف آلية الانتقال من الأول إلى الثانى بوضع قواعد استلزامية واضحة[2] .

رابعاً: الأفعال الكلامية speech acts :

تستأثر نظرية الأفعال الكلامية باهتمام الباحثين فى جوانب النظرية العامة لاستعمال اللغة، فعلماء النفس يرون اكتسابها شرطاً أساسيا لاكتساب

---

(1) Levinson, S.C. (1983). P.110

(2) عنوان البحث هو: "اقتراحات من الفكر اللغوي العربي القديم لوصف ظاهرة الاستلزام الحواري". وقد نشر أولاً في: البحث اللساني والسيميائي. منشورات كلية الآداب- الرباط سنة ١٩٨٤ ثم أعيد نشره في كتاب له بعنوان: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي. دار الثقافة- الدار البيضاء (١٩٨٦) ص ص ٩٣-١٠٣.

اللغة كلها، ونقاد الأدب يرون فيها إضاءة لما تحمله النصوص من فروق دقيقة في استعمال اللغة وما تحدثه من تأثير في الملتقي، والأنثروبولوجيون يأملون أن يجدوا فيها تفسيرًا للطقوس والرقى السحرية، والفلاسفة يرون فيها مجالاً خصباً لدراسة علاقة اللغة بالعالم، واللغويون يجدون فيها حلولاً لكثير من مشكلات الدلالة والتراكيب، وتعليم اللغة الثانية، أما في الدرس التداولي فإن الأفعال الكلامية تظل واحدًا من أهم المجالات فيه، إن لم يكن أهمها جميعا[1] ، بل إنّ التداولية في نشأتها الأولى كانت مرادفة للأفعال الكلامية[2] ، فليس بغريب إذن أن يعدّ جون أوستن J.Austin أبا للتداولية[3] .

ولم يكن أوستن لغويًا، بل كان فيلسوفاً من فلاسفة اللغة العادية ordinary language في أكسفورد في العقدين الرابع والخامس من القرن العشرين[4] ، وكان بعض الفلاسفة في كمبردج ومن أهمهم رسل وفتجنشتاين يسعون لإيجاد لغة مثالية تتجنب كل عيوب اللغة العادية، فتكون أكثر ملاءمة للفكر الفلسفي[5] ، لكن رسل وفتجنشتاين كليهما عدلا بعد نحو عشرين سنة عن ذلك، واتجه فتجنشتاين إلى دراسة اللغة العادية[6] .

وكان من أهم ما رآه فتجنشتاين أن وظيفة اللغة لا تقتصر على تقرير الوقائع أو وصفها، لكن للغة وظائف عديدة كالأمر والاستفهام والتمني

---

(1) Levinson, S.C. (1983) P.226

(2) Bussmann, H. (1996). Dictionary of Language and Linguistics. Translated and edited by Trauth G.P. and Kazzazi, K. Routledge. London & New York. P.374

(3) Thomas, J. (1996) P.28

(4) Ibid, P.28

(5) محمود فهمي زيدان: في فلسفة اللغة. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٨٥ ص٢٩ فما بعدها.

(6) السابق ص٤٦

والشكر، والتهنئة واللعن والقسم والتحذير... الخ. وليست اللغة عنده حساباً منطقيا دقيقاً، لكل كلمة فيها معنى محدد ولكل جملة معنى ثابت بحيث لا تنتقل من جملة إلا إلى ما يلزم عنها من جمل مراعيا قواعد الاستدلال المنطقى بل الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استخدامنا لها في الحياة اليومية، وتتعدد معانى الجمل بحسب السياقات التى ترد فيها[1] ، فالمعنى عنده هو الاستعمال meaning is use[2] .

وقد كان ما ذكره فتجنشتاين بالغ الأثر فى أوستن فتصدى للرد على فلاسفة الوضعية المنطقية logical positivism فى محاضراته التى ألقاها فى أكسفورد ما بين سنتى ١٩٥٢ و ١٩٥٤، وفى محاضرات دعى لإلقائها فى هارفارد سنة ١٩٥٥، وقد جمع إرمسون J.O.Urmson محاضرات أوستن التى ألقاها فى هارفارد وعدتها اثنتا عشرة فى كتاب نشر بعد وفاة أوستن المفاجئة سنة ١٩٦٠ بعنوان[3]

How to do Things with Words

وكان فلاسفة الوضعية المنطقية يرون اللغة وسيلة لوصف الوقائع الموجودة فى العالم الخارجى بعبارات إخبارية ثم يكون الحكم بعد ذلك على هذه العبارات بالصدق إن طابقت الواقع وبالكذب إن لم تطابقه، فإذا لم تطابق العبارة واقعًا فليس من الممكن الحكم عليها بصدق أو كذب، وهى من ثمَّ لا معنى لها، ومثال ذلك أن يقال الآن: "ملك فرنسا أصلع" فهذه العبارة لا تطابق الواقع، ولا يمكن الحكم عليها بصدق أو كذب، فلا معنى لها. وهم بذلك

---

(١) السابق نفسه ص٥٦ فما بعدها.

(٢) Levinson, S.C. (1983) P.227

(٣) Ibid, P.227

يخرجون من اللغة معظم أنواع الخطاب الأدبي والديني والأخلاقي فهي بمعيارهم لا معنى لها[1] .

لقد أنكر أوستن أن تقتصر وظيفة اللغة على وصف وقائع العالم state of affairs وصفاً يكون إما صادقاً وإما كاذباً وأطلق عليه المغالطة الوصفية descriptive fallacy، ورأى أن هناك نوعًا آخر من العبارات يشبه العبارات الوظيفية في تركيبها لكنه لا يصف وقائع العالم ولا يوصف بصدق ولا كذب، كأن يقول رجل مسلم لامرأته: **أنت طالق**، أو يقول: **أوصي بنصف مالي لمرضى السرطان** أو يقول وقد بشر بمولود: **سميته يحيى**، فهذه العبارات وأمثالها لا تصف شيئاً من وقائع العالم الخارجي، ولا توصف بصدق أو كذب، بل إنك إذا نطقت بواحدة منها أو مثلها لا تنشئ قولا (to make statement) بل تؤدي فعلاً (perform action) فهي أفعال كلام، أو هي أفعال كلامية[2] .

ولعلي أوجز الآن ما قدمه أوستن لنظرية الأفعال الكلامية فيما يأتي:

أولا: ميز أوستن بين نوعين من الأفعال[3] :

أ- أفعال إخبارية constative، وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة.

---

(1) Thomas, J. (1996) P.29 f
- Levinson, S.C. (1983) P.227

(2) Thomas, J. (1996) P.31
- محمود أحمد نحلة: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية في: مجلة الدراسات اللغوية. الرياض م ١ ع ١ أبريل- يونيو ١٩٩٩ ص ١٦١- ١٦٢.

(3) Leech, G. & Thomas, J. (1990) P.175
- Verschueren, J. (1999) P.22

ب- **أفعال أدائية performative**، تنجز بها فى ظروف ملائمة أفعال أو تؤدى، ولا توصف بصدق ولا كذب، بل تكون موفقة happy كما أطلق عليها أو غير موفقة unhappy، ويدخل فيها التسمية، والوصية، والاعتذار والرهان، والنصح، والوعد.

ولا تكون الأفعال الأدائية موفقة عنده إلا إذا تحققت لها **شروط الملاءمة felicity conditions**، فإذا لم تتحقق كان ذلك إيذانا بإخفاق الأداء misfire، **وشروط قياسية regulative**، وهي ليست لازمة لأداء الفعل؛ بل لأدائه أداء موفقا غير معيب، فإذا لم تتحقق كان في ذلك إساءة abuse أداء للفعل[1] .

فأما الشروط التكوينية فهى[2] :

١- وجود إجراء عرفى conventional procedure مقبول، وله أثر عرفى معين كالزواج مثلا أو الطلاق.

٢- أن يتضمن الإجراء نطق كلمات محددة ينطق بها أناس معينون فى ظروف معينة.

٣- أن يكون الناس مؤهلين لتنفيذ هذا الإجراء.

٤- أن يكون التنفيذ صحيحًا.

٥- أن يكون التنفيذ كاملاً.

---

(١) Geis, M.L. (1997): Speech act and Conversational Interaction. Cambridge University Press. P.4
- Levinson, S.C. (1983) P.230
- صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد. دار التنوير. بيروت ١٩٩٣ ص١٤٣

(٢) صلاح إسماعيل عبد الحق (١٩٩٣) ص ١٤٢- ١٤٣
- Levinson, S.C. (1983). P.229

وأما الشروط القياسية فهي:

١- أن يكون المشارك فى الإجراء صادقاً فى أفكاره.

٢- أن يكون المشارك فى الإجراء صادقاً فى مشاعره.

٣- أن يكون المشارك صادقاً فى نواياه.

٤- أن يلتزم بما يلزم نفسه به.

ثانيًا : حين تبين لأوستن أن تمييزه بين الأفعال الإخبارية والأدائية غير حاسم وأن كثيرا مما تنطبق عليه شروط الأفعال الأدائية ليس منها، وأن كثيرًا من الأفعال الإخبارية تقوم بوظيفة الأدائية رجع عودًا على بدء إلى السؤال: كيف ننجز فعلاً حين ننطق قولاً؟[1] .

وفى سعيه للإجابة عن هذا السؤال مرة أخرى رأى أن الفعل الكلامى مركب من ثلاثة أفعال، تعدّ جوانب مختلفة لفعل كلامى واحد، ولا يفصل أحدهما عن الآخر إلا لغرض الدرس وهى[2] :

١- الفعل اللفظى locutionary act:

وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم فى تركيب نحوى صحيح ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي، وله مرجع يحيل إليه.

٢- الفعل الإنجازى illocutionary act :

وهو ما يؤديه الفعل اللفظى من معنى إضافى يكمن خلف المعنى الأصلى.

---

(١) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص١٦٧

(٢) Thomas, J. (1996) P.49

- Helbig, G. Entwicklung der Sprachwissenschaft Seit 1970: Opladen 1990. S.186
- Levinson, S.C. (1983).P.236

٣- الفعل التأثيرى perlocutionary act :

ويقصد به الأثر الذى يحدثه الفعل الإنجازى فى السامع.

وقد فطن أوستن إلى أن الفعل اللفظى لا ينعقد الكلام إلا به، والفعل التأثيرى لا يلازم الأفعال جميعا فمنها مالا تأثير له فى السامع، فوجه اهتمامه إلى الفعل الإنجازى حتى غدا لبَّ هذه النظرية فأصبحت تعرف به أيضا، فتسمى أحياناً النظرية الإنجازية[1] .

ثالثا: قدم أوستن تصنيفاً للأفعال الكلامية على أساس من قوتها الإنجازية illocutionary force، يشتمل على خمسة أصناف، و لم يتردد فى القول بأنه غير راضٍ عن هذا التصنيف[2] :

١- أفعال الأحكام verdictives: وهى التى تتمثل فى حكم يصدره قاضٍ أو حَكَم.

٢- أفعال القرارات exercitive: وتتمثل فى اتخاذ قرار بعينه كالإذن والطرد، والحرمان، والتعيين.

٣- أفعال التعهد commissives: وتتمثل فى تعهد المتكلم بفعل شيء، مثل الوعد، والضمان، والتعاقد والقسم.

٤- أفعال السلوك behabitives: وهى التى تكون ردّ فعل لحدث ما كالاعتذار، والشكر، والمواساة، والتحدى.

٥- أفعال الإيضاح expositives: وتستخدم لإيضاح وجهة النظر أو بيان الرأى مثل الاعتراض، والتشكيك، والإنكار، والموافقة، والتصويب، والتخطئة.

---

(١) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٦٧

(٢) صلاح إسماعيل عبد الحق (١٩٩٣) ص ٢٢٢ فما بعدها.

على أن ما قدمه أوستن لم يكن كافيا لوضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية، لكنه كان كافيا ليكون نقطة انطلاق إليها بتحديده لعدد من المفاهيم الأساسية فيها، وبخاصة مفهوم الفعل الإنجازى الذى أصبح مفهومًا محوريا فى هذه النظرية، حتى جاء جون سيرل فأحكم وضع الأسس المنهجية التى تقوم عليها، وكان ما قدمه عن الفعل الإنجازى illocutionary act والقوة الإنجازية illocutionary force كافيا لجعل الباحثين يتحدثون عن "نظرية سيرل فى الأفعال الكلامية" بوصفها مرحلة أساسية تالية لمرحلة الانطلاق عند أوستن[١] .

ويمكننا أن نوجز القول فى أهم ما جاء به سيرل على النحو الآتي: .

١- نص سيرل على أن الفعل الإنجازى هو الوحدة الصغرى minimal unit للاتصال اللغوى، وأن للقوة الإنجازية دليلاً يسمى دليل القوة الإنجازية illocutionary force indicator يبين لنا نوع الفعل الإنجازى الذى يؤديه المتكلم بنطقه للجملة، ويتمثل فى اللغة الإنجليزية فى نظام الجملة word-order والنبر stress، والتنغيم intonation، وعلامات الترقيم punctuations فى اللغة المكتوبة، وصيغة الفعل mood،وما يسمى الأفعال الأدائية performative[٢] .

٢- الفعل الكلامى عنده أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل هو مرتبط أيضا بالعرف اللغوى والاجتماعي، ولخص ذلك فى عبارة مأثورة هى[٣] :

Meaning is more than a matter of intention, it is also a matter of convention.

---

(١) Leech, G. & Thomas, J. (1990) P.177

(٢) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٧١ وما بعدها.

(٣) Verschueren, J. (1999).P.23
- Leech, G. & Thomas, J. (1990).P.177

٣- طور سيرل شروط الملاءمة عند أوستن فجعلها أربعة، وطبقها تطبيقا محكماً على كثير من الأفعال الإنجازية، وهذه الشروط هي[1] :

١- **شروط المحتوى القضوى propositional content**: وهو يتحقق بأن يكون للكلام معنى قضوى (نسبة إلى القضية proposition التى تقوم على متحدث عنه أو مرجع reference، ومتحدث به أو خبر predication والمحتوى القضوى هو المعنى الأصلى للقضية، ويتحقق شرط المحتوى القضوى فى فعل الوعد مثلا إذا كان دالاً على حدث فى المستقبل يلزم به المتكلم نفسه.

٢- **الشرط التمهيدى preparatory**: ويتحقق إذا كان المتكلم قادرًا على إنجاز الفعل، لكن لا يكون من الواضح عند كل من المتكلم والمخاطب أن الفعل المطلوب سينجز فى المجرى المعتاد للأحداث أو لا ينجز.

٣- **شرط الإخلاص sincerity**: ويتحقق حين يكون المتكلم مخلصًا فى أداء الفعل فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يستطيع.

٤- **الشرط الأساسى essential**: ويتحقق حين يحاول المتكلم التأثير فى السامع لينجز الفعل.

وقد قدم سيرل الدليل على أن من الممكن بهذه الشروط الأربعة التمييز الميسور بين الأفعال الكلامية المختلفة، خذ مثلاً تطبيق هذه الشروط على فعل الالتماس[2] :

---

(١) Verschueren, J. (1999).P.23
- Leech, G. & Thomas, J. (1990).P.177

(٢) Leech, G. & Thomas, J. (1990). P.178

١- المحتوى القضوى: فعل مستقبلى موجه إلى سامع.

٢- الشرط التمهيدى:

أ- المستمع قادر على أن يؤدى الفعل.

ب- ليس من الواضح لكل من المتكلم والسامع أن الفعل سوف ينجز فى ظروف طبيعية أو لا.

٣- شرط الإخلاص: المتكلم يريد حقا أن يؤدى السامع الفعل.

٤- الشرط الأساسي: يعد محاولة لحث السامع على أداء الفعل.

رابعًا: قدم سيرل تصنيفا بديلاً لما قدمه أوستن من تصنيف للأفعال الكلامية يقوم على ثلاثة أسس منهجية هى :

١- الغرض الإنجازى illocutionary point.

٢- اتجاه المطابقة direction of fit.

٣- شرط الإخلاص sincerity condition.

وقد جعلها خمسة أصناف أيضا[1] :

١- الإخباريات assertives:

والغرض الإنجازى فيها هو وصف المتكلم واقعة معينة من خلال قضية proposition، وأفعال هذا الصنف كلها تحتمل الصدق والكذب واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم words-to-world وشرط الإخلاص فيها يتمثل فى النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها.

٢- التوجيهات directives:

وغرضها الإنجازى محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شىء معين.

---

(١) Verschueren, J. (1996).P.24

- محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٧٧ فما بعدها.

واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات world-to-words وشرط الإخلاص فيها يتمثل فى الرغبة الصادقة، ويدخل فى هذا الصنف الأمر، والنصح، والاستعطاف والتشجيع.

٣- الالتزاميات commissives:

وغرضها الإنجازى هو التزام المتكلم بفعل شيء فى المستقبل. واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات. وشرط الإخلاص هو القصد intention. ويدخل فيها الوعد، والوصية.

٤- التعبيريات expressives:

وغرضها الإنجازى هو التعبير عن الموقف النفسى تعبيرًا يتوافر فيه شرط الإخلاص وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة، فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات مطابقة للعالم ولا العالم مطابقاً للكلمات، ويدخل فيها الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والمواساة.

٥- الإعلانيات declarations:

والسمة المميزة لها أن أداءها الناجح يتمثل فى مطابقة محتواها القضوى للعالم الخارجي، فإذا أديت فعل إعلان الحرب أداءً ناجحاً فالحرب معلنة، وثمة سمة أخرى مميزة هى أنها تحدث تغييرًا فى الوضع القائم فضلاً عن أنها تقتضى عرفاً غير لغوي، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات، ولا تحتاج إلى شرط إخلاص.

خامسًا: استطاع سيرل أن يميز بين الأفعال الإنجازية المباشرة direct والأفعال الإنجازية غير المباشرة indirect، فبين أن الأفعال الإنجازية المباشرة هى التى تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم أي يكون ما يقوله مطابقاً لما يعنيه أما الأفعال الإنجازية غير المباشرة فهى التى تخالف فيها قوتها

الإنجازية مراد المتكلم، وقد ذكر سيرل المثال الآتى بياناً للأفعال الإنجازية غير المباشرة: إذا قال رجل لرفيق له على المائدة: **هل تناولنى الملح** فهذا فعل إنجازى غير مباشر، إذ قوته الإنجازية الأصلية تدل على الاستفهام الذى يحتاج إلى جواب، وهو مصدر بدليل الاستفهام "هل". لكن الاستفهام غير مراد للمتكلم، بل هو طلب مهذب يؤدى معنى فعل إنجازى مباشر هو: **ناولنى الملح** [١] .

والأفعال الإنجازية غير المباشرة عند سيرل لا تدل هيئتها التركيبية على زيادة فى المعنى الإنجازى الحرفي، وإنما الزيادة فيما أطلق عليه سيرل معنى المتكلم، وقد لفت إلى أن السامع يصل إلى مراد المتكلم بما أشرنا إليه من مبدأ التعاون الحوارى عند جرايس[٢] ، وبما أسماه سيرل استراتيجية الاستنتاج inference stratigy[٣] .

وقد لحظ سيرل بعد مناقشته لعدد كبير من الأفعال الإنجازية غير المباشرة أنَّ أهم البواعث إلى استخدام الأفعال المباشرة هو التأدب فى الحديث[٤] كما لحظ بعض الباحثين أن كل الأفعال الكلامية أفعال غير مباشرة فيما عدا الأفعال الأدائية الصريحة[٥] ، فنحن نتواصل بها أكثر من تواصلنا بغيرها.

وبعد، فلعلى أشير فى ختام هذا البحث إلى ما يأتى :

---

(١) Leech, G & Thomas, J. (1990). P.191 f
- Lyons, J. (1996). P.252
- Thomas, J. (1996). P.93 f
- محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص ١٧٩

(٢) انظر ص٢٢ من هذا البحث.

(٣) محمود أحمد نحلة (١٩٩٩) ص١٨١

(٤) السابق نفسه

(٥) Thomas, J. (1996).P.94

١- لعله قد ظهر مما قدمت ما للاتجاه التداولى من أهمية بالغة فى الدرس اللغوى المعاصر، فعلى الرغم من اتساع جوانب الدرس فيه وتعدد الموضوعات التى لا يجمع بينها غير ظواهر الاستعمال فهو يقدم لوناً من الدرس للغة فى تجلياتها الحية لا يمكن إغفاله أو الإغضاء عنه. ويبدو ذلك جلياً فى الأخطاء التداولية التى قد تجلب على المرء من المزعجات والمخاطر ما لا قبل له به.

٢- كان لفلاسفة اللغة الطبيعية أثر غير منكور فى نشأة هذا الاتجاه وتطويره، وبخاصة فلاسفة اللغة الطبيعية فى أكسفورد: أوستن، وجرايس، وسيرل.

٣- تعددت تعريفات التداولية، وكان لهذا التعدد أثره فى ترجمة المصطلح إلى اللغة العربية؛ فقد ترجم إلى الذرائعية، والمقصدية، والمقامية، والتداولية، والتداولية أكثرها شيوعاً، وأقربها إلى طبيعة البحث فيها إذ هو منظور فيه إلى" تداول " اللغة بين المتكلم والمخاطب الذى يدل على التفاعل الحى بينهما فى استعمال اللغة.

٤- ظهر مما عرضت أن للتداولية صلة وثقى بعدد من العلوم التى لها عناية بالاستعمال اللغوى كعلم الدلالة، وعلم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، وتحليل الخطاب. وأشدها التباساً بها علم الدلالة؛ لأن الباحثين لم يلتزموا الحدود التى رسمها بعض الباحثين بينهما، فجعل علم الدلالة علاقة بين العلامات اللغوية والعالم، والتداولية علاقة بين العلامات اللغوية ومفسريها، لكن كثيرًا من علماء الدلالة لا يتحرجون من الخوض فى المسائل التداولية وهم يتحدثون عن مشكلات الدلالة، بل إن منهم من يرى أن التداولية ليست علمًا مستقلاً، بل ينبغى أن تنضوى تحت علم الدلالة.

٥- البحث فى التداولية محكوم بأعراف لغوية واجتماعية، وهو معنى بكيفية

وصول السامع إلى مراد المتكلم، وما يقدمه المتكلم من وسائل لغوية فى سياق اجتماعى وثقافى معين ليساعد السامع على الوصول إلى مراده، وهذه كلها أمور تتأبى على الضبط المنهجى، وعلى الرغم من ذلك فقد حاول الباحثون أن يقدموا كثيرًا من الضوابط والأسس المنهجية التى تحكم الاستعمال اللغوى.

٦- لعله قد ظهر أيضا أن دراسة اللغة دراسة شكلية معزولة عن السياق الاجتماعى والثقافى لا يزال أمرا منقوصا، لا يكتمل إلا بوضع هذه الدراسة الشكلية على محك الاستعمال، فهو وحده القادر على أن يسددها، ويمنحها كثيرًا من الحيوية، والانطلاق، والقبول. على أن دراسة الاستعمال اللغوى لا تتم على وجهها الصحيح بمعزل عن الدراسة الشكلية للجوانب اللغوية، فالجانبان إذن متكاملان فى دراسة الظاهرة اللغوية، ولا يجوز أن نستغنى بأحدهما عن الآخر، أو نعلى من شأن أحدهما على حساب الآخر.

نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية

(١)

المتتبع للنظريات اللسانية المعاصرة يراها تتجه اتجاهين[1]:

أحدهما يعنى بدراسة النظام اللغوى وعلاقة عناصره بعضها ببعض دراسة شكلية معزولة عن السياق الاجتماعى والثقافى الذى تستخدم اللغة فيه. ويتميز هذا الاتجاه بعنايته بالشكل أكثر من عنايته بالمعنى، بل يَعُدّ المعنى المقامى خارج نطاق اهتمامه، وهو يُعنى بالتركيب أكثر من عنايته بالسياق الذى يستخدم فيه ويميل إلى معالجة الجمل المصنوعة artificial أكثر من ميله إلى معالجة اللغة فى تجلياتها الحية. واللغة بذلك لا تدرس بوصفها خطابًا discourse بل بوصفها نصًّا مجردًا abstract text وأبرز نظريات هذا الاتجاه البنيوية أو البنائية إن شئت Structuralism، والنحو التحويلى التوليدى Transformational Generative Grammar، ونحو التعلق أو التبعية Dependency Grammar.

والاتجاه الثانى يعنى بدراسة الاستخدام اللغوى والضوابط التى تحكمه، ودور المقام أو السياق غير اللغوى فى التواصل الإنسانى، ويتميز هذا الاتجاه بعنايته بكل من المتكلم والسامع والعلاقة بينهما، وما يرافق الكلام من حركات الجسم وتعبيرات الوجه، ومن يشاركون فى الاتصال اللغوى، وبيئة الحدث

---

[1] انظر:

- Helbig, G.: Entwicklung der Sprachwissenschaft seit 1970., Westdeutscher Verlag Gmb H (Opladen 1990) S. 179.
- Green, K. And Lebhan, J.: Critical Theory& practice (London/ New Tork 1996) pp. 25-26.

-د. أحمد المتوكل: الوظائف التداولية فى اللغة العربية (الدار البيضاء ١٩٨٥)، ص ٨.

-وانظر كتابى: مدخل إلى دراسة الجملة العربية (بيروت ١٩٨٨) ص ٢٧ فما بعدها.

المكانية والزمانية، كما يهتم بقدرة السامع على الكشف عن مقاصد المتكلم واستجابته لها، وما يستلزمه التواصل من معانٍ مقامية لا تستطيع النظريات الشكلية الكشف عنها أو تحليلها. وأبرز نظريات هذا الاتجاه: اللسانيات الاجتماعية Sociolinguistics واللسانيات النظامية Systemic Linguistics، والنحو الوظيفى Functional Grammar والتداولية Pragmatics.

وعلى الرغم مما يبدو من اختلاف مجال البحث فى كلا الاتجاهين وما يستتبعه ذلك من اختلاف مناهج البحث وإجراءات التحليل، وعلى الرغم من إبداء أنصار كل اتجاه عدم الرضا عما يقوم به أنصار الاتجاه الآخر[1] فإن الاتجاهين فى مدى النظر متكاملان فى دراسة الظاهرة اللغوية؛ إذ ليس من الممكن دراسة الاستخدام اللغوى دون معرفة بالنظام، وليس من الممكن أن تظل دراسة النظام اللغوى معلقة فى فراغ على الرغم مما قرره دى سوسير من قبل وأخذ به أصحاب الاتجاه الشكلى، ولا يزالون، من أن اللغة تدرس فى ذاتها، ومن أجل ذاتها[2]. من أجل ذلك أخذت جهود عدد من الباحثين تتجه إلى التوفيق بينهما، وذلك بإحدى طريقتين: الأولى توسيع النظرية الشكلية لتشمل الجوانب الاتصالية والمقامية، والثانية إعادة النظر فى النموذج النحوى نفسه لكى لا ينطلق من النظام، بل من الاستخدام[3].

---

(1) انظر مثلاً نقد سيرل لتشومسكى فى:

Searle, J.R.: Chomsky's Revolution in Linguistics . In: Harman (ed) On Noam Chomsky. Critical Essays (New York 1974) p. 16 ff.

وردّ تشومسكى عليه فى:

Chomsky, N.: Reflections on Language, (London 1976) p. 55 ff.

(2) Saussure, F. de,: Course in General Linguistic (New York. 1959) p. 232.

(3) Helbig, G.: Entwicklung der Sprachwissenchaft seit 1970. S. 181- 182.

(٢)

تعد نظرية الفعل الكلامى **Speech Act Theory** (ويطلق عليهـا أيضًـا نظرية الحدث الكلامى، ونظرية الحدث اللغوى، والنظريـة الإنجازيـة) فـى نظـر أغلـب البـاحثين جـزءًا مـن اللسـانيات التداوليـة **Pragmatics**، وبخاصـة فـى مرحلتيها الأساسيتين: مرحلة التأسيس عنـد أوستن **J. L. Austin**، ومرحلـة النضج والضبط المنهجى عند تلميذه سيرل **J.R. Searle** وكلاهما مـن فلاسـفة أكسفورد[١]. أما بعد هاتين المرحلتين فقـد ناشـتها بعـض النظريـات المعـاصرة، وبخاصة اللسانيات التوليدية ولسانيات النص؛ إذ حاولت كـل منهمـا أن تعـدل فيها لتدخلها فى إطارها العام، وتخضعها لطرائق التحليل فيهـا، ومـن أبـرز مـن قام بهذا فى اللسانيات التوليدية كاتز، وفى لسانيات النص موتش، وفيفيجر[٢]

وسوف نعنى بعرض هذه النظرية فى مرحلتيهـا الأساسيتين عنـد كـل من أوستن وسيرل عرضًا موجزًا يكشـف عـن منطلقاتهـا التأسيسـية، وأسسـها المنهجية، وما قام به سيرل من تطوير لها وتعديل مفضلين ألا نخلط عمل أوستن بعمل سيرل وباجتهادنا الشخصى كما فعل ذلك بعض البـاحثين[٣] بـل نذكـر

---

(١) Green, K. And Lebhan, J.: Critical Theory & Practice, p. 29.

- Levinson , S. C.: Pragmatics. Cambridge University press 1983, p. 226.

(٢) Katz, J.J.: propositional Structure and Illocutionary force. A study of the contribution of Sentence Meaning to Speech Acts. The Harvester press 1977, p.30 ff.

- Motsch, W. Viehweger, D.: Sprechhandlung, Satz und Text. In: Sprache und pragmatik. Lunder Symposium 1980. Hrsg. I. Rosengren. Lund 1981. S. 125 ff.

(٣) انظر مثلاً:

- Leech. G.N.: Principles of Pragmatics. Longman (London/ New York 1983) Chapter 9.
- Lyons, J.: Linguistic Semantics. An Introduction. Cambridge University press 1995. Chapter 8.

جهد كل منهما، ثم نحاول بعد ذلك – فى إطار المثاقفة والحوار مع الآخر– أن نحاور الأسس المنهجية لهذه النظرية بما فى تراثنا من أسس منهجية مستقرة تتفق فى كثير مع الأسس المنهجية لهذه النظرية سعيًا إلى وضع نظرية عربية موازية لهذه النظرية يظل لها وجهها العربى، ولسانها العربى أيضًا.

(٣)

يعد أوستن مؤسس هذه النظرية وواضع المصطلح الذى تعرف به الآن فى الفلسفة وفى اللسانيات المعاصرة[١]، وكان ذلك فى المحاضرات التى ألقاها فى جامعة أكسفورد فى العقد الثالث من القرن العشرين، ثم فى المحاضرات الاثنتى عشرة التى ألقاها فى جامعة هارفارد سنة ١٩٥٥ ونشرت سنة ١٩٦٢ بعد موته فى كتاب عنوانه:

[٢]How to do Things with Words

وكان أوستن قد تأثر بما نبه إليه فتجنشتاين Wittgenestein من أن اللغة قد تستخدم لوصف العالم من حولنا بيد أن هناك حشدًا من الاستعمالات الأخرى للغة لا تصف وقائع العالم، كالأمر، والاستفهام، والشكر واللعن، والتحية، والدعاء، وقدم ثبتًا طويلاً بهذه الاستعمالات المختلفة للغة، وأطلق عليها ألعاب اللغة language games، وأسمى كل استعمال منها لعبة؛ لأن له قواعد يتفق عليها مستعملو اللغة كما يتفق اللاعبون على قواعد اللعبة. ورأى

---

(١) Lyons, J. Lingusitic Semantics. P. 236.

ويذكر ليونز أن مصطلح Speech Act ترجمة لـ: "Sprechact" الذى ورد عند بيولر Bühler سنة ١٩٣٤ وقد استخدمه اللغويون ولا يزالون يستخدمونه بين حين وآخر بمعناه الأقرب إلى الدلالة غير الاصطلاحية وهو حدث الكلام act of speech. انظر الحاشية رقم (٢) من المرجع السابق.

(٢) Ibid, 236.

- Malmkjaer K.: The Linguistics Encyclopedia. (Speech – act theory) p. 416.

أن كل نوع من ألعاب اللغة محكوم بنوع مخصوص من السياق الاجتماعى ومحدد بأعراف اجتماعية معينة، من ثم فإن كل لعبة من ألعاب اللغة أو استخدام من استخداماتها يستحق اهتمامًا مساويًا لأى استخدام آخر، وأرسى مبدأ مثيرًا للجدل عند الفلاسفة: «المعنى هو الاستعمال Meaning is use»[1] من ثم تصدى أوستن للرد على فلاسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism الذين كانوا يرون اللغة أداة رمزية تشير إلى الوقائع الموجودة فى العالم الخارجى، ولا عمل للغة يعتد به عندهم إلا وصف هذه الوقائع بعبارات إخبارية، ثم يكون الحكم بعد ذلك على العبارة بالصدق أو الكذب إذا طابقت الواقع أو لم تطابقه. أما العبارات غير الإخبارية فهى عندهم زائفة ولا معنى لها، وهم لا يعتدون بها؛ لأنهم لا يجدون من وقائع العالم ما تطابقه أو يطابقها[2].

لقد أنكر أوستن أن تكون الوظيفة الوحيدة للعبارات الإخبارية هى "وصف" حال الوقائع State of affairs وصفًا يكون إما صادقًا أو كاذبًا، وأطلق عليه "المغالطة الوصفية discriptive Fallacy"[3]. ومضى يثبت أن

---

(1) Lyons, J.: Semantics, Cambridge University Press, 1977, Vol. 2, p. 727.
- Levinson, S.C.: Pragmatics, Cambridge University Press, p. 227.

وانظر:

-صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوى عند مدرسة أكسفورد ص ١١٧ وما بعدها.

-فؤاد كامل، جلال العشرى، عبد الرشيد صادق: الموسوعة الفلسفية المختصرة، راجعها وأشرف عليها: زكى نجيب محمود (القاهرة ١٩٦٣) من ٢١٢- ٢١٣.

(2) Lyons, J.: Linguistic Semantics, p. 237.
- Levinson, S.C.: Pragmatics. P. 227.

(3) Austin. J. L.: How to do Things with Words, Harvard University Press, (1962) p. 2 f.

وانظر:

- Lyons, J.: The Linguistic Semantics, p. 237.

بجانب هذه العبارات الوصفية نوعًا آخر من العبارات قد يتشابه فى التركيب مع العبارات الوصفية، لكنه لا يصف شيئًا فى الواقع الخارجى، ولا يحتمل الصدق أو الكذب؛ فإذا بشرت بمولود مثلاً وقيل لك سَمِّه، قلت : أسميه يحيى، وإذا رأيت أن توصى ببعض مالك لجهة من جهات الخير فقلت: أوصى بنصف مالى للجمعيات الخيرية، أو إذا قال لك رجل والشهود حضور: زوجتك ابنتى، فقلت : قبلت، فإن هذه العبارات ونحوها لا تصف شيئًا من وقائع العالم الخارجى، ولا تحتمل الصدق والكذب، بل إنك إذا نطقت بواحدة منها أو مثلها لا تلقى قولاً، بل تنجز فعلاً، فالقول هنا هو الفعل أو هو جزء منه؛ لأنك تنجز فعل التوصية بقولك "أوصى"، فالقول هنا ليس مجرد كلام، بل هو فعل كلام أو هو فعل كلامى[1].

وظاهر أن أوستن ميّز فى هذه المرحلة بين نوعين من الأفعال: أفعال إخبارية constative تخبر عن وقائع العالم الخارجى وتكون إما صادقة وإما كاذبة، وقد آثر أن يعدل عن تسميتها أفعالاً وصفية descriptive، لأنه ليس كل ما يقبل الصدق والكذب وصفيًا[2]، وأخرى تنجز بها فى ظروف ملائمة أفعال أو تؤدى وقد أطلق عليها مصطلح الأفعال الأدائية performative[3].

---

(١) Austin, J.L. (1962) p. 5 f.

وانظر:

- Althaus, H.P., Henne. H., Wiegand, H. E.: (Hrsg.) Lexikon der Germanistischen Linguistik. Max Niemeyer Verlag Tübingen 1980 (24-Sprechacttheorie) S. 287.

(٢) Austin, J. L: (1962) p.3.

(٣) Ibid, p.6.

وقد أفرد أوستن للتمييز بين الأفعال الأدائية والإخبارية بحثًا كتبه بالفرنسية، وألقاه فيما يبدو فى مؤتمر أنجلو فرنسى سنة ١٩٥٨، ثم ترجمه من بعد وورنوك Warnok إلى الإنجليزية، ونشره سيرل فى كتاب بعنوان فلسفة اللغة صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٧١.-

وكان أهم ما ميز به الأفعال الأدائية عن الأفعال الإخبارية أن الإخبارية لها خاصية أن تكون صادقة أو كاذبة على حين أن الأدائية ليس لها هذه الخاصية، إذ هى تستخدم لإنجاز فعل كالتسمية، والاعتذار، والترحيب، والنصح... إلخ، وهى ممن ثم لا توصف بصدق ولا كذب بل تكون موفقة أو سعيدة happy كما أطلق عليها، إذا راعى المتكلم شروط أدائها، وكان أهلاً لفعلها، وغير موفقة أو تعيسة unhappy إذا لم يراع المتكلم شروط أدائها، فلا يحقُّ لك مثلاً أن تقبل الزواج من هى زوجة لك فعلاً، ولا أن تسمى ابنًا لغيرك إلا إذا أذن لك أبواه بذلك، ولا توصى بمال غيرك للجمعيات الخيرية، ولا أن تعد بما لا تقدر عليه، فإن فعلت لم ينعقد بكلامك فعل وصار لغوًا من اللغو. وقد تعد مثلاً وأنت قادر على إنجاز ما تعد لكنك تضمر فى نفسك أن تخلف وعدك فلا يقع فعل الوعد: لأنك غير مخلص له، وقد تعاهد شخصًا على شئ ثم تنقض عهدك، فلا يقع فعل العهد؛ لأنك لم توف به بل نقضته، فهذه ثلاثة أنواع من الفعل الأدائى غير الموفق أو التعيس ذكرها أوستين[1].

لقد أطلق أوسين على الشروط التى تتحقق بها الأفعال الأدائية الصريحة شروط الملاءمة felicity conditions وحصرها فى ثلاثة أنماط أساسية كل نمط منها يحتوى على شرطين، فهى إذن ستة شروط:
وذلك على النحو الآتى[2] :

= Searle, J.R.: (ed): The philosophy of Language, Oxford University press 1977, p. 13 ff.

(1) Austin, J. L: Performative- constative. In: Searle, J.R. (ed) 1977 pp. 13-14.
- Austin, J. L: (1962) p. 132.

(2) Austin, J.L (1962) p. 14 ff.

وانظر: صلاح إسماعيل عبد الحق (١٩٩٣) ص ١٤٢ فما بعدها.

- د. محمد العبد: الحدث اللغوى: مفهومه وأنواعه (القاهرة ١٩٩٦) ص ٨ فما بعدها.

أ - ١ : وجود إجراء عرفي مقبول، وله أثر عرفي محدد كالزواج مثلاً وأن يشتمل هذا الإجراء على كلمات محددة ينطق بها أشخاص محددون فى ظروف محددة. فإذا لم يوجد إجراء عرفي مقبول ذو أثر معلوم كالزواج فى الأفلام أو التمثيليات، أو إذا لم تنطق الكلمات على النحو الصحيح المفهوم الذى ينعقد به الإجراء، أو إذا كان الشخص الذى يتولى الإجراء فاقد الأهلية للقيام به، أو إذا كانت الظروف غير ملائمة فإن الفعل لا يؤدى.

٢- ينبغى أن يكون أولئك الأشخاص مناسبين لهذا الإجراء المحدد وأن تكون الظروف مناسبة أيضًا، فإذا طلب منك مثلاً أن تختار شخصًا ليساعد فى بحث ميدانى مثلاً، فاخترت شخصًا غير مناسب لهذه المهمة، فإن الفعل لم يؤد.

ب-١: ينبغى أن يؤدى هذا الإجراء جميع المشاركين فيه أداة صحيحًا، بالبعد عن استعمال العبارات الغامضة أو الملبسة كأن تقول لرجل جاء ليشترى منك منزلاً محددًا من منازلك: أبيعك منزلاً بمليون، أو أبيعك أحدها بمليون.

٢- ينبغى أن يؤدى هذا الإجراء جميع المشاركين فيه أداءً كاملاً فإذا قال رجل لآخر: أبيعك منزلى بمليون و لم يقل الرجل قبلت كان الأداء ناقصًا.

جـ-١: ولما كان هذا الإجراء يؤديه أشخاص ذوو أفكار معينة ومشاعر فإن على المشارك فيه أن يكون لديه تلك الأفكار والمشاعر التى يتطلبها الإجراء، فإذا قلت لشخص: أهنئك بهذه المناسبة السعيدة، وأنت فى قرارة نفسك لا تشعر بذلك بل بنقيضه، أو إذا قلت لشخص أعدك

بأن أساعدك وأنت تنوى ألا تساعده أو إذا قلت لرجل: أنصحك بكذا وأنت تقصد تضليله، فقد أسأت أداء الفعل.

٢- على المشارك فى الإجراء أن يوجه نفسه إلى ما يستتبعه ذلك من سلوك ظاهر، فإذا قلت لشخص: أرحب بك ثم سلكت بعد ذلك معه سلوك غير المرحب فقد أسأت أداء الفعل.

ثم بين أوستن أن الفرق الكبير بين الشروط الأربعة الأولى التى تضمنتها أ، ب، والشرطين الأخيرين اللذين تضمنتهما (ج) يتمثل فى أن الشروط الأربعة لازمة لأداء الفعل، فإذا لم يتحقق واحد منها فإن الفعل لا يؤدى، أما إذا لم يتحقق شرط من الشرطين الأخيرين، فإن الفعل يؤدى، لكنه يؤدى أداء سيئًا[١]. وقد أطلق أوستن على الأفعال التى خالفت الشروط الأربعة مصطلح الإخفاقات "misfires"، وعلى ما خالف شرطًا من الشرطين الأخيرين مصطلح الإساءات "abuses"[٢].

وقد كان تمييز أوستين لهذين النوعين من الشروط حافزًا لبعض الباحثين على تقسيم الشروط إلى قسمين اثنين: قسم يسميه الشروط التكوينية constituent وهى الشروط اللازمة لأداء الفعل فإذا لم تتحقق كان ذلك إيذانًا بإخفاق الأداء. وقسم يسميه الشروط القياسية regulative، فإذا لم تتحقق نتج عن ذلك سوء أداء للفعل أو أدى الفعل أداء معيبًا[٣].

ولعله نقل ذلك عن سيرل كما سيأتى.

(١) Austin, J. L. (1962) p. 15.

(٢) Ibid. P. 16.

(٣) Geis, M.L.: Speech acts and Conversational Interaction, Cambridge University Press (1997). P. 4. Footnote 6.

على أن الرجل في سعيه إلى تمييز الأفعال الأدائية عن الإخبارية حاول أن يتلمس وسائل لغوية تميز الأفعال الأدائية فلحظ أن هذه الأفعال في اللغة الإنجليزية يستخدم معها غالبًا ضمير المتكلم مسندًا إليه، والفعل في صيغة المضارع المبنى للمعلوم، وتكون موجهة إلى مخاطب، وهو من ثم يرى أنك إذا قلت: أعدك بكذا كان فعلاً أدائيًا لكنك إذا قلت: وعدتك بكذا، أو أعده بكذا لم يكن أدائيًا، والتفت أيضًا إلى معيار رآه نافعًا في هذا المجال وهو أن الأفعال الأدائية يصح أن تستخدم معها كلمة "hierby" أما الأفعال غير الأدائية فلا يصح استخدام هذه الكلمة معها[1] وهو ما أطلق عليه الباحثون من بعد "hierby test"[2].

على أن أوستن قد نبه إلى أن الفعل قد يؤدى أحيانًا بصيغة المبنى لغير الفاعل أو بصيغة اسم المفعول نحو: يسمح لك بكذا أو مسموح لك بكذا[3]. ثم مضى أوستن يتأمل الأفعال الأدائية فوصل إلى أنها نوعان: أدائيات صريحة explicit وأدائيات أولية primary[4] وذكر لهما مثالين هما:

- أعدك أن أكون هناك.
- سأكون هناك.

فالمثال الأول صريح الدلالة على الوعد، ولا يحتمل غيره، في حين أن المثال الثاني قد يكون وعدًا وقد لا يكون[5]. فالوعد عادة يقال في سياق يعتقد

---

(1) Austin, J.L; Performative- Cosntative. In; Searle, J . R.: (1971) p. 15.
- Austin, J. L; (1962). P. 57.

(2) Malmkjaer, K. (ed) The Linguistics Encyclopedia , p. 418.
- Levinson, S. C.: (1983) p. 232.

(3) Austin, J. L: (1962) p. 57.

(4) Austin, J. L: (1962) p. 57.

(5) على الرغم من أن الرجل نص على أنه يفضل ألا نقابل الأدائيات الصريحة بغير الصريحة inexplicit-

فيه الواعد أن المخاطب يتطلع إلى هذا الوعد ويتعلق به. فإذا سألك شخص عن المدعوين فى حفل، و لم يكن هو من بين المدعوين. فذكرت له أسماءهم ثم قلت: "وسأكون هناك". فلن يكون هذا القول وعدًا؛ لأن المخاطب ليس فى حاجة إليه، وليس عنده تعلق به أو رغبة فيه. أما إذا كان هذا المخاطب من بين المدعوين، وقال لك: وا لله لا أذهب إلى الحفل حتى تذهب أنت، فقلت: "سأكون هناك" كان قولك وعدًا؛ لذلك فإن الأدائيات الضمنية تعتمد اعتمادًا أساسيًا على المقام؛ إذ به تكون أدائية أو لا تكون، ولا كذلك الأدائيات الصريحة[1]، من ثم كان إدراك الأدائيات الصريحة أيسر، لأنها تعلن عن نفسها فى كل سياق تقال فيه[2] .

وبرغم ما بذله أوستن من جهد فى التمييز بين الأفعال الأدائية والإخبارية فقد ظل يرجع النظر فى هذا التقسيم حتى تبين له فى النهاية أن الحدود بين هذين النوعين من الأفعال لا تزال غير واضحة، وأن ما وضعه من شروط، وما أشار إليه من وسائل ليس كافيًا للتمييز بينهما؛ إذ وجد أن شروط الأفعال الأدائية تنطبق أحيانًا على أفعال ليست أدائية، وأن أفعالاً غير أدائية تنطبق عليها شروط الأفعال الأدائية[3] ؛ فعاد من حيث بدأ إلى السؤال: كيف ننجز فعلاً حين ننطق قولاً فرأى الفعل الكلامي مركبًا من ثلاثة أفعال تؤدى فى الوقت نفسه الذى ينطق فيه بالفعل الكلامى، فهى ليست أفعالاً ثلاثة

-فقد شاع بين عدد من الباحثين مقابلة الصريحة بالضمنية – انظر:
- Austin, J. L: (1962) p. 59.
- Levinson, S. C. (1983) p. 231.
- Bright, W. (ed) International Encyclopedia of Linguistics, Vol. 4 p. 65.

(1) Austin, J. L: (1962) p. 59.

(2) Geis, M, L.: (1997) p. 5 f.

(3) Austin, J. L: Performative-cosntative . In; Searle, J. R.: (ed) 1971, p. 16 ff.

يستطيع المتكلم أن يؤديها واحدًا وراء الآخر، بل هى جوانب مختلفة لفعل كلامى واحد، ولا يفصل أحدها عن الآخر إلا لغرض الدراسة فحسب وهى:

١- الفعل اللفظى locutionary act :

ويتكون من النطق بأصوات لغوية ينتظمها تركيب نحوى صحيح ينتج عنه معنى محدد هو المعنى الحرفى أو الأصلى المفهوم من التركيب، وله مرجع يحيل إليه.

٢- الفعل الغرضى أو الإنجازى illocutionary act :

ويقصد به ما يؤديه الفعل اللفظى من وظيفة فى الاستعمال كالوعد، والتحذير، والأمر والنصح... إلخ.

٣- الفعل التأثيرى perlocutionary act :

ويقصد به الأثر الذى يحدثه الفعل الإنجازى فى السامع أو المخاطب سواء أكان تأثيرًا جسديًا أم فكريًا أم شعوريًا[١].

ونسوق مثلاً يتضح به هذا الفعل الكلامى المركب من ثلاثة أفعال: إذا دخل عليك شخص وقال لك: "خلف هذا الباب أفعى". فالفعل اللفظى هو الهيئة التركيبية لهذه الجملة بأصواتها التى نطقت وبتركيبها النحوى الصحيح، وبمعناها الحرفى الذى يقرر أن خلف الباب أفعى، ومرجعه وجود أفعى فعلاً خلف الباب. والفعل الإنجازى هو ما يقصده المتكلم بهذا القول، وهو: التحذير من الأفعى، والفعل التأثيرى هو ما يخلفه هذا القول من أثر فيك، قد يكون الفزع، أو الهرب من المكان، أو النهوض لقتلها[٢]... إلخ.

---

(١) Austin, J. L: (1962) p. 101 ff.

(٢) Helbig, G: (1990) S. 185.

والمثال الذى ذكره هلبج هو:

Der Hund ist bissig

وقد أدرك أوستن أن الفعل اللفظى لا ينعقد الكلام إلا بـه، وأن الفعـل التأثيرى لا يلازم الأفعال جميعًا، فمنها مالا تأثير له فى السامع أو المخاطب، من ثم كان الفعل الإنجازى عنده أهمها جميعًا، فوجه إليه همه حتى أصبح لُبَّ هذه النظرية، وأصبحت تعرف به أيضًا، فيطلق عليها أحيانًا نظريـة الفعـل الإنجـازى أو النظرية الإنجازية.

على أنَّ الفعل الإنجازى يرتبط عند أوستن ارتباطًا وثيقًا بمقصد المتكلم، وعلى السامع أن يبذل الجهد الكافى للوصول إليـه، ولهـذا يقـوم مفهـوم قصـد المتكلم **speeker intention** الذى يعبر عنه بالإنجـاز **illocution** بـدور مركـزى فى نظرية الفعل الكلامى.

وقد قام أوستن فى المحاضرة الأخـيرة (الثانيـة عشـرة) بتقديـم تصنيـف للأفعال الكلامية على أساس ما أسماه "قوتهـا الإنجازيـة" **illocutionary force** فجعلهـا خمسـة أصنـاف لكنـه لم يـتردد فـى القـول بأنـه غـير راض عـن هـــذا التصنيف[1] :

١ – أفعال الأحكام verdictives: وهى التى تعبر –كما يدل المصطلـح– عـن حكم يصدره محلّف، أو محكّم، أو حَكَم، وليس مـن الضـرورى أن تكـون الأحكام نهائية أو نافذة، فقد تكون تقديريـة أو ظنيـة مثـل: يـبرئ، يقـدر، يعين، يقوّم، يشخّص (مرضًا)، يحلل[2] .

٢ – أفعال القرارات exercitives، التى تعبر عن اتخـاذ قـرار فـى صـالح شـىء أو شـخص أو ضـده مثل: يأذن، يطرد، يحرم، يجند، يختار، يوصى، يحـذر،

---

(١) Austin, J. L: (1962) p. 150.

(٢) Ibid, p. 152.

يصرح بـ، يُحْدث، يعتذر، ينصح[1].

٣- أفعال التعهد commissives: وهى التى تعبر عن تعهد المتكلم بفعل شئ أو إلزام نفسه به مثل: أعد، أتعهد، أتعاقد على، أضمن، أقسم على، أقبل[2].

٤- أفعال السلوك behabitives : وهى التى تعبر عن رد فعل لسلوك الآخرين، ومواقفهم، ومصائرهم كالاعتذار، والشكر، والتعاطف، والفقد، والمواساة، والتحية، والرجاء، والتحدى[3].

٥- أفعال الإيضاح expositives: وهى الأفعال التى تستخدم لتوضيح وجهة النظر أو بيان الرأى وذكر الحجة مثل: الإثبات، والإنكار، والمطابقة، والملاحظة والتنويه، والإجابة، والاعتراض، والاستفهام، والتشكيك، والموافقة، والتصويب[4].

(٤)

لم يستطع أوستن أن يحقق ما سعى إليه من وضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية، فلم يكن ما قدمه من تصور كافيًا ولا قائمًا على أسس منهجية واضحة ومحددة؛ فقد خلط بين مفهوم الفعل قسمًا من أقسام الكلام والفعل حدثًا اتصاليًا، ولم يقم تحديده للأفعال وتصنيفه لها على أساس راسخ فتداخلت فئاتها ودخل فى بعض الفئات ما ليس منها[5] لكنه برغم ذلك وضع

---

(١) Austin, J. L: (1962), p. 154.

(٢) Ibid, p. 156.

(٣) Ibid, p. 159.

(٤) Ibid, p. 160 f.

(٥) Lyons, J.: (1977) p. 740.
- Helbig, G.: (1990) S. 187.=

بعض المفهومات المركزية فى النظرية، ومن أهمها تمييزه بين محاولة أداء الفعل الإنجازى والنجاح فى أداء هذا الفعل، وتمييزه بين ما تعنيه الجملة وما قد يعنيه المتكلم بنطقها، وتمييزه بين الصريح من الأفعال الأدائية والأوّلى منها، فضلاً عن تحديده للفعل الإنجازى الذى يعدُّ مفهومًا محوريًا فى هذه النظرية.

على أن التطوير الأساسى للنظرية تحقق على يد سيرل فيما يعرف بالمرحلة الأساسية الثانية للنظرية، فقد ظهرت على يده نظرية منتظمة systematic لاستعمالات اللغة بمصطلحات الأفعال الكلامية، قائمة على أن الكلام محكوم بقواعد مقصدية intentional، وأن هذه القواعد يمكن أن تحدد على أسس منهجية واضحة ومتصلة باللغة[1]. والرجل على كل حال لم يبدأ من فراغ، بل بنى على ما ابتدأه أوستن وأخذ يحكمه شيئًا فشيئًا حتى أصبح خلقًا سويًا[2].

ومن الممكن أن نحدد أهم ما قام به سيرل فيما يأتى:

أولاً: قام بتعديل التقسيم الذى قدمه أوستن للأفعال الكلامية فجعله أربعة أقسام، أبقى منها على القسمين الإنجازى والتأثيرى[3] لكنه جعل القسم الأول وهو الفعل اللفظى قسمين:

أحدهما: الفعل النطقى utterence act : وهو يشمل الجوانب الصوتية

- وانظر:

-صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوى عند مدرسة أكسفورد ص ٢٠٦ فما بعدها.

- د.محمد العبد: الحدث اللغوى: مفهومه وأنواعه ص ٣٩ فما بعدها.

(1) Bright, W.: (ed): International Encyclopedia of Linguistics. Vol. 4, p. 565.

(2) Levinson, S. C.: (1983) p. 238.

(3) Searle, J. R.: Speech Acts . An Essay in the philosophy of language. Cambridge University Press, 1969, pp. 24 - 25.

والنحوية والمعجمية.

والثانى: الفعل القضوى propositional act: وهو يشمل المتحدث عنه أو المرجع reference، والمتحدث به أو الخبر predication[1] ونصّ على أن الفعل القضوى لا يقع وحده، بل يستخدم دائمًا مع فعل إنجازى فى إطار كلامى مركب؛ لأنك لا تستطيع أن تنطق بفعل قضوى دون أن يكون لك مقصد من نطقه[2]. كما نص على أن الفعل الإنجازى هو الوحدة الصغرى minimal unit للاتصال اللغوى[3]. ولإيضاح ذلك نذكر لك الجمل الآتية:

١- يقرأ زيد الكتاب   ٢-أيقرأ زيد الكتاب؟

٣- يا زيد، اقرأ الكتاب   ٤- لو يقرأ زيد الكتاب!

عند النطق بأىّ من هذه الجمل ينجز المتكلم ثلاثة أنواع من الأفعال فى وقت واحد:

١- الفعل النطقى : ويتمثل فى نطقك الصوتى للألفاظ على نسق نحوى ومعجمى صحيح.

٢- الفعل القضوى: ويتمثل فى مرجع هو محور الحديث فيها جميعًا، هو زيد فى الجمل الأربع، وخبر هو فيها جميعًا قراءة الكتاب، والمرجع والخبر يمثلان معًا قضية proposition هى: قراءة زيد الكتاب، والقضية هى المحتوى المشترك common content بينها جميعًا.

٣- الفعل الإنجازى: وهو: الإخبار فى الأولى، والاستفهام فى الثانية، والأمر

(١) Ibid, p. 24.

(٢) Ibid, p. 25.

(٣) Searle. J.R.: What is a Speech Act? In : The Philosophy of Language, p. 39.

فى الثالثة، والتمنى فى الرابعة[1].

وينبغى أن نشير إلى أن الفعل التأثيرى perlocutionary act ليس له أهمية كبيرة عند سيرل، لأنه ليس من الضرورى عنده أن يكون لكل فعل تأثير فى السامع يدفعه إلى إنجاز فعل ما[2].

ويدل على القوة الإنجازية دليل يسمى دليل القوة الإنجازية illocutionary force indicator يبين لنا نوع الفعل الإنجازى الذى يؤديه المتكلم بنطقه للجملة، ويتمثل فى اللغة الإنجليزية فى نظام الجملة word order، والنبر stress، والتنغيم intonation، وفى علامات الترقيم punctuation فى اللغة المكتوبة، وصيغة الفعل mood وما يسمى الأفعال الأدائية performative[3].

ثانيًا: رأى سيرل أن الفعل الكلامى أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل هو مرتبط أيضًا بالعرف اللغوى والاجتماعى، ولكى يوضح ذلك ضرب المثل الآتى: فلنفترض أننى جندى أمريكى فى الحرب العالمية الثانية وأن الإيطاليين أسرونى، وافترض أننى أردت أن ألقى فى روع هؤلاء الإيطاليين أننى ضابط ألمانى لكى يطلقوا سراحى، فما أريده هو أن أقول ذلك باللغة الألمانية أو الإيطالية، ولما كنت لا أجيد أيًا من اللغتين فقد حاولت أن أقول لهم: «إننى ضابط ألمانى» باستخدام جملة من اللغة الألمانية تذكرتها مما كنت أدرسه فى المدرسة من دروس اللغة الألمانية،

---

(1) Searle. J.R.: (1969), p. 22 ff.
- Searle. J.R.: (1971), p. 42 f.

(2) Stammarjohann , H. (Hrs): Handbuch der Linguistik. Allgemeine und angewandte Sprachwissenschaft. (München 1975) S. 458.

(3) Searle. J.R.: (1969) p. 30.
- Searle. J.R.: (1971) p. 45f.

ثقة منى بأنه ليس من هؤلاء الإيطاليين من يجيد اللغة الألمانية بحيث يستطيع أن يكشف الخطة التى أدبرها، فالتفت إليهم قائلاً:-

Kennest du das Land, wo die Zitrone blühen?

ثم حلّل ذلك قائلاً: إن قصد المتكلم بهذه الجملة هو أن يقول: إننى ضابط ألمانى ليؤثر فى المخاطبين فيطلقوا سراحه، لكن هذه الجملة فى اللغة الألمانية لا تعنى ذلك، بل تعنى: هل تعرف الأرض التى يزهر فيها الليمون" ولا يسمح العرف اللغوى فى الألمانية باستخدام هذه الجملة فى هذا السياق، وهذا دليل على أن قصد المتكلم وحده لا يكفى، بل لابد من العرف اللغوى أيضًا. ثم لخص سيرل ذلك فى عبارة مأثورة هى[1] :

" Meaning is more than a matter of intention, it is also a matter of convention".

ثالثًا: استطاع سيرل أن يطور تصور أوستن لشروط الملاءمة أو الاستخدام **felicity conditions** التى إذا تحققت فى الفعل الكلامى كان موفقًا، فجعلها أربعة شروط، وطبقها تطبيقًا موجزًا ومحكمًا على أنماط من الأفعال الإنجازية، فطبقها على أفعال الرجاء، والإخبار، والاستفهام والشكر، والنصح، والتحذير، والتحية، والتهنئة وبين ما قد يحتاجه كل منها إلى بعض شروط إضافية، وما يستغنى منها عن بعض الشروط ونكتفى هنا بذكر هذه الشروط مطبقة على فعل الرجاء[2] :

١- شرط المحتوى القضوى **propositional content** :

فعل فى المستقبل مطلوب من المخاطب

---

(١) **Searle. J.R.: (1971) p. 45 f.**

(٢) **Searle. J.R.: (1969) p. 66 f.**

- Searle. J.R.: (1971) p. 53.

٢- الشرط التمهيدى preparatory :

أ- المخاطب قادر على إنجاز الفعل، والمتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إنجاز الفعل.

ب- ليس من الواضح عند كل من المتكلم والمخاطب أن المخاطب سينجز الفعل المطلوب فى المجرى المعتاد للأحداث.

٣- شرط الإخلاص sincerity :

المتكلم يريد حقًا من المخاطب أن ينجز هذا الفعل.

٤-الشرط الأساسى essential :

محاولة المتكلم التأثير فى المخاطب لينجز الفعل.

و لم يكتف سيرل بذلك بل قال إنَّ هناك (على الأقل) اثنى عشر بُعدًا dimension يختلف بها كل فعل إنجازى عن الآخر، ومضى يذكرها مفصلة[1] ونوجزها فيما يلى :

١- الاختلاف فى الغرض الإنجازى illocutionary point للفعل فالغرض الإنجازى للأمر مثلاً هو محاولة التأثير فى السامع ليقوم بفعل ما، على حين أن الغرض الإنجازى من الوعد مثلاً هو إلزام المتكلم نفسه بفعل شيء ما للمخاطب.

على أن الغرض الإنجازى يعد جزءًا من القوة الإنجازية لكنه ليس إياها، فالغرض الإنجازى من الرجاء مثلاً هو نفسه الغرض الإنجازى للأمر، لكن القوة الإنجازية فى كل منهما تختلف اختلافًا بينًا، فالقوة الإنجازية نتاج عناصر عديدة ليس الغرض الإنجازى إلا واحدًا منها.

---

(1) Searle. J.R.: Expression and Meaning . Srudies in the Theory of Speech Acts, Cambridge University Press, 1981, p. 2 ff.

٢- الاختلاف فى اتجاه المطابقة direction of fit

فاتجاه المطابقة فى بعض الأفعال الإنجازية من الكلمات إلى العالم كالإخباريات assertions وهو فى بعضها من العالم إلى الكلمات كالوعد والرجاء.

٣- الاختلاف فى الموقف النفسى الذى يعبر عنه المتكلم، فالذى يعد أو يتوعد يعبر عن مقصدية الإنجاز، والذى يأمر، أو يطلب، أو يرجو يعبر عن رغبة فى أن ينجز السامع الفعل، والذى يعتذر يعبر عن الندم على ما فرط منه.

٤- الاختلاف فى القوة أو فى الدرجة التى يعرض بها الغرض الإنجازى فقولك مثلاً "أقترح أن نذهب إلى السينما" وقولك: "أصرّ على أن نذهب إلى السينما" كل منهما يتفق مع الآخر فى الغرض الإنجازى لكنه عُرض فى كل منهما بدرجة مختلفة من القوة، فهو فى القول الثانى أقوى منه فى القول الأول وأشد.

٥- الاختلاف فى منزلة كل من المتكلم والسامع، فإذا طلب الضابط من الجندى أن يفعل شيئًا كان أمرًا، أما إذا طلب الجندى من الضابط أن يفعل شيئًا كان اقتراحًا أو رجاءً، لكنه لا يكون أمرًا بحال.

٦- الاختلاف فى طريقة ارتباط القول باهتمامات المتكلم والسامع كالاختلاف بين المدح والرثاء أو التهنئة والتعزية، وهو نمط آخر من أنماط الشرط التمهيدى preparatory condition.

٧- الاختلاف فى العلاقة بسائر عناصر الخطاب والسياق الذى يقع فيه، فقولك: أجيب، أو أستدل، أو أستنتج، أو أعترض على... يربط الأقوال التالية بالأقوال السابقة وبالسياق الملابس لها.

٨- الاختلاف فى المحتوى القضوى **propositional content** الذى تحدده القوة الإجبارية والوسائل الدالة، كالاختلاف بين الإخبار والتوقع فالإخبار يكون عن أمر مضى، والتوقع يكون لأمر مستقبل.

٩- الاختلاف فى أن يكون القول دائمًا فعلاً كلاميًا، وأن يمكن أن يكون فعلاً كلاميًا لكننا لسنا فى حاجة إلى أن نجعله فعلاً كلاميًا، فأنت تستطيع مثلاً أن تصنف الأشياء وأنت تقول: أنا أصنف هذه الأشياء إلى (أ) و (ب)، لكنك قد لا تحتاج إلى قول أى شئ لتصنيف الأشياء، إذ يكفى أن تضع ما هو منها من النوع (أ) فى الصندوق المخصص لـ (أ) وما هو من النوع (ب) فى الصندوق المخصص لـ (ب). كذلك يمكن أن تقول عن تقدير القيمة أو تشخيص الحالة، "أنا أقدر" أو"أشخص" لكن من الممكن أن تقدر أو تشخص دون أن تقول شيئًا على الإطلاق.

١٠- الاختلاف فى أن يقتضى أداء الفعل عرفًا غير لغوى أو لا يقتضى كالزواج وإعلان الحرب، فلا يجوز الزواج إلا فى إطار عرف غير لغوى، وكذلك إعلان الحرب لا يجوز أن يقوم به شخص إلا فى إطار عرف غير لغوى، ولا كذلك أفعال مثل الوعد أو الإخبار فمثلها لا يحتاج إلا إلى العرف اللغوى.

١١-الاختلاف فى أن تكون الأفعال قابلة للأداء أو لا تكون، فمعظم الأفعال الإنجازية قابلة للأداء مثل أقرر، أعد، آمر، استنتج، لكن ثمة أفعالاً لا تؤدى بالقول فقط فأنت لا تستطيع أن تقنع شخصًا بشئ بقولك أنا أقنعك أو أن تفزعه بقولك: أنا أفزعك.

فليس كل الأفعال الإنجازية أفعالاً أدائية.

١٢- الاختلاف فى أسلوب أداء الفعل كالاختلاف بين الإعلان والإسرار،

فهما لا يختلفان فى الغرض الإنجازى، ولا فى المحتوى القضوى، بل يختلفان فى أسلوب الأداء فحسب.

رابعًا : أعاد سيرل النظر فى تصنيف أوستن للأفعال الإنجازية فبين ما فيه من أوجه الضعف[1] وأهمها جميعًا فى رأيه أنها لم تقم على أساس واضح أو متين أو على مجموعة من الأسس، و لم يسلم منها فيما يرى إلا صنف واحد هو التعهديات commissives فقد صنفه أوستن على أساس منهجى واضح هو الغرض الإنجازى[2] فكان على سيرل أن يقدم تصنيفًا بديلاً للأفعال الإنجازية أحكم وأضبط، وقد أقام تقسيمه على أسس منهجية ثلاثة ورد ذكرها فى الأبعاد التى يختلف بها كل فعل إنجازى عن الآخر، ونص على أنها أهم هذه الأبعاد جميعًا، وأنه سيبنى عليها تصنيفه للأفعال الإنجازية وهى[3] :

أ- الغرض الإنجازى illocutionary point.

ب- اتجاه المطابقة direction of fit.

جـ- شرط الإخلاص sincerity condition.

وقد جعلها كأوستن خمسة أصناف[4] نذكرها موجزة على النحو الآتى:

١- الإخباريات Assertives :

والغرض الإنجازى فيها هو نقل المتكلم واقعة ما (بدرجات متفاوتة) من خلال قضية proposition يعبر بها عن هذه الواقعة. وأفعال هذا الصنف

---

(١) Searle. J.R.: (1981) p. 8 ff.

(٢) Ibid. p. 10

(٣) Ibid., p.5.

(٤) Ibid. p. 12 ff.

كلها تحتمل الصدق والكـذب. واتجـاه المطابقـة فيهـا مـن الكلمـات إلى العـالم words-to-world ويتضمن هذا الصنف معظـم أفعـال الإيضـاح expositives عند أوستن وكثيرًا من أفعال الأحكام verdictives.

٢- التوجيهات Directives :

وغرضها الإنجازى محاولة المتكلم توجيه المخـاطب إلى فعـل شـىء مـا. واتجـاه المطابقـة فيهـا مـن العـالم إلى الكلمـات World-to-words وشـرط الإخلاص فيها يتمثل فى الإرادة أو الرغبة الصادقة، والمحتوى القضوى فيها هـو دائمًا فعل السامع شيئًا فـى المستقبل. ويدخـل فـى هـذا الصنـف الاستفهام، والأمر والرجاء والاستعطاف والتشجيع، والدعوة والإذن والنصح، بل التحدى أيضًا الذى جعله أوسـتن فـى أفعـال السلوك behabitives. وكثـير مـن أفعـال القرارات exercitives عند أوستن تدخل فى هذا الصنف.

٣- الالتزاميات Commissives :

وغرضها الإنجازى هو التزام المتكلم (مـرة أخـرى بدرجـات متفاوتـة) بفعل شئ فى المستقبل. واتجاه المطابقة في هذه الأفعال من العـالم إلى الكلمـات world-to- words وشرط الإخلاص هو القصد Intention، والمحتوى القضوى فيها دائمًا فعل المتكلم شيئًا فى المستقبل، على أن كثيرًا مما عده أوستن من هـذا الصنف لا يدخل فيه على الإطلاق.

وظـاهر أن اتجـاه المطابقـة فـى الالتزاميـات والتوجيهيـات واحـد فهـل يسوّغ ذلك ضمهما فى قسم واحـد؟ والجـواب أن ذلـك غـير ممكـن لسـببين: أحدهمـا أن المرجـع فـى الالتزاميـات هـو المتكلـم أمـا فـى التوجيهيـات فهـو المخاطب. والثانى أن المتكلم فى الالتزاميات لا يحاول التأثير فى السـامع، وفـى التوجيهيات يحاول التأثير فيه.

٤- التعبيريات Expressives :

وغرضها الإنجازى هو التعبير عن الموقف النفسى تعبيرًا يتوافر فيه شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجى ولا العالم الخارجى يطابق الكلمات. وكل ما هو مطلوب الإخلاص فى التعبير عن القضية ويدخل فى هذا الصنف أفعال الشكر، والتهنئة، والاعتذار، والتعزية، والترحيب.

٥- الإعلانيات Declarations :

والسمة المميزة لهذا الصنف من الأفعال أن أداءها الناجح يتمثل فى مطابقة محتواها القضوى للعالم الخارجى، فإذا أديت أنا فعل تعيينك رئيسًا للوفد أداءً ناجحًا فأنت رئيس للوفد وإذا أديتُ فعل إعلان الحرب أداءً ناجحًا، فالحرب معلنة، وأهم ما يميز هذا الصنف من الأفعال عن الأصناف الأخرى أنها تحدث تغييرًا فى الوضع القائم، فضلاً عن أنها تقتضى عرفًا غير لغوى، واتجاه المطابقة فى أفعال هذا الصنف قد يكون من الكلمات إلى العالم ومن العالم إلى الكلمات، ولا يحتاج إلى شرط الإخلاص.

خامسًا: كان أوستن قد فرق بين الأفعال اللفظية والأفعال الإنجازية وفرق بين الأفعال الإنجازية الصريحة والأولية primary، ثم جاء سيرل فخطا فى هذا الاتجاه خطوة أخرى واسعة تتمثل فى التمييز بين ما أسماه الأفعال الإنجازية المباشرة direct وغير المباشرة indirect أو الحرفية literal وغير الحرفية non- literal، أو الثانوية secondary والأولية primary، وأكثرها شيوعًا عنده هو المصطلح الأول "المباشرة وغير المباشرة"، فالأفعال الإنجازية المباشرة عنده هى التى تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم، فيكون معنى ما ينطقه مطابقًا مطابقة تامة وحرفية لما يريد أن

يقول[1] وهو يتمثل فى معانى الكلمات التى تكون منها الجملة، وقواعد التأليف التى تنتظم بها الكلمات فى الجملة، ويستطيع السامع أن يصل إلى مراد المتكلم بإدراكه لهذين العنصرين معًا[2]. أما الأفعال غير المباشرة فهى التى تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم فالفعل الإنجازى يؤدى على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازى آخر؛ فلو أنك قلت لصاحبك وأنتما جالسان إلى المائدة "هل تناولنى الملح؟" فإن هذا فعل إنجازى غير مباشر إذ معناه الحرفى هو الاستفهام، وهو مصدر بالدليل الإنجازى **illocutionary indicator** وهو "هل"، لكن الاستفهام غير مراد لك، وأنت لا تنتظر أن يجيبك صاحبك بنعم أو بلا، بل مرادك أن تطلب منه طلبًا مهذبًا أن يناولك الملح. وظاهر إذن أن الفعل الإنجازى السابق فعل إنجازى غير مباشر إذ تخالف قوته الإنجازية الحرفيَّة قوته الإنجازية غير الحرفية التى هى مراد المتكلم[3] مع ملاحظة أن التنغيم **intonation** يختلف باختلاف القوة الإنجازية حرفية وغير حرفية[4].

لقد ناقش سيرل عددًا وفيرًا من الأفعال الإنجازية غير المباشرة وبخاصة تلك التى تكون استفهامًا مقصودًا به الطلب، ولحظ أن أهم البواعث إلى استخدام الأفعال غير المباشرة هو التأدب فى الحديث[5] ثم اختار التوجيهيات

---

(١) Searle, J.R.: (1981) p. 30.

(٢) Ibid. P. 117.

(٣) Ibid. P. 30.
- Levinson, S. C. (1983) p. 246.

(٤) Searle. J. R. (1981) p. 42.

(٥) Ibid. P. 48.

غير المباشرة indirect directives نموذجًا، فقسمها إلى مجموعات بحسب قدرة السامع على أداء الفعل، ورغبته فيه والبواعث إليه، ورغبة المتكلم أن يؤدى السامع فعلاً ما واستجابة السامع له[1] وناقش عددًا من ضوابط استخدامها ووضع عددًا من التعميمات generalizations التى تفسر غالب استعمالاتها وتحصر الاستثناء منها[2] .

وكان سيرل قد قرر أن المتكلم لا يقصد ما يقول فحسب؛ بل يتعدى قصده ما قاله إلى ما هو أكثر منه[3] فالأفعال الإنجازية غير المباشرة لا تدل هيئتها التركيبية على زيادة فى المعنى الإنجازى الحرفى، وإنما الزيادة فيما أطلق عليه سيرل معنى المتكلم speaker meaning[4] والمشكلة فى هذا النوع من الأفعال هو كيف يقول المتكلم شيئًا ويعنى شيئًا آخر؟ ثم كيف يكون ممكنًا أن يسمع المخاطب شيئًا له معنى ويفهم منه معنى آخر؟ لقد حاول سيرل أن يحل هذا الإشكال بمبدأ التعاون الحوارى conversational cooperation بين المتكلم والسامع وما عند المخاطب من علم بجوانب الموضوع[5] ثم بما أسماه استراتيجية الاستنتاج inference strategy عند السامع التى تمكنه من الوصول إلى المعنى غير المباشر للرجاء مثلاً بعد عشر خطوات من الاستدلال[6] .

ولقد لحظ بعض الباحثين أننا نتواصل بالأفعال الإنجازية غير المباشرة أكثر من تواصلنا بالأفعال الإنجازية المباشرة، فالأفعال الإنجازية التى لا تستخدم

---

(1) Ibid. P. 36 ff.

(2) Ibid. P. 39 ff., p. 45.

(3) Ibid. P. 30.

(4) Ibid. P. 42.

(5) Ibid. PP. 47, 49.

(6) Ibid. P. 46 f.

إلا مباشرة قليلة جدًا، وهى تقتصر فى الغالب على ما يسمى الأفعال المؤسساتية أو التشريعية كالتوكيل والتفويض والوصية والتوريث والإجارة ونحوها، لأن الأفعال الكلامية إن استخدمت هنا غير مباشرة فسوف تؤدى إلى اللبس وضياع الحقوق[1] .

على أنَّ من الممكن وضع بعض الضوابط للتمييز بين هذين النوعين من الأفعال المباشرة وغير المباشرة بتحديد ثلاثة فروق جوهرية[2] :

أحدها: أن القوة الإنجازية للأفعال المباشرة تظل ملازمة لها فى مختلف المقامات. أما الأفعال الإنجازية غير الحرفية فموكولة إلى المقام لا تظهر قوتها الإنجازية إلا فيه.

ثانيها: أن القوة الإنجازية للأفعال غير المباشرة يجوز أن تلغى، فإذا قال لك صاحبك: أتذهب معى إلى المكتبة؟ فقد تلغى القوة الإنجازية غير المباشرة وهى الطلب ليقتصر الفعل على قوته الإنجازية المباشرة وهى الاستفهام.

ثالثها: أن القوة الإنجازية غير المباشرة لا يتوصل إليها إلا عبر عمليات ذهنية استدلالية تتفاوت من حيث البساطة والتعقيد، أما القوة الإنجازية المباشرة فتؤخذ مباشرة من تركيب العبارة نفسه، من هنا لم تعن النظريات الشكلية إلا بالقوة الإنجازية المباشرة أو الحرفية، أما غير المباشرة، أو غير الحرفية فتقع خارج نطاق اهتماماتها.

وقد لفت سيرل إلى نوع آخر من الأفعال الكلامية غير المباشرة يرتبط

---

(1) Helbig, G. (1990) S. 201.
- Levinson, S. C. (1983) p. 264.

(2) د. أحمد المتوكل : آفاق جديدة فى نظرية النحو الوظيفى منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية (الرباط ١٩٩٣) ص ٢٢ فما بعدها.

بما يسمى الاستلزام الحوارى conversational implicature، وأصبح الآن نظرية متكاملة فى إطار التداولية والنحو الوظيفى. ويتضح هذا النوع من الأفعال من المحاورة القصيرة الآتية بين طالب وصديقه:

أ - ألا تزورنى الليلة ؟

ب- سأمتحن صباح غد.

فالفعل الإنجازى: "سأمتحن صباح غدٍ" ليس جوابًا مباشرًا عن الطلب، لكن فهم منه أمران أحدهما مباشر أو حرفى وهو الإخبار بموعد امتحان المخاطب، والثانى غير مباشر أو غير حرفى وهو الاعتذار عن عدم تلبية الدعوة.

والفعل الإنجازى غير المباشر بنوعيه محول عن الفعل الإنجازى المباشر، ومن ثم فإن الفعل الإنجازى غير المباشر يتضمن الفعل الإنجازى المباشر، ولا ينعكس[1].

(٥)

١- إذا التفتنا إلى تراثنا اللغوى الموزع بين كتب النحو، واللغة، والبلاغة، والفقه، وأصول الفقه، والتفسير، والقراءات -بما هو وحدة واحدة- وجدنا فيه اتجاهين بارزين يماثلان اتجاهى النظريات اللسانية المعاصرة أحدهما: يعنى بالنظام اللغوى الذى يشمل أنظمة فرعية صوتية وصرفية ونحوية ودلالية، لكل منها مكوناته وعناصره، وعلاقاته بالمكونات والعناصر الأخرى داخل النظام الفرعى، ثم علاقة كل نظام فرعى بالآخر، دون التفات مقصود إلى مقتضيات المقام وقرائن الأحوال. والثانى يعنى بالمقام وما يتصل به من قرائن غير لفظية تشمل منزلة المتكلم والسامع وعلاقة كل

---

(١) Helbig, G.: (1990) S. 200.

منهما بالآخر، وحالة كل منهما النفسية والذهنية، وحركاته الجسمية، وسكونه، والبيئة المكانية التى تشهد الحدث اللغوى وجمهور المشاركين فيه. على أنهم لم يكتفوا بالسياق الاجتماعى، بل ضموا إليه السياق الثقافى والشرعى. ولست أشك فى أن وراء ذلك كله نظرية تداولية محكمة تنتظر من يكشف عن جانبيها التنظيرى والتطبيقى فى ضوء معارف العصر، ومن الممكن- فى إطار هذه النظرية التداولية العامة- تطوير نظريات فرعية عديدة، منها نظرية عربية الوجه واللسان للأفعال الكلامية.

والمدخل الصحيح إلى هذه النظرية العربية للأفعال الكلامية باب من أبواب علم المعانى هو "الخبر والإنشاء"، وما ورد من مناقشات تتصل به فى كتب أصول الفقه، والفقه، والنحو، واللغة. فإذا استطعنا أن نعالج ما فيه من بعض أنواع الخلل والقصور، وأن نحكم منهج البحث فيه فى ضوء نظرية الأفعال الكلامية فربما استطعنا أن نصل إلى وضع نظرية عربية للفعل الكلامى موازية للنظريات الغربية تأخذ منها وتعطيها فى إطار مثاقفة متكافئة.

٢- قبل أن أناقش ما ورد فى هذا الباب تمهيدًا لإعادة صياغته أودّ أن أشير إلى أساسين منهجيين يعدان من أسس النظرية المقامية بعامة، ومن أسس هذه النظرية بخاصة هما: عرفية الاستعمال ومقصد المتكلم.

أولاً: عرفية الاستعمال:

يرى علماؤنا أن استعمال اللغة منوط بما تعارف عليه أبناؤها فى ألفاظها وصيغها وتراكيبها ودلالاتها وما تقتضيه مقامات الكلام وأعراف الناس وأحكام الشرع. من ثَمَّ كان العرف عندهم ثلاثة أعراف: عرفًا لغويًا استعماليًا، وعرفًا اجتماعيًا، وعرفًا شرعيًا.

أما العرف اللغوى فقد يكون فى الألفاظ وقد يكون فى التراكيب وقد أوضح الإمام الغزالى ذلك أيما إيضاح فى نصوص كثيرة نذكر منها قوله: "الاسم يسمى عرفيًا باعتبارين: أحدهما أن يوضع الاسم لمعنى عام ثم يخصص عرف الاستعمال -من أهل اللغة- ذلك الاسم ببعض مسمياته كاختصاص اسم الدابة بذوات الأربع مع أن الوضع لكل ما يدبّ.. والاعتبار الثانى أن يصير الاسم شائعًا فى غير ما وضع له أولاً، بل فيما هو مجاز فيه كالغائط.. فصار أصل الوضع منسيًا والمجاز سابقًا إلى الفهم بعرف الاستعمال"[1]

وهو يحتكم إلى عرف الاستعمال فى رفضه فهم القدرية لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ إذ قالوا: هو مجمل ؛ لأن الأعيان لا تتصف بالتحريم، وإنما يحرم فعل ما يتعلق بالعين، وليس يُدْرَى ما ذلك الفعل، فيحرم من الميتة مسُّها، أو أكلها، أو النظر إليها، أو بيعها، أو الانتفاع بها، والأم يحرم منها النظر، أو المضاجعة، أو الوطء وليس بعضها أولى من بعض. وقد عقب الغزالى على هذا الفهم بقوله: وهذا فاسد ثم قال: "ومن أنس بتعارف أهل اللغة، واطلع على عرفهم علم أنهم لا يستريبون فى أن من قال: "حرمت عليك الطعام والشراب" أنه يريد الأكل دون النظر والمس، وإذا قال: "حرمت عليك هذا الثوب" أنه يريد اللبس، وإذا قال: "حرمت عليك النساء" أنه يريد الوقاع. وهذا صريح عندهم مقطوع به، فكيف يكون مجملاً؟"[2]

---

[1] الغزالى، أبو حامد محمد بن محمد: المستصفى من علم الأصول، دراسة وتحقيق د. حمزة بن زهير حافظ (المدينة المنورة ١٤١٣ هـ) ٣/١٥-١٦.

[2] السابق ٣/٣٩-٤٠.

وهو يحتكم إلى عرف الاستعمال قبل مجيء الشرع لمعرفة المقصود بقوله -صلى الله عليه وسلم- "رفع عن أمتى الخطأ والنسيان" قال: "وليس الأمر كذلك. وكلامه -صلى الله عليه وسلم- يجلّ عن الخلف، فالمراد به رفع حكمه- لا على الإطلاق- بل الحكم الذى عرف بعرف الاستعمال- قبل ورود الشرع- إرادته بهذا اللفظ. فقد كان يفهم - قبل الشرع- قول القائل لغيره: "رفعت عنك الخطأ والنسيان" إذ يفهم منه رفع حكمه - لا على الإطلاق- وهو المؤاخذة بالذم والعقوبة"[1] .

على أن الغزالى لم يكن أول لافت إلى أثر العرف اللغوى فى الاستعمال، بل كان الالتفات إليه منذ وقت مبكر جدًا فى تاريخ الفكر اللغوى العربى، فلم تكن سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس رضى الله عنهما وجواب ابن عباس عنها إلا بيانًا لجريان ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه على مقتضى العرف اللغوى عند العرب. ولم يكن كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة معمر بن المثنى إلا شاهدًا على ذلك[2]

وأما العرف الاجتماعى فلعله يظهر من فهمهم لقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم- "الناس شركاء فى ثلاثة: الماء والكلأ والنار" والماء عام يشمل ما أحرزه الناس وما لم يحرزوه، لكنه قصر على غير المحرز لما جرت بذلك عادة الناس"[3] وقد نص ابن القيم على أن الفتوى تتغير بتغير العرف والعادة

---

(1) السابق نفسه ٤١/٣، ٦٢، ١٥٦، ١٥٧، ٣١٥.

(2) انظر كتابى: لغة القرآن الكريم فى جزء عم. دار النهضة- بيروت ١٩٨١، ص ٩٤ فما بعدها.

وراجع د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل نافع ابن الأزرق، دار المعارف - مصر ١٩٨٧، ط٢، ص ٣٠٩ فما بعدها.

(3) محمد مصطفى شلبى: المدخل فى التعريف بالفقه الإسلامى وقواعد الملكية والعقود فيه. دار النهضة- بيروت ١٩٨٥، ص ٣٥٧.

فإذا حلف رجل: "لا ركبت دابة" و"كان الحالف ممن عادته ركوب نوع خاص من الدواب كالأمراء ومن جرى مجراهم حملت يمينه على ما اعتاد ركوب الدواب، فيفتى فى كل بلد بحسب عرف أهله ويفتى كل أحد بحسب عادته"[1] .

وأما العرف الشرعى فقد نص عليه الإمام الغزالى، ورأى أنه فى منزلة العرف اللغوى. قال: "والمختار عندنا أنه لا سبيل إلى إنكار تصرف الشرع فى هذه الأسامى [يقصد الألفاظ الإسلامية] ولا سبيل إلى دعوى كونها منقولة عن اللغة بالكلية كما ظنه قوم، ولكن عرف اللغة تصرف فى الأسامى من وجهين:

أحدهما: التخصيص ببعض المسميات، كما فى الدابة. فتصرف الشرع فى الحج والصوم والإيمان من هذا الجنس، إذ للشرع عرف فى الاستعمال كما للعرب.

والثانى: فى إطلاقهم الاسم على ما يتعلق به الشئ ويتصل به، كتسميتهم الخمر محرمة، والمحرم شربها، والأم محرمة، والمحرم وطؤها. فتصرفه فى الصلاة كذلك؛ لأن الركوع والسجود شرط شرطه الشرع فى تمام الصلاة، فشمله الاسم بعرف استعمال الشرع[2] .

---

[1] ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر: إعلام الموقعين عن رب العالمين. راجعه وقدم له وعلق عليه: طه عبد الرءوف سعد (دار الجيل- بيروت ١٩٧٣) ٣/٥٠.

وانظر : الشاطبى ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى: الموافقات فى أصول الشريعة، شرحه وكشف مراميه، وخرج أحاديثه الشيخ عبد الله دراز، واعتنى بهذه الطبعة الشيخ إبراهيم رمضان (دار المعرفة- بيروت ١٩٩٤) وما بعدها.

[2] الغزالى: المستصفى ٣/٢٠-٢١.

وقد احتكم الإمام الغزالى إلى عرف الشرع فى الوصول إلى المقصود من قوله -صلى الله عليه وسلم- "لا صلاة إلا بطهور"، و "لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب"، و" لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل" و"لا نكاح إلى بولى"، و"لا نكاح إلا بشهود"، و"لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه"، و"لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد". فهذا نفى لما ليس منفيًا بصورته. قال: "وعرف الشرع فى تنزيل الأسامى الشرعية على مقاصده كعرف اللغة. فلا يشك فى أن الشرع ليس يقصد بكلامه نفى الصورة فيكون خلفًا، بل يريد نفى الوضوء والصوم والنكاح الشرعى، فعرف الشرع يزيل هذا الاحتمال، فكأنه صرّح بنفى الصلاة الشرعية والنكاح الشرعى"[1].

ثانيًا: مقصد المتكلم:

لا يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد، وهذا القصد كما يرى الأصوليون محدد عند المتكلم وثابت لا يتغير، وهو لذلك يتخذ من الوسائل الكلامية والمقامية ما يعين السامع على إدراك ما يريد، ولكن مراتب السامعين تتفاوت فى إدراك مقصود المتكلمين تبعًا لتفاوت قدراتهم العقلية واللغوية والثقافية.

وقد حدد الإمام الغزالى الطريق التى يفهم بها مراد المتكلم بقوله:

«ويكون طريق فهم المراد تقدم المعرفة بوضع اللغة التى بها المخاطبة. ثم إن كان "نصًا" لا يحتمل كفى فيه معرفة اللغة. وإن تطرق إليه الاحتمال فلا يعرف المراد منه حقيقة إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ، والقرينة إما لفظ مكشوف كقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ والحق هو العشر. وإما إحالة على دليل العقل،

---

[1] السابق ٣/٤٥-٤٦.

كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾، وقوله عليه السلام: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بدركها المشاهد لها، فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة، أو مع قرائن من ذلك الجنس، أو من جنس آخر، حتى توجب علمًا ضروريًا بفهم المراد، أو توجب ظنًا، وكل ما ليس له عبارة موضوعة فى اللغة فتتعين فيه القرائن»[1].

من أجل ذلك حمل ابن القيم على من أفتى بطلاق امرأة قال لها زوجها: إذا أذنت لك فى الخروج إلى الحمام فأنت طالق، فتهيأت للخروج إلى الحمام فقال لها: اخرجى وابصرى. ولم يكن قصده بقوله الإذن بل التهديد، فكان ما أفتى به المفتى أخذًا بظاهر اللفظ دون وقوف على قصد المتكلم، فأفتى كما قال ابن القيم بما لم يأذن به الله ورسوله، ولا أحد من أئمة الإسلام[2] ولهذا حذر ابن القيم من مغبة إهمال قصد الكلام فقال: «فإياك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه فتجنى عليه وعلى الشريعة، وتنسب إليها ما هى بريئة منه، وتلزم الحالف والمقرّ والناذر والعاقد ما لم يلزمه الله ورسوله به»[3] ثم لفت إلى أنه لابدّ للمتكلم من إرادتين: إرادة التكلم باللفظ اختيارًا، وإرادة موجبه ومقتضاه[4].

وفى ضوء هذا نفهم لِمَ لا يُعتد بطلاق المكره، وطلاق الغضبان الذى

---

[1] الغزالى: المستصفى ٣/٣٠-٣١.

[2] ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ٣/٥١.

[3] السابق نفسه ٣/٥٣-٥٤.

[4] السابق نفسه ٣/٦٢.

لا يعى ما يقول، واللغو من الأيمان، و لم رفع التكليف عن النائم والمجنـون، فإنما الأعمال بالنيات، والأمور بمقاصدها[1] .

على أن القصد قد يلتبس على بعض أهـل اللغـة إذا وقـف عنـد المعنـى الأصلى للألفاظ دون إدراك للمعنى الاستعمالى أو جهل السياق لحداثة سـن أو غلبة هوى. ومن ذلك ما أورده الإمام الشـاطبى مـن أنـه لمـا نـزل قولـه تعـالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق عليهم ذلك، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانـه بظلم، فقال عليه الصلاة والسلام: إنه ليس بـذاك، ألا تسـمع إلى قـول لقمـان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟[2] ومن ذلك ما أورده مـن أنـه لمـا نـزل قولـه تعـالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قـال ابـن الزبعـرى: فقـد عُبـدت الملائكة وعُبد المسيح! فقال له النبى -صلى الله عليه وسلم- «ما أجهلك بلغـة قومك يا غلام»[3] .

قال الإمام الشاطبى رحمه الله: «والذى يجـرى علـى أصـل مسـألتنا أن الخطاب ظاهره أنه لكفار قريش، و لم يكونوا يعبدون الملائكة ولا المسيح، وإنمـا كانوا يعبدون الأصنام، فقولـه: "ومـا تعبـدون" عـام فـى الأصنـام التـى كـانوا يعبدون، فلم يدخل فى العموم الاستعمالى غير ذلـك، فكـان اعـتراض المعـترض جهلاً منه بالمساق، وغفلة عما قصد فـى الآيـات، ومـا روى مـن قولـه: «مـا أجهلك بلغة قومك يا غلام» دليل على عدم تمكنه مـن فهـم المقـاصد العربيـة، وإن كان من العرب لحداثته وغلبة الهوى عليه فـى الاعـتراض أن يتـأمل مسـاق

---

[1] ابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين ٣/٥٢، ٥٣، ١٠٨، ١١١.

[2] الشاطبى: الموافقات ٣/٢٤٣.

[3] السابق ٣/٢٤٧.

الكلام حتى يتهدى للمعنى المراد، ونزل قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ بيانًا لجهله»[1] .

هذان إذن أصلان راسخان تقوم عليهما النظرية المقامية العربية بعامة، ونظرية الأفعال الكلامية بخاصة: عرفية الاستعمال، ومقصد المتكلم. وقد ألمح الشاطبى إلى أن ما جرى به العرف فى استعمال اللغة خطوة سابقة على الوقوف على قصد المتكلم، فإذا صح له العرف بدا له المراد[2] .

وليس بغريب بعد ذلك أن يقيم ابن خلدون حد اللغة على هذين الأصلين فيقول: «اعلم أن اللغة فى المتعارف هى عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لسانى، فلابد أن تصير ملكة متقررة فى العضو الفاعل لها وهو اللسان. وهو فى كل أمة بحسب اصطلاحاتهم[3] .

٣- تعددت تقسيمات علمائنا للكلام بحسب المعنى المراد دون أن يذكر كثير منهم المعايير التى قسم الكلام على أساس منها، فقسمه السكاكى إلى خبر وطلب[4] قال السيوطى: «.... وقال كثيرون: أقسامه ثلاثة: خبر وطلب وإنشاء. قالوا لأن الكلام إما أن يقبل التصديق والتكذيب أو لا، الأول الخبر، والثانى إن اقترن معناه بلفظه فهو الإنشاء، وإن لم يقترن بل تأخر عنه فهو الطلب، والمحققون على دخول الطلب في الإنشاء، وأن معنى اضرب مثلاً هو طلب الضرب مقترنًا بلفظه، وأما الضرب الذى يوجد بعد ذلك

---

(1) الشاطبى : الموافقات ٢/٢٤٧- ٢٤٨.

(2) السابق ٣/٣٧٥.

(3) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: مقدمة ابن خلدون، ضبط وشرح وتقديم د. محمد الإسكندرانى (دار الكتاب العربى- بيروت ط ٢، ١٩٩٨) ص ٥٠١.

(4) السكاكى، أبو يعقوب بن أبى بكر: مفتاح العلوم، البابى الحلبى بمصر ط ١ سنة ١٩٣٧، ص ٧٨.

فهو متعلق الضرب لا نفسه. وقال قطرب: أقسام الكلام أربعة: خبر، واستخبار -وهو الاستفهام - وطلب، ونداء، فأدرج الأمر والنهى تحت الطلب. وضعّف بأن الاستخبار داخل تحته أيضًا، وبأن نحو: بعت واشتريت خارج منه.

وقال بعضهم: خمسة: خبر، وأمر، وتصريح، وطلب، ونداء. وقال الأخفش: ستة: خبر، واستخبار، وأمر، ونهى، ونداء، وتمن. وقال بعضهم عشرة: نداء، ومسألة، وأمر، وتشفع، وتعجب، وقسم، وشرط، ووضع، وشك، واستفهام. وقال بعضه: تسعة، بإسقاط الاستفهام لدخوله فى المسألة. وقال بعضهم ثمانية بإسقاط التشفع لدخوله فيها، وقال بعضهم سبعة بإسقاط الشك؛ لأنه من قسم الخبر. وقال بعضهم ستة عشر: أمر، ونهى، وخبر، واستخبار، وطلب، وجحود، وتمن، وإغلاظ، واختبار، وقسم، وتشبيه، ومجازاة، ودعاء،وتعجب، واستثناء. والتحقيق انحصاره فى القسمين الأولين، ورجوع بقية المذكورات إليها»[1] وكان قد قال فى موضع سابق: «فالحذاق من النحاة وغيرهم، وأهل البيان قاطبة على انحصاره فى الخبر والإنشاء»[2].

وقد أكثر العلماء وبخاصة المتأخرون منهم من مناقشة مفهوم كل من الخبر والإنشاء، واستخدموا فى ذلك أساليب الجدل والحجاج، وقواعد المنطق والاستدلال[3]، وليس بنا الآن أن نعرض لكل ذلك، بل نقتصر منه على ما

---

[1] السيوطى: همع الهوامع فى شرح جمع الجوامع،تحقيق : أحمد شمس الدين- منشورات محمد على بيضون- دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٩٨، ١/٤٦- ٤٧ وانظر : السبكى: عروس الأفراح، ضمن شروح التلخيص ١/١٧٢.

[2] السيوطى همع الهوامع ١/٤٦.

[3] انظر: شروح التلخيص- دار الكتب العلمية- بيروت د.ت ١/١٣٦ وما بعدها.

ذكروا أنه المشهور وعليه التعويل. قال القزويني: «ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء، لأنه إما أن يكون له خارج يطابقه أو لا يطابقه، أو لا يكون له خارج، الأول الخبر، والثاني الإنشاء»[1]، ثم قال: «اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما، ثم اختلفوا فقال الأكثرون صدقه مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له. هذا هو المشهور وعليه التعويل»[2].

فالخبر إذن ما كان له واقع يطابقه أو لا يطابقه، فإن طابقه فهو صادق، وإن لم يطابقه فهو كاذب. وأما الإنشاء فليس له واقع يطابقه أو لا يطابقه، ولا يوصف بصدق ولا كذب. وقد عرفنا أن من العلماء من فرق بين الإنشاء والطلب، فالإنشاء ما اقترن معناه بلفظه والطلب ما تأخر معناه عن لفظه. قال السيوطي: «والمحققون على دخول الطلب في الإنشاء، وأن معنى اضرب مثلاً هو طلب الضرب مقترنًا بلفظه، وأما الضرب الذي يوجد بعد ذلك فهو متعلق الضرب لا الضرب نفسه»[3] وذكر من حالات الماضي: «أن ينصرف إلى الحال وذلك إذا قصد به الإنشاء كبعت واشتريت وغيرهما من ألفاظ العقود، إذ هو عبارة عن إيقاع الفعل بلفظ يقارنه في الوجود»[4] وتلك سمة أخرى فارقة تميز الإنشاء عن غيره.

ولعلنا نلحظ أن ما ذكروه من تحديد للخبر ملتبس وغير دقيق؛ فتحديد الخبر بأنه ماله واقع يطابقه أو لا يطابقه، فإن طابقه فهو صادق، وإن لم يطابقه

---

[1] القزويني: جلال الدين أبو عبد الله: الإيضاح ، ضمن شروح التلخيص ١٦٣/١ وما بعدها.

[2] السابق ١٧٣/١ وما بعدها.

[3] السيوطي: همع الهوامع ٤٧/١.

[4] السابق ٣٧/١، والمغربي، أبو يعقوب : مواهب الفتاح. ضمن شروح التلخيص ١٦٧/١، ١٦٨.

فهو كاذب تحديد غير مستقيم؛ فالأخبار المستقبلة كلها ليس لها واقع تطابقه أو لا تطابقه سواء أكانت مصدرة بدليل استقبال كالسين وسوف ولن وغيرها كقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، و﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ و﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أم لم تكن مصدرة بدليل استقبال نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ و﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾. ومن ذلك الأخبار التى تحمل حكمًا شرعيًا مثل: "يعيد صلاته" فى جواب من سأل عمن صلى بغير وضوء، و"يصوم شهرين متتابعين" فى جواب من سأل عمن أفطر فى نهار رمضان عمدًا. ومن ذلك أيضًا الأخبار التى تحمل معنى الطلب مثل آمرك بكذا وأنهاك عن كذا، وأسألك عن كذا، وأرجوك أن تفعل، ويجب أن تفعل، فهى عندهم من الخبر لا من الإنشاء، وليس لها واقع تطابقه أو لا تطابقه.

كذلك صدق الخبر أو كذبه، هل هو منوط بذات الخبر؟ أو بذات قائله؟ لئن كان منوطًا بذات الخبر فهذا يعنى أنه لابدَّ أن يقطع عن سياقه، وهذا ضد الاتجاه المقامى، وإن كان منوطًا بذات قائلة فهذا يعنى أن نفتح الباب لاتهام الناس كل الناس بالكذب والشك فيهم، فلا نتلقى منهم خبرًا إلا مسترِيبين فيهم، وهو موقف غير سوى بلا شك فإذا عاملنا الناس على أنهم صادقون إلى أن يثبت العكس سقط هذا المعيار.

وليس من شك فى أن كثيرًا من الأخبار لا يقبل الكذب كالأخبار الواردة فى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ومثلها الأخبار التى تعبر عن حقائق أو مسلمات، كقولك: الشمس تطلع من المشرق، والخمسة أكثر من الثلاثة والوالد أسنُّ من ولده ونحو ذلك، وهناك أخبار أيضًا لا تقبل الصدق

كأخبار مدعى النبوة، وكقلب المسلمات نحو الشمس تطلع من المغرب أو الوالد أصغر سنًا من ولده.

وهذا أمر لم يغب عن بعض علمائنا، فالإمام الغزالى ذكر أن الأخبار ثلاثة أقسام: القسم الأول: ما يجب تصديقه كالأخبار المتواترة، وما أخبر الله عنه، وما أخبر الرسول به، وما أجمعت عليه الأمة، وكل خبر يوافق ما أخبر الله تعالى عنه أو رسوله، وكل خبر من أمور الدين ذكره المخبر بين يدى الرسول وبمسمع منه ولم يكن غافلاً عنه، فسكت عليه، وكل خبر ذكر بين جماعة يستحيل تواطؤهم فأمسكوا عن تكذيبه.

والقسم الثانى ما يعلم كذبه ومنه ما علم خلافه بضرورة العقل، أو النظر، أو الحس، أو المشاهدة أو أخبار التواتر، كمن أخبر عن الجمع بين الضدين، وإحياء الموتى فى الحال، وأنّا على جناح نسر أو فى لجة بحر، ومنه ما يخالف النص القاطع من الكتاب، والسنة المتواترة، وإجماع الأمة، ومنه ما صرح بتكذيبه جمع كثير يستحيل فى العادة تواطؤهم على الكذب إذا قالوا: حضرنا معه فى ذلك الوقت فلم يجر ما حكاه من الواقعة أصلاً، ومنه ما سكت الجمع الكثير عن نقله والتحدث به مع جريان الواقعة بمشهد منهم ومع إحالة العادة السكوت عن ذكره لتوفر الدواعى على نقله كالإخبار بأن أمير البلدة قتل فى السوق على ملأ من الناس ولم يتحدث أهل السوق به.

والقسم الثالث «ما لا يعلم صدقه ولا كذبه فيجب التوقف فيه»[1].

وأما تحديدهم للإنشاء فهو أحسن حالاً وأقوم قيلاً، وإن كان لا يسلم أيضًا من مأخذ عليه؛ فقد رأينا المحققين منهم يدخلون الطلب فى الإنشاء، لأن الطلب

---

[1] الغزالى: المستصفى: ١٦٢/٢.

كما يقولون هو "إيقاع فعل بلفظ يقارنه فى الوجود، فطلب الضرب مقترن بلفظه فى الوجود". ولاشك أن هذا ينطبق أيضًا على قولك: يضرب زيد عمرًا؛ لأن الإخبار بالضرب مقرون بلفظه فى الوجود. وعندئذ تسقط الحدود بين الخبر والإنشاء والطلب.

ونخلص من ذلك إلى أمر نراه على درجة بالغة من الأهمية وهو أن منطلق التفكير فى هذه النظرية عند أوستن وعند علمائنا واحد، فهم لم يقصروا الكلام- كما فعل فلاسفة الوضعية المنطقية- على ما له واقع إذا طابقه كان صادقًا، وإذا لم يطابقه كان كاذبًا بل تجاوزوا ذلك إلى ما سعى أوستن جاهدًا لإثباته وعدّه فلاسفة اللغة الغربيون إنجازًا كبيرًا، وهو أن من الكلام مالا واقع له يطابقه أو لا يطابقه، ولا يوصف بصدق ولا كذب، ووصلوا إلى الفكرة المحورية التى كانت المنطلق إلى وضع هذه النظرية، وهى أن من الكلام ما يكون فعلاً أو إيقاعًا لفعل بلفظ يقارنه فى الوجود. وليس وراء ذلك تماثل بين وجهتى النظر.

من هنا أرى أننا إذا عدلنا عن تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، وقسمناه تقسيمًا أوليًا إلى أفعال يكون اللفظ بها إيقاعًا لفعل، وأفعال تصف وقائع العالم الخارجى أو تخبر بها، أو إلى أفعال إيقاعية وأفعال إخبارية، أو إلى إيقاعيات وإخباريات إن شئت الاختصار، فسوف نضع اللبنة الأولى فى بناء نظرية عربية للأفعال الكلامية، ونتخلص فى الوقت نفسه من تقسيم مضطرب وملتبس.

على أن تقسيم الكلام بحسب مقصود المتكلم إلى إيقاعيات وإخباريات لا يزال فى حاجة إلى إعادة النظر فيه وبخاصة فيما يتصل بالإخباريات، إذ ينبغى أن تكون مقصورة على وصف وقائع العالم الخارجى، فيخرج بذلك منها

كل ما كان دالاً على الطلب بصيغة الخبر، وما كان منها دالاً على التعبير عن حالة المتكلم النفسية والشعورية تجاه الآخرين، فإذا أظهرت لشخص حبك له، أو سعادتك به أو اعتزازك، أو ترحيبك أو مواساتك فإنك لا تلقى إليه خبرًا، بل تعبر عن شعور: وكذلك يخرج منها التزام المتكلم أمام غيره بأداء فعل فى المستقبل، فحين تقول لصاحبك: أعدك المجيء فأنت لا تلقى إليه خبرًا، بل تلتزم أمامه بأداء فعل فى المستقبل. ومن ثم نرى أن تقسيم الأفعال الكلامية فى اللغة العربية يمكن أنِ يستفاد فيه من تقسيم أوستن وسيرل ومما وضعه سيرل من ضوابط للتقسيم على النحو الآتى:

أولاً: الإيقاعيات:

وهى التى يكون إيقاع الفعل فيها مقارنًا للفظه فى الوجود، فأنت توقع بالقول فعلاً، وينبغى أن تتسع لتشمل أفعال البيع والشراء، والهبة والوصية، والوقف، والإجارة، والإبراء من الدين، والتنازل عن الحق، والزواج، والطلاق، والإقرار والدعوى والإنكار والقذف، والوكالة... إلخ، وهذه كلها يقع الفعل بمجرد النطق بلفظها كما نص على ذلك الفقهاء[1] بل إن منها ما يقع وإن كان المتكلم هازلاً، فقد جاء فى حديث أبى هريرة المشهور عن النبى- صلى الله عليه وسلم- «ثلاث جدّهن جد،وهزلهن جدّ: النكاح، والطلاق، والرجعة»[2].

وقد وضع الفقهاء شروطًا صارمة لصحة هذا النوع من الأفعال لا تكاد تختلف عن الشروط التى وضعها كل من أوستن وسيرل، وأهمها أن

---

(1) محمد مصطفى شلبى: المدخل فى التعريف بالفقه الإسلامى، ص ٤٣٤.

(2) ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١٢٣/٣.

يكون الكلام واضح الدلالة على المراد بحيث يفهم منه إيقاع الفعل المراد فهما لا لبس فيه، وأن يكون متبعًا أعراف أهل اللغة، فلا ينعقد الزواج مثلاً بألفاظ الإباحة أو الإعارة أو الإجارة أو الوصية، وأن يعلم كل من المتكلم والمخاطب ما صدر عن الآخر ويوافق عليه، وأن يكون إيقاع الفعل كاملاً، فإذا كان مما يحتاج إلى إيجاب وقبول فلا يكفى الإيجاب وحده ولا القبول وحده،وأن يكون زمن الفعل حاضرًا أو مستقبلاً لفظًا ومعنى أو معنى فقط، فإذا كان ماضيًا لفظًا ومعنى كان إخبارًا[1] .

وقد يكون إيقاع الفعل صريحًا وقد يكون ضمنيًا، فقد ورد إيقاع الوعد مثلاً صريحًا فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ ووقع ضمنيًا فى قوله تعالى مخاطبًا أم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فقد تضمن القول الكريم وعدين: الرد والرسالة، ثم ذكر القرآن الكريم من بعد أن الرد كان وعدًا من الله وسكت عن الرسالة؛ لأنه لم يكن قد حان وقتها بعد فقال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

ومن اللازم أن نقرر أنَّ هذه الشروط ليس مقصورة على الإيقاعيات، بل هى شروط عامة لأداء أى فعل كلامى أداءً ناجحًا، ويضاف إليها شرط الإخلاص فى أداء الفعل، وهو مطلوب أيضًا فى كل الأفعال الكلامية، وتحققه قاعدة أصولية تقول: الأمور بمقاصدها؛ ذلك أن الفعل يعد صحيحًا أو فاسدًا- برغم تحقق الشروط الظاهرة- بنية فاعله، فإذا أوقع المرء الفعل بلفظ ونوى

---

[1] انظر: محمد مصطفى شلبى: المدخل فى التعريف بالفقه الإسلامى، ص ٤٢٠ وما بعدها، والسيوطى: همع الهوامع ١/٣٧.

عدم إنجازه فإن الفعل لا يقع على وجهه الصحيح؛ بل يقع فاسدًا، سواء أكان ذلك فى الإيقاعيات أم فى غيرها. قال ابن القيم: "فالنية روح العمل ولبّه وقوامه، وهو تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها. والنبى -صلى الله عليه وسلم- قال كلمتين كفتا وشفتا وتحتهما كنوز العلم وهما قوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» فبين فى الجملة الأولى أن العمل لا يقع إلا بنية، ثم بين فى الجملة الثانية أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه. وهذا يعم العبادات، والمعاملات، والأيمان، والنذور، وسائر العقود والأفعال»[1].

ثانيًا : الطلبيات:

وهى تضم كل الأفعال الكلامية الدالة على الطلب بغض النظر عن صيغتها، وهو أمر أخذ به الأصوليون والفقهاء وبعض المتكلمين قال الغزالى مشيرًا إلى عبارات مثل: أمرتك، وأوجبت عليك، وفرضت وحتمت؛ فإن تركت فأنت معاقب: «وهذه الألفاظ الدالة على معنى الأمر تسمى أمرًا»[2] وقال: «فإن قول الشارع "أمرتكم بكذا" و "أنتم مأمورون بكذا" أو قول الصحابى "أُمِرْتُ بكذا" كل ذلك صيغ دالة على الأمر»[3] ثم أورد مناقشتهم لفريق من المعتزلة ينكر كلام النفس ويتحزّب في فهمه للأمر ثلاثة أحزاب:

الأول: يزعم أنّ قوله: "افعل" أمر لذاته وجنسه، وأنه لا يتصور ألا يكون أمرًا فقيل له هذه الصيغة قد تصدر للتهديد كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، وقد تصدر للإباحة كقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ فقال:

---

[1] ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين ١١١/٣.

[2] الغزالى: المستصفى ١٢١/٣، والشاطبى: الموافقات ١٤٢/٣.

[3] السابق ١٢٨/٣.

ذلك جنس آخر، لا من هذا الجنس، وعقب عليه بقوله: وهو مناكرة للحس.

أما الحزب الثاني- وفيهم جماعة من الفقهاء- فاعترفوا بأن قوله: "افعل" ليس أمرًا بمجرد صيغته ولذاته، بل لصيغته ولتجرده عن القرائن الصارفة له عن جهة الأمر إلى التهديد والإباحة وغيرهما.

بل لقد رأى بعض العلماء أن "افعل" لغير الأمر إلا إذا صرفته قرينة إلى معنى الأمر، لأننا إذا سلمنا بإطلاق العرب هذه الصيغة على أوجه مختلفة فليس أحدها بأولى من الآخر.

أما الحزب الثالث: وهو من محققي المعتزلة فرأى أن "افعل" ليس أمرًا لصيغته وذاته، ولا لكونه مجردًا من القرائن مع الصيغة، بل يصير أمرًا بثلاث إرادات: إرادة المأمور به، وإرادة إحداث الصيغة، وإرادة الدلالة بالصيغة على الأمر دون الإباحة والتهديد وغيرهما.

وقد رأى الغزالي أنه لا معنى لاعتبار الإرادة الثالثة لأنها متضمنة في الأولى[1] ثم ذكر خمسة عشر معنى استعماليًا لصيغة "افعل"[2] فالأمر عندهم كما يرد بصيغته "افعل" أو "فلتفعل" يرد بغيرهما فقد يكون لفظ الأمر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾، وبلفظ الفرض: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾، وبلفظ الكتابة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ وبالجار والمجرور ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وبجزاء الشرط: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، وبالوصف: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ

---

[1] السابق نفسه ٣/١٢٢ فما بعدها.

[2] الغزالي: المستصفى ٣/١٢٩- ١٣٠.

خَيْرٌ﴾، وبالوعد بحسن الجزاء عليه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾، والوصية: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾[1].

كذلك النهى يجرى عليه ما قرروه للأمر. قال الغزالى: «اعلم أن ما ذكرناه من مسائل الأوامر تتضح به أحكام النواهى، إذ لكل مسألة وزان من النهى على العكس فلا حاجة إلى التكرار»[2].

فالنهى عندهم يتسع ليشمل كل الأفعال الكلامية الدالة على النهى، فيشمل المضارع المسبوق بلا الناهية نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، والأمر الدال على الترك: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾، ولفظ النهى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ولفظ التحريم: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، ونفى الحل: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾، ونفى الحدث: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، ووصف الشىء بأنه شر: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾، وجعله سببًا للإثم: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ وقرنه بوعيد: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

---

[1] على حسب الله: أصول التشريع الإسلامى (القاهرة ١٩٥٩) ص ٢١٤.

[2] الغزالى: المستصفى ١٩٨/٣.

[3] على حسب الله: أصول التشريع الإسلامى، هامش ص ٢١٩.

والاستفهام داخل في الطلب، لأن الاستفهام كما قالوا استخبار، والاستخبار طلب من المخاطب أن يخبرك عن شئ تريد معرفة خبره[1] وله دليل لفظى يدل عليه ويتمثل فى حرفى الاستفهام هل والهمزة، وفى أسماء الاستفهام التى تكون ركنًا فى الإسناد أو مكملاً من مكملاته، ثم فى تنغيم الاستفهام.وينبغى أن يتسع أيضًا ليشمل الأفعال الكلامية الدالة على الاستفهام كالسؤال والاستفهام والاستعلام والاستخبار والاستنباء، والاستفسار ونحوها.

ويمكننا أن نقرر أن الغرض الإنجازى من الطلبيات هو التأثير فى المتكلم ليفعل شيئًا أو يخبر عن شئ، وقد فرق السيوطى بين الطلب بالأمر والنهى، والطلب بالاستفهام بالاختلاف فى اتجاه المطابقة فقال: "والفرق بين الطلب فى الاستفهام وبين الطلب فى الأمر والنهى والنداء واضح، فإنك فى الاستفهام تطلب ما هو فى الخارج ليحصل فى ذهنك نقش له مطابق، وفيما سواه تنقش فى ذهنك، ثم تطلب أن يحصل له فى الخارج مطابق" وهو نص صريح فى اتخاذ اتجاه المطابقة معيارًا للتقسيم، وهو عين ما أخذ به سيرل.

ثالثًا: الإخباريات:

وينبغى أن تقتصر على الأفعال التى تصف وقائع وأحداثًا فى العالم الخارجى، ويدخل فيها ما تنقله الصحف ونشرات الأخبار إلينا مما يدور فى العالم من أحداث وشئون عسكرية وسياسية وثقافية واجتماعية ودينية واقتصادية وعلمية.

والغرض الإنجازى لهذا النوع من الأفعال هو نقل الواقع نقلاً أمينًا، فإذا تحققت الأمانة فى النقل فقد تحقق شرط الإخلاص، وإذا تحقق شرط الإخلاص أنجزت الأفعال إنجازًا ناجحًا أو تامًا، وإلا أصبحت أخبارًا معيبة.

---

[1] السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٤٥.

واتجاه المطابقة فى هذه الأفعال من الكلمات إلى العالم.

رابعًا: الالتزاميات:

وهى أفعال كلامية يقصد بها المتكلم الالتزام طوعًا بفعل شئ للمخاطب فى المستقبل بحيث يكون المتكلم مخلصًا فى كلامه، عازمًا على الوفاء بما التزم به كأفعال الوعد، والوعيد، والمعاهدة، والضمان، والإنذار... إلخ، واتجاه المطابقة فى هذا النوع من الأفعال من العالم إلى الكلمات. فالالتزاميات والطلبيات تشتركان فى اتجاه المطابقة، لكن المرجع فيهما مختلف، فهو فى الالتزاميات المتكلم، وفى الطلبيات المخاطب.

خامسًا: التعبيريات:

وهى أفعال كلامية يعبر بها المتكلم عن مشاعره فى حالات الرضا والغضب والسرور والحزن والنجاح والفشل... إلخ، وليس من اللازم أن تقتصر هذه الأفعال على ما هو خاص بالمتكلم من الأحداث، بل تتعداها إلى ما يحدث للمشاركين فى الفعل، وتنعكس آثاره النفسية والشعورية على المتكلم. ويدخل فيها أفعال الشكر، والاعتذار، والتهنئة والمواساة، وإظهار الندم، والحسرة، والتمنى، والشوق والحب والكره... إلخ. ومما ورد منها فى القرآن الكريم قوله تعالى على لسان زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ إظهارًا للضعف وقوله تعالى على لسان مريم: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ إظهارًا للحزن والتحسر.

وليس لهذا النوع اتجاه للمطابقة، إذ يغنى عنه شرط الإخلاص فإذا تحقق أنجز الفعل إنجازًا ناجحًا.

وهكذا ترى أن من الممكن تقسيم الأفعال الكلامية العربية تقسيمًا خماسيًا يطابق ما قدمه سيرل ويفيد من بعض ضوابطه فيما عدا ما أطلق عليه سيرل الإعلانيات وأطلقنا عليه الإيقاعيات لانسجامه مع طبيعة الاستعمال فى اللغة العربية، فضلاً عن أننا اخترنا أن نطلق على قسم منها "الطلبيات" واختار أن يطلق عليه "التوجيهيات". ولسنا نزعم أن ما قدمناه من تقسيم للأفعال استوفى كل الأغراض التى يريد المتكلم أن يحققها بكلامه، ولكنها محاولة للتقسيم أقرب إلى واقع الاستعمال منها إلى نوازع الاستدلال، وظواهر الأشكال.

٤-علماؤنا على أن الكلام لا ينعقد إلا بالإسناد الأصلى، أو بنسبة تامة بين طرفين أحدهما المسند إليه والآخر المسند. يقول رضى الدين الاستراباذى فى شرحه لقول بن الحاجب: «الكلام ما تضمّن كلمتين بالإسناد، ولا يتأتى ذلك إلا فى اسمين، أو فى فعل واسم»: «والكلام ما تضمن الإسناد الأصلى، وكان مقصودًا لذاته... وإنما قال بالإسناد و لم يقل بالإخبار؛ لأنه أعم؛ إذ يشمل النسبة التى فى الكلام الخبرى والطلبى والإنشائى، كما ذكرنا. واحترز بقوله: "بالإسناد" عن بعض ما ركب من اسمين كالمضاف والمضاف إليه والتابع والمتبوع، وبعض المركب من الفعل والاسم نحو ضربك، وعن جميع الأنوع الأربعة الأخر من التركيبات الثنائية الممكنة بين الكلم الثلاث، وهى: اسم مع حرف، وفعل مع فعل، أو حرف، وحرف مع حرف. وذلك لأن أحد أجزاء الكلام هو الحكم، أى الإسناد الذى هو رابطة، ولابد له من طرفين: مسند ومسند إليه. والاسم بحسب الوضع يصلح لأن يكون مسندًا ومسندًا إليه، والفعل يصلح لكونه مسندًا لا مسندًا إليه. والاسم مع الحرف لا يكون كلامًا؛ إذ لو جعلت الاسم مسندًا فلا مسند إليه، ولو جعلته مسندًا إليه فلا

مسند... والفعل مع الفعل أو الحرف لا يكون كلامًا لعدم المسند إليه، وأما الحرف مع الحرف فلا مسند فيهما ولا مسند إليه»[1].

وذكر أبو يعقوب المغربى أن "الكلام الذى يحسن السكون عليه، لا محالة يتضمن نسبة المسند إلى المسند إليه"[2] وبين المقصود بالنسبة فقال: «هى تعلق أحد الطرفين وهما المسند والمسند إليه بالآخر على وجه التمام، وذلك بأن يحسن السكوت عليه معنى»[3]. وبيَّن الدسوقى أنه بالنسبة التامة تخرج النسبة الناقصة كالتقييدية، والتوصيفية، كغلام زيد، والحيوان الناطق فلا يقتضيها الكلام[4]. ورأى السكاكى «أن هذا النوع من الكلام لا يفتقر فى تأديته إلى أزيد من دلالات وضعية، وألفاظ كيف كانت ونظم لها لمجرد التأليف بينها يخرجها عن حكم النعيق» وأعقب ذلك بقوله: «وهو الذى سميناه فى علم النحو " أصل المعنى"»[5].

وقد تجاوز عبد القاهر الجرجانى حقيقة وقوع هذا النوع من الكلام فى اللغة العربية إلى القول بأنه لابدَّ واقع فى اللغات جميعًا فكأنه يريد أن يقول إنه من العالميات اللغوية universals يقول:

«فمن الثابت فى العقول والقائم فى النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه... ولما كان الأمر كذلك أوجب ألا يعقل إلا من

---

(1) رضى الدين الاستراباذى: شرح الرضى على الكافية. تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس - بنغازى ط٢، سنة ١٩٩٦، والغزالى : المستصفى ٢٤/١، والسيوطى: همع الهوامع ٤٦/١.

(2) المغربى، أبو يعقوب: مواهب الفتاح، ضمن شروح التلخيص ١٦٥/١.

(3) السابق نفسه.

(4) الدسوقى، محمد بن محمد عرفة، حاشية الدسوقى على السعد بهامش شروح التلخيص ١٦٤/١.

(5) السكاكى: مفتاح العلوم، ص ٧٨.

مجموع جملة: فعل واسم كقولنا خرج زيد، أو اسم واسم كقولنا زيد منطلق، فليس في الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل، وبغير هذا الدليل، وهو شئ يعرفه العقلاء فى كل جيل وأمة، وحكم يجرى عليه الأمر فى كل لسان ولغة»[1].

وعلى الرغم من أننا لا نوافق عبد القاهر على أن الظواهر المشتركة بين اللغات جميعًا تقرر عقلاً، بل هى تقرر استقراءً فإننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن ما يقصده علماؤنا بالكلام الذى يقوم على مجرد الإسناد أو نسبة المسند إلى المسند إليه هو عين ما يقصده أوستن بالفعل اللفظى، ويقصده سيرل بالفعل القضوى. أما ما يقصده كل منهما بالفعل الإنجازى وهو الذى يحمل قصد المتكلم فيكاد علم أصول الفقه كله يكون قائمًا على هذا النوع من الأفعال. وقد أوضحنا ذلك بما لا يحتاج إلى تكرار القول فيه عند الحديث عن مقصد المتكلم، بل إن علماء الأصول أدركوا ما لم يدركه سيرل وأستاذه ففصلوا القول فى الكلام الذى يحمل مقصود المتكلم فقسموه من حيث وضوح الدلالة إلى واضح وغير واضح، فالواضح ينقسم إلى محكم ومفسر ونص وظاهر وغير الواضح ينقسم إلى خفى ومشكل ومجمل ومتشابه وتحدثوا عن طرق الدلالة فرأى الجمهور أنها أربعة: دلالة بالعبارة ودلالة بالإشارة ودلالة بالفحوى ودلالة بالاقتضاء[2].

على أن الأصوليين لم يكونوا منفردين بهذا الإدراك لما يُطلق عليه الأفعال الإنجازية، بل شاركهم فى ذلك بعض علماء العربية فقد وجدت نصًا لعبد القاهر الجرجانى فيه إدراك بيّن للمقصود بالفعل اللفظى أو القضوى،

---

[1] عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٥٢٨.

[2] انظر: د. طاهر حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين (الإسكندرية ١٩٨٣) ص ١٢٩ فما بعدها.

والفعل الإنجازى. يقول: «ومن أجل ذلك امتنع أن يكون لك قصد إلى فعل من غير أن تريد إسناده إلى شئ مظهر أو مقدّر. وكان لفظك به، إذا أنت لم ترد ذلك، وصوتًا تصوته سواء»[1] ووجدت نصًا للسكاكى واضح الدلالة على هذا الإدراك يقول فيه: «.... وأعنى بالفهم فهم ذوى الفطرة السليمة، مثل ما يسبق إلى فهمك من تركيب: إن زيدًا منطلق إذا سمعه العارف بصياغة الكلام من أن يكون مقصودًا به نفى الشك أو رد الإنكار، أو من تركيب : زيد منطلق من أنه يلزم مجرد القصد إلى الإخبار..»[2].

ومما هو بالغ الدلالة على ذلك أيضًا ما روى من أن الكندى الفيلسوف قال للمبرد: إنى لأجد فى كلام العرب حشوًا؛ يقولون : زيد قائم، وإن زيدًا قائم، وإن زيدًا لقائم، والمعنى واحد. قال المبرد بل المعانى مختلفة: زيد قائم إخبار، وإن زيدًا قائم جواب عن سؤال سائل، وإن زيدًا لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه[3].

فسؤال الكندى وجواب المبرد يكشف لنا عن موقفين أحدهما لفيلسوف لا يرى فى الكلام إلا معناه القضوى دون نظر إلى معناه الإنجازى الذى يراد به، فهو لا يرى فى الأمثلة السابقة إلا نسبة القيام إلى زيد، والقضية تقوم على هذه النسبة؛ فلم يتجاوزها فكره، أما المبرد فهو لغوى أديب ذو بصر حديد بأن المعنى الذى يقصده المتكلم يتخذ له من الوسائل اللغوية والمقامية ما يعين على إدراكه فقد أدرك أن قصد المتكلم مراعى فيه حال المخاطب، فزيد قائم إخبار لأن المخاطب خالى الذهن عن الخبر، وفى "إن زيدًا قائم" نفى لشك

---

[1] عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٥٢٧.

[2] السكاكى: مفتاح العلوم، ص ٧٧.

[3] عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٣١٥.

المخاطب فى الخبر، وفى "إن زيدًا لقائم" ردّ لإنكاره.

وأريد أن ألفت هنا إلى أن علماءنا كانوا على وعى بأن قصد المتكلم الذى تعبر عنه هذه الأفعال هو الذى يحدد الطريقة التى يتحدث بها، ويتغير تعبيره عنه قوة وضعفًا بتغير الموقف الكلامى. فالطلب مثلاً غرض أساسى من أغراض المتكلم سبقت الإشارة إليه، لكنه يتفاوت شدة ولينًا؛ فقد يكون أمرًا على سبيل الاستعلاء يوجب الطاعة، وقد يكون التماسًا بين متساويين فى المنزلة، وقد يكون دعاء من الأدنى للأعلى[1] وكل ذلك منظور فيه إلى طبيعة العلاقة بين المتكلم والمخاطب. أما من حيث نوع الطلب فقد يكون طلبًا برفق فيكون عرضًا كقول الشاعر:

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك فما راءٍ كمن سمعا[2]

وقد يكون بحث وإزعاج فيكون تحضيضًا كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، و﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾[3].

وقد تتمثل درجة القوة فى الفعل الإنجازى فى اختيار المادة اللغوية التى تعبر عن هذه القوة. فالثناء مثلاً أقوى من المدح؛ لأن الثناء كما يقول أبو هلال العسكرى مدح مكرر[4] والسبّ مثلاً أقوى من الشتم؛ لأن السبّ هو

---

[1] السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٥٢.

[2] ابن عقيل: بهاء الدين عبد الله: شرح ابن عقيل. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة ط ١٤، ٢/٣٥١.

[3] المالقى، أحمد بن عبد النور: رصف المبانى فى شرح حروف المعانى،تحقيق د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط٢، سنة ١٩٨٥، ص ٣٦١.

[4] العسكرى، أبو هلال: الفروق فى اللغة- تحقيق لجنة إحياء التراث فى دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٣، ط٥، ص ٤٢.

الإطناب فى الشتم والإطالة فيه[1] واللمز أجهر من الهمز[2] والإبلاغ أشد اقتضاء للمنتهى إليه من الإيصال[3] والذكاء تمام الفطنة[4] والجور أقوى من الظلم؛ لأن الظلم نقصان الحق، والجور العدول عن الحق[5] والفزع أقوى من الخوف؛ لأنه خوف مفاجئ[6] ... إلخ.

وقد رتبوا بعض الأفعال من حيث درجة شدتها مع أن غرضها الإنجازى واحد فقالوا مثلاً[7] : أول مراتب الحب الهوى ثم العلاقة، ثم العشق، ثم الشغف، ثم الجوى، ثم التتيم، ثم التبْل، ثم الهيام، وهو أن يغلبه الهوى فيهيم على وجهه.

وهناك وسائل أخرى من الممكن أن تقوى الفعل أو تضعفه كالنبر والتنغيم وحركات الجسم وتعبير الوجه ونظرة العين[8] فضلاً عن مقويات أخرى مثل: لا ريب، لا جدال، لا جرم، والأفعال الدالة على اليقين مثل أرى، أعلم، ألفى، وهناك مضعفات مثل أشك، أزعم، إخال، أظن، أرجح، أرتاب، فى رأيى، فيما أعلم... إلخ.

---

[1] العسكرى: الفروق فى اللغة، ص ٤٣.

[2] السابق، ص ٤٤.

[3] السابق، ص ٥٦.

[4] السابق، ص ٧٧.

[5] السابق، ص ٢٢٦.

[6] السابق، ص ٢٣٧.

[7] إبراهيم اليازجى: نجعة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد. مكتبة لبنان- بيروت ١٩٨٥، ط٣، ص ٢٤٥.

[8] انظر:ابن جنى، أبو الفتح عثمان: الخصائص ، تحقيق محمد على النجار، دار الكتب المصرية ١٩٥٢، ٢/٣٧٠، ٣٧١.

٥- ميز علماؤنا أيضًا الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة وهم وإن لم يعرفوا هذا المصطلح عرفوا ما يدخل فيه ويندرج تحته وأطلقوا عليه مصطلحات أخرى لعل أقربها إليه: مقتضى الظاهر وما خرج عن مقتضى الظاهر[١] وقد بذل علماء المعانى والأصول جهدًا كبيرًا فى تحديد المعانى غير المباشرة أو الخروج عن مقتضى الظاهر على خلاف بين الفريقين فى المنهج والهدف. وكان الأصوليون أقرب إلى البحث التداولى من علماء المعانى، فقد عد البلاغيون كل خروج عن مقتض الظاهر بلاغة، والحق أن هذا غير صحيح على إطلاقه، فقد يكون كذلك إذا انضمت إليه خصائص أسلوبية وتخييلية، ولكنه بغير هذه لا يعدو أن يكون معنى اتصاليًا يقضيه المقام، فأنت لا تستطيع أن تعد من البلاغة مثلاً قول قائل لصاحبه وهما واقفان أمام مخبز مثلا: "هل معك نقود؟ مع أنه استفهام لا يراد به معناه الأصلى أو ظاهر لفظه، بل يريد به المتكلم أمرين أن يعلمك أنه ليس معه نقود، وأن يطلب منك إعطاءه نقودًا يشترى بها خبزًا.

على أننى وجدت عندهم إدراكًا واضحًا لمفهوم الأفعال الكلامية ذات المعنى الحرفى أو الأصلى أو المباشر، فقد حدد عبد القاهر الجرجانى نظير ما أطلق عليه سيرل الأفعال الحرفية أو المباشرة بأنها «ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد وبالانطلاق عن عمرو فقلت: عمرو منطلق[٢]» ثم قال مجردًا هذا النوع من الكلام من المزية: «وإذا كان بينًا فى الشئ أنه لا

---

[١] انظر: السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٥٤.

[٢] الجرجانى، عبد القاهر: دلائل الإعجاز ، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٨٤، ص٢٦٢.

يحتمل إلا الوجه الذى هو عليه حتى لا يشكل، وحتى لا يحتاج فى العلم بأن ذلك حقه، وأنه الصواب، إلى فكر وروية، فلا مزية، وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل فى ظاهر الحال غير الوجه الذى جاء عليه وجهًا آخر»[1].

وقد كان علماء الأصول -كما قلنا- أكثر دقة، وأقرب إلى واقع الاستعمال فجعلوا تحت ما يطلق عليه الغربيون الأفعال الحرفية فروعًا، وحددوا المعنى الحرفى أو الأصلى تحديدًا دقيقًا، وبينوا أنواعه ووضعوا لكل منها مصطلحًا يميزه عن غيره[2]. فقد أطلقوا مصطلح "المحكم" على ما يدل بألفاظه على معناه الواضح الذى لا يقبل تأويلاً ولا تخصيصًا ولا نسخًا، ومنه قوله تعالى فى قاذفى المحصنات: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ وقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة»، ويجب العمل بما دل عليه وجوبًا قطعيًا، وهو يوافق الأفعال الحرفية أو المباشرة موافقة تامة. ومما يدل بألفاظه على معناه الواضح الذى لا يقبل التأويل ولا التخصيص -وإن احتمل النسخ- ما أطلقوا عليه مصطلح "المفسر" كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. فقد فسرت السنة مجمل كل منهما، لكن ظل له معناه الأصلى، ولا فرق بينه وبين المحكم إلا قبول النسخ.

وقد فطن علماء الأصول إلى نوع من الأفعال الكلامية يقصد به معناه الحرفى، لكن هذا المعنى الحرفى ليس الهدف من سوق الكلام بل الهدف معنى حرفى آخر، فالمعنيان مرادان، لكن أحدهما هو الهدف من سوق الكلام، ومنه

---

[1] الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٢٨٦.

[2] انظر فى تفصيل ذلك: د. طاهر حمودة: دراسة المعنى عند الأصوليين، ص ١٢٩ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ فهو صريح فى تحليل البيع وتحريم الربا، لكن ليس هذا هو الهدف من سوق الكلام، بل الهدف نفى المماثلة بين البيع والربا ردًا على الكفار الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾، وقد أطلق علماء الأصول على المقصود الأصلى من سوق الكلام مصطلح "النص" وعلى المقصود تبعًا مصطلح " الظاهر".

على أنهم عادوا فأطلقوا مصطلح "دلالة العبارة" على المتبادر فهمه من التركيب سواء أكان مقصودًا أصالة أم تبعًا.

أما الأفعال الكلامية غير المباشرة، وهى التى تدل هيئتها التركيبية على معنى لا يقصده المتكلم، فكأنه يقول شيئًا ويعنى شيئًا آخر، فقد أدرك علماؤنا منها نوعين: نوعًا لا يستلزمه الحوار، ونوعًا يستلزمه الحوار عادة، أما النوع الأول فيتمثل فى خروج الكلام عن مقتضى الظاهر أو عن أصل المعنى، وأصل المعنى هو المعنى الحرفى الذى تطابق نسبة الكلام فيه مقصود المتكلم، أو يكون ما قاله هو ما يعنيه. وليس من الممكن عندهم الوصول إلى ما خرج عن الأصل إلا بمعونة القرائن ومقامات الكلام، من ثم قد يكون من الأولى أن نطلق على هذا النوع من الأفعال الأفعال المقامية وقد بين عبد القاهر الجرجانى ذلك فى إيضاحه للكناية أبلغ بيان فقال: "فينبغى أن تنظر إلى هذه المعانى واحدًا واحدًا وتعرف محصولها وحقائقها، وأن تنظر أولا إلى الكناية، وإذا نظرت إليها وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها إثبات لمعنى، أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم "هو كثير رماد القدر" وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت إنه كلام جاء عنهم فى

المدح ولا معنى للمدح بكـثرة الرمـاد، فليس إلا أنهـم أرادوا أن يدلّـوا بكـثرة الرماد على أنه تنصب له القدور الكثيرة ويطبخ فيهـا للقـرى والضيافـة، وذلـك لأنه إذا كثر الطبخ فى القـدور كـثر إحـراق الحطـب تحتهـا، وإذا كـثر إحـراق الحطب كثر الرماد لا محالة[1].

ولعل السكاكى أهم من عرض للأفعال الطلبيـة التـى جـاوزت معناهـا الأصلى إلى معنى مقامى، فقد تجـاوز سـرد الأغـراض التـى يخـالف فيهـا ظـاهر اللفظ مراد المتكلم إلى بيان كيفية انتقال المعنى الأصلى إلى المعنى المقامى.

لقـد رأى السـكاكى أن المعـانى الأصليـة للطلـب خمسـة هـى التمنـى، والاستفهام، والأمر، والنهى، والنداء[2] (والتمنى - فيما أرى- ليس طلبًا، بـل هو تعبير عن رغبة تحوك فى النفس فهو داخل فى التعبيريات، أما النداء فلا يعدُّ فعلاً كلاميًا، لأنه لا يعـبر عـن قضيـة **proposition** أو لا يقـوم علـى الإسـناد، وتقديرهم لإسناد محذوف غير مقبول).

على أية حال لقد ذكر السكاكى أن الطلب بأنواعه يخرج عـن المعنـى الأصلى إلى المعنى المقامى حين يمتنع بقرائن الأحوال ومقامـات الكـلام إجـراؤه على الأصل فيتولد عنه معنى آخر يخالف المعنى الأصلى.

وقد أفاض الرجل فى بيان كيفية انتقـال المعنـى مـن الاستفهام- وهـو المعنى الأصلى- إلى معان مقامية، وأكثر من الأمثلة بحيث أصبح ما يريده شديد الوضوح، وهو يدرك أن المقام قد يمنـع إجـراء الاستفهام علـى أصلـه فيقتضـى المقام أن يتولد عنه تركيب آخر فى البنيـة الباطنـة، ثـم لا يلبـث أن يتحـول إلى البنية الظاهرة حاملاً معه المعنى المقامى، قال: «... أو إذا قلت لمن تراه لا ينزل:

---

[1] عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز، ص ٤٣١.

[2] السكاكى، مفتاح العلوم، ص ١٤٦.

ألا تنزل فتصيب خيرًا، امتنع أن يكون المقصود بالاستفهام التصديق بحال نـزول صاحبك لكونه حاصلاً، ويوجه بمعونة قرينة الحال إلى نحو: ألا تحب النزول مـع محبتنا إياه؟ وولّد معنى العرض. وكما إذا قلت لمن تـراه يـؤذى الأب: "أتفعـل هذا؟" امتنع توجيه الاستفهام إلى فعـل الأذى لعلمـك بحالـه، وتوجـه إلى مـا لا تعلم مما يلابسه من نحو: أتستحسن؟ وولّد معنـى الإنكـار والزجـر أو كمـا إذا قلت لمن يهجو أباه مع حكمك بأن هجو الأب ليس شـيئًا غـير هجـو النفـس: هل تهجو إلا نفسك؟ أو: غير نفسـك؟ امتنـع إجـراء الاسـتفهام علـى ظـاهره لاستدعائه أن يكون الهجو احتمل عنـدك توجهًـا إلى غـيره، وتولـد منـه بمعونـة القرينة الإنكار والتوبيخ. أو إذا قلت لمن يسىء الأدب: ألم أؤدب فلانًـا؟ امتنـع أن تطلب العلم بتأديبك فلانًا وهو حاصل، وتولّد منه معنى الوعيد والزجـر. أو كما إذا قلت لمن بعثت إلى مهم وأنـتِ تـراه عنـدك: أمـا ذهبـت؟ بَعُـد امتنـاع الذهاب عن توجه الاستفهام إليه لكونه معلوم الحـال، واستدعى شيئًا مجهـول الحال مما يلابس الذهاب مثل: أما يتيسر لـك الذهـاب؟ وتولـد منـه الاستبطاء والتحضيض أو إذا قلت لمن يتصلف وأنتِ تعرفه: ألا أعرفك؟ امتنعت معرفتـك به عن الاستفهام، وتوجـه إلى مثـل أتظننـى لا أعرفـك؟ وتولـد معنـى الإنكـار والتعجب والتعجيب، أو كما إذا قلـت لمـن جـاءك: أجئتنـى؟ امتنـع المجيء عـن الاستفهام وولد بمعونة القرينة التقرير»[1].

على أن السكاكى لم يقتصر فى ذلك على الاسـتفهام، بـل طـرده فـى كل أنواع الطلب، فقال فى بيان كيفية انتقال المعنى الأصلى للأمـر إلى المعنـى المقامى: "... أو كما إذا قلت لمن يدعى أمرًا ليس فى وسـعه: افعلـه، امتنـع أن

---

[1] السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٤٧.

يكون المطلوب بالأمر بيان عجزه، وتولد التعجيز والتحدى. أو كما إذا قلت لعبد شتم مولاه وأنك أدبته حق التأديب، أو أوعدته على ذلك أبلغ إيعاد: "اشتم مولاك" امتنع أن يكون المراد الأمر بالشتم والحال ما ذكر، وتوجه بمعونة قرينة الحال إلى نحو: اعرف لازم الشتم، وتولد منه معنى التهديد"[1].

وقال في النهى: «... أو كما إذا قلت لعبد لا يمتثل أمرك: "لا تمتثل أمرى" امتنع طلب ترك الامتثال لكونه حاصلاً، وتوجه إلى غير حاصل مثل: لا تكترث لأمرى، ولا تبال به، وتولد منه معنى التهديد»[2].

وكذلك فعل في التمنى والنداء.

أما النوع الثانى من الأفعال المقامية فهو الذى يستلزمه الحوار عادة فيرد فيه المخاطب على المتكلم بما لا يصح حرفيًا أن يكون ردًا عليه، ولا يمكن إدراك ذلك إلا بأنواع من الاستدلال يقوم بها المتكلم ليفهم ما رد به المخاطب. وقد يقع ذلك من المتكلم ومن المخاطب معًا فى حوار واحد، وتتفاوت مراحل الاستدلال بساطة وتعقيدًا بقرب ما يقوله المتكلم أو المخاطب مما يتوقعه الآخر من رد أو بعده عنه، فمن ذلك ما رووا من أن الفرزدق دخل البصرة يومًا وذهب إلى المربد فألفى غلامًا ينشد شعرًا جزلاً يشبه شعره، فقال له: يا غلام. هل كانت أمك تأتى إلى دمشق؟ فرد الغلام: بل أبى[3]" وليس من الممكن أن يكون الغلام قد رد هذا الرد إلا بعد أن مرت بذهنه سريعًا مراحل من الاستدلال انتهى بها إلى أن الفرزدق قصد التعريض بأمه، فما كان أن رد له اللطمة بمثلها فكان رده تعريضًا بأم الفرزدق. وليس من شك فى أن كل

---

[1] السكاكى : مفتاح العلوم، ص ١٤٧.

[2] السابق نفسه.

[3] د. عبد العزيز قلقيلة: البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربى- القاهرة ١٩٨٧، ص ١١٦.

النظريات اللغوية الشكلية تعجز عن تحليل هذا الحوار تحليلاً دلاليًا صحيحًا، فقصارى ما تستطيع هو تحليل المعنى الأصلى أو الحرفى، وهو غير مراد هنا قطعًا.

ومن ذلك أيضًا ما أطلق عليه السكاكى مصطلح " الأسلوب الحكيم" وقد حدده بقوله: «وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب كقول الشاعر:

أتت تشتكى عندى مزاولة القرى ... وقد رأت الضيفان ينحون منزلى

فقلت كأنى ما سمعت كلامها ... هم الضيف جدى فى قراهم وعجلى

أو السائل بغير ما يطلب كما فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ قالوا فى السؤال: ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثم يتزايد قليلاً حتى يمتلئ ويستوى، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ، فأجيبوا بما ترى. وكما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سألوا عن بيان ما ينفقون فأجيبوا ببيان المصرف»[1].

وقد ينزل سؤال السائل منزلة سؤال غير سؤاله لتوخى التنبيه له بألطف وجه إلى تعديه عن موضع سؤال هو أليق بحاله أن يسأل عنه، أو أهم له إذا تأمل.. «وهل ألان شكيمة الحجاج لذلك الخارجى، وسل سخيمته حتى آثر أن يحسن على أن يسىء، غير أن سحره بهذا الأسلوب؛ إذ توعده الحجاج بالقيد فى قوله: لأحملنك على الأدهم، فقال متغابيًا: مثل الأمير يحمل على

---

[1] السكاكى: مفتاح العلوم، ص ١٥٥- ١٥٦.

الأدهم والأشهب مبرزًا وعيده فى معرض الوعد، متوصلاً أن يريه بألطف وجه أن أمرأ مثله فى مسند الإمرة المطاعة خليق بأن يُصفد لا أن يَصفد، وبأن يعد لا أن يوعد»[1] .

على أنى أريد أن ألفت إلى أن ابن أبى الإصبع قد ذكر للاستلزام الحوارى مصطلحًا آخر غير ما ذكره السكاكى هو مصطلح "الحيدة" وقد عرفها بقوله: «وهو أن يجيب المسئول بجواب لا يصلح أن يكون جوابًا عما سئل عنه» وهو عين ما يقصدونه بالاستلزام الحوارى **conversational implicature** لكنه لم يقدم شواهد ولا أمثلة له[2]

وبعد فلعل فيما قدمت من فكر تراثى عربى أصيل ما يؤكد قدرة هذا التراث على المثاقفة والحوار مع بعض النظريات اللسانية المعاصر ندًا لند ونظيرًا لنظير، يفيد ويستفيد.

ولعل فيما قدمت أيضًا ما يقنع بأنه -مع شيء من الضبط المنهجى- يمثل نظرية عربية الوجه واللسان للأفعال الكلامية لا تزال فى حاجة إلى تضافر الجهود لإبرازها وإحكامها، ولعله يحفز إلى الكشف عن النظرية المقامية العربية التى تكمن خلفها.

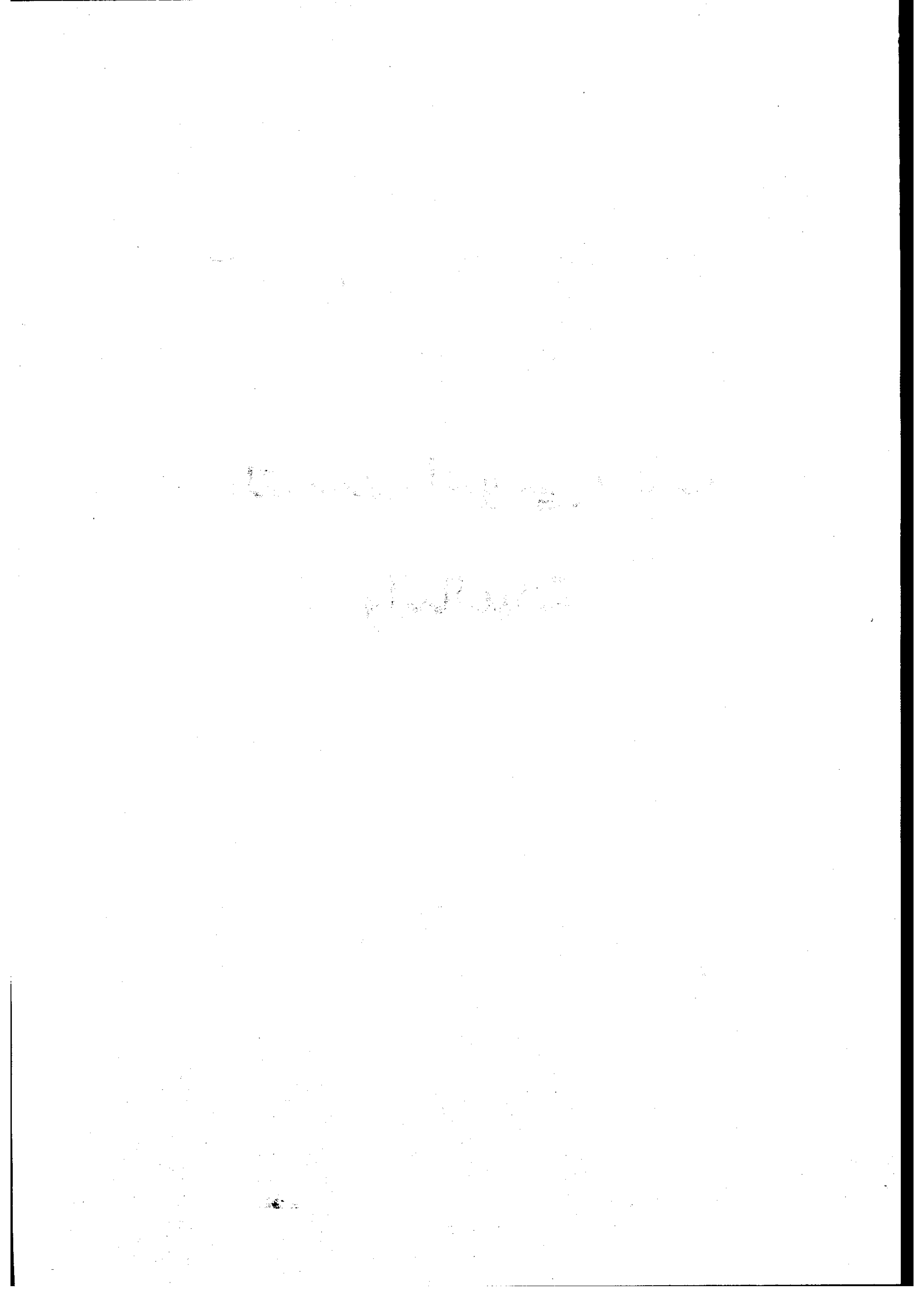
ولعل فيما قدمت أيضًا ما يحث على تجاوز ما نغرق فيه من جزئيات التراث التى تسد علينا كل منافذ الرؤية الشاملة إلى آفاق من التنظير أوسع وأرحب، وأكثر قدرة على التجديد والتطوير ومواكبة العصر الذى نعيش فيه. والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

---

(1) السكاكى : مفتاح العلوم، ص١٥٥ - ١٥٦.

(2) ابن أبى الإصبع المصرى: بديع القرآن ، تحقيق د. حفنى محمد شرف، ط٢، د.ت، ص ٢٨٢.

التصنيف النوعى للغات والعالميات



يقوم هذا البحث على دراسة جانبين متلازمين من جوانب نظرية اللغة قلّ فى الدرس اللغوى المعاصر أن يفترقا، أو أن يدرس أحدهما بمعزل عن الآخر، فهما جانبان لشيء واحد أو هما وجهان لعملة واحدة كما يقولون، ذانك هما التصنيف النوعى للغات language typology والعالميات universals[1].

والمقصود بالتصنيف النوعى للغات تصنيف لغات العالم أنواعا أو أنماطا types على أساس مما تختلف فيه كل لغة عن غيرها فى خواصها التركيبية أو تتفق فيه. وهذا الاختلاف أو الاتفاق ليس عشوائيا كما قد يسبق إلى الظن، ولكنه مرتبط بأسباب، ومحكوم بضوابط وقوانين يكشف عنها التصنيف[2].

والمراد بالعالميات السمات اللغوية المشتركة الكامنة تحت الاختلاف الظاهر بين اللغات، التى يكشف البحث التصنيفى عن تماثلها[3]، إضاءة لطبيعة اللغة البشرية human language وإدراكًا لعمل العقل البشرى، وإيضاحا للوحدة النفسية psychic unity عند البشر، واكتشافا لشبكة من

---

(1) Comrie, B.(1989) : Language Universals & Linguistic Typology. The University of Chicago Press. P.33,35 .
- Hockett, Ch.F. : The Problem of Universals in Language, in: Greenberg J.H. (ed)1973 : Universals of Language. The M.I.T press. P.61

(2) Comrie, B.: Linguistic Typology, in: Newmeyer, F.J. (ed.)1993: Linguistics : The Cambridge Survey. Vol.1 Linguistic Theory: Foundations. P.450
- Mallinson, G. & Blake, B.J. (1981) :Language Typology. North-Holland Publishing Company, Amesterdam. New York. Oxford. P.7
- Dressler, W.: Sprachtypologie, in:Althaus, H.P.Henne-H, Wiegand, H.E (Hrsg.)1980:Lexikon der Germanistischen Linguistik (LGL). Niemeyer Verlag-Tübingen. S.636

(3) Malmkjær, K.: Language Typology, in: Malmkjær, K. & Anderson, J.M. (eds) 1991 The linguistics Encyclopedia. London and New York. P.272

العلاقات بين اللغات ظاهرة وباطنة، وعونا على صوغ فروض علمية تقوى الحدس العلمي وتساعد عليه، ويمكن بها التنبؤ بظواهر لغوية يتعذر الوصول إليها بالبحث التاريخي أو المقارن[1] . كما يستطاع بها كشف الغموض الذى قد يكتنف بعض الظواهر اللغوية، فضلاً عن إسهام في ترسيس reconstruction اللغات الأمات proto- languages[2] .

وظاهر أن بين التصنيف النوعي للغات والعالميات علاقة وثيقة، ولا تعارض بينهما أو تداخل، بل هما متكاملان[3] . فإذا كان التصنيف النوعى قائمًا على الاختلاف بين اللغات فإنّ العالميات تقوم على ما بينها من تماثل[4] . والتصنيف النوعى شرط أساسي للقول بالعالميات.

والبحث فى العالميات وما يتصل بها من تحديد مفاهيم عالمية للمصطلحات والإجراءات أساس جوهرى لبحث تصنيفي واسع المدى. يقول هوكت : "القول بأن اللغات التى فيها السمة (أ) فيها أيضا السمة (ب) قول ينتمى إلى العالميات اللغوية التى تعدّ نوعاً من الفرض العلمى الناتج عن التحليل

---

(1) Greenberg, J.H. (1974) : Language Typology: A historical and analytic overview. The Hague-Paris. P.54-55.
- Dressler, W. (1980) . S.636
- Haarmann, H. Grundzüge der Sprachtypologie Kohlhammer Verlag. Stuttgart (1976). S.7
- Hockett, Ch.F. (1973). P.61
- Mallinson & Blake (1981). P.10

(2) Hopper, P.J.: Historical Linguistics: Typology and Universals, in: Bright, W. (ed.)1992: International Encyclopedia of Linguistics Oxford University Press. Vol.2. P.136-137.

(3) Comrie, B.(1989). P.33
- Crystal, D.(1989) : The Cambridge Encyclopedia of Language. Cambridge University Press. P.84

(4) Crystal, D. (1989). P.84

التصنيفى. ولهذا فان التصنيف النوعى شرط أساسى للقول بعالميات لغوية"[1] .

ويقول مالينسون وبليك : " البحث فى العالميات اللغوية يعد الآن الأساس الجوهرى للبحث التصنيفى واسع المدى، والبحث فى العالميات يتطلب أيضا دراسات تصنيفية لإنجازه عبر أوسع مدى من اللغات"[2] فلا غنى لأحدهما عن الآخر، ولا استقلال لأحدهما عن الآخر إلا أن يكون لغرض الدرس.

وقد غلا كومرى - وهو من الباحثين البارزين في هذا المجال - فرأى أن الدراسات التى تحمل عنواناتها ذكرا لأحدهما دون الآخر إنما تفصل بينهما فصلا متعسفا غير جائز[3] . ثم وقع هو نفسه. فيما أخذه على غيره[4] . والحق أن الفصل بينهما فى عنوانات بعض الكتب والدراسات لا يعنى أن أحدهما معزول عن الآخر أو يقوم دونه ، بل يعنى تسليط الضوء على أحد الجانبين دون إسقاط الآخر أو عزله ، وعلى أساس من هذا سوف يختص كل منهما فى هذا البحث بحديث.

التصنيف النوعى للغات :

ثمة عقبات تعترض طريق من يتصدى لتصنيف لغات العالم لعلّ أهمها ما يأتى :

أ ـ عدد اللغات :

لا يتفق الباحثون على عدد اللغات فى العالم الآن، ويرى أغلبهم أن عددها يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف، ومنهم من يقدر لها مدى أوسع

---

(1) Hockett, Ch.F. (1973). P.61

(2) Mallinson, G. & Blake, B.J. (1981). P.6

(3) Comrie, B. (1989). P.34

(4) Comrie, B. (1993). P.447

يتراوح بين ثلاثة آلاف، وعشرة آلاف[1] .

ونظر بعضهم إلى أن كثيرا من هذه اللغات لا يتكلمها إلا قلة قليلة من الناس تقدر ببضع مئات، وأن منها ما يواجه خطر الموت بسبب هجرة السكان إلى مواطن فقدوا فيها تراثهم الثقافى واستخدامهم المطرد للغتهم الأصلية، فرأوا أن عدد اللغات التى يعتد بها لا يتجاوز ثلاثة آلاف[2] . ومهما يكن من أمر فمن الصعوبة بمكان الإجابة القاطعة عن السؤال : كم لغة فى العالم الآن؟ ولهذه الصعوبة أسباب من الممكن إجمالها فيما يأتى :

١- التمييز بين اللغة واللهجة :

ليس من الميسور أحيانا القطع بأن جماعتين لغويتين تتحدثان لغة واحدة أو لهجتين للغة واحدة. فهل الصرب والكروات مثلا يتحدثون لغتين مختلفتين أو لهجتين للغة الواحدة ؟ بعبارة أخرى هل تعد الصربية لغة مختلفة عن الكرواتية ؟ وهل الهولندية Dutch التى يتحدثها الناس فى المناطق الواقعة على أطراف هولندا وألمانيا هى الهولندية التى يتحدثها الناس فى أمستردام ؟ أيهما تعد لغة مستقلة، وأيهما تعد لهجة من لهجات اللغات الألمانية ؟

لقد حاول اللغويون وضع معيار ينحل به هذا الإشكال، فارتضى كثير منهم ما أطلق عليه معيار الفهم المتبادل **mutual intelligibility** وجعلوا له القول الفصل فى التمييز بين اللهجات التى تنتمى إلى لغة واحدة، واللغات

---

(1) Fromkin, V. & Rodman, R. (1998) : An Introduction to Language. Harcourt Brace College Publishers. Orlando. P.477
- McArthur, T. (ed.) 1996 : The Oxford Companion to the English Language. Oxford University Press. New York. P.525
- Crystal, D. (1989). P.284

(2) O'Grady, W. –Dobrovolsky, M.- Katamba, F. (1996) Contemporary Linguistics. An Introduction. Longman London and New York. P.372
- West, F. (1975): The Way of Language. An Introduction. USA. P.42

التى يستقل بعضها عن بعض[1]. وبهذا المعيار يعدون إنجليزية لندن، وإنجليزية إدنبره، وإنجليزية كيب تاون، وإنجليزية سيدنى، وإنجليزية تورنتو، وإنجليزية ميامى لهجات للغة واحدة هى اللغة الإنجليزية، لأن أصحاب هذه اللهجات جميعا يفهم بعضهم بعضا. وبهذا المعيار أيضا يعدون إيطالية فلورنسا وفرنسية باريس لغتين مستقلتين، لأن أهل إحداهما لا يفهمون الأخرى. وبه أيضا يعدون الصربية والكرواتية لهجتين للغة واحدة يسمونها الصرب-كرواتية لما بين الناطقين بكل منهما من فهم متبادل، وبه أيضا لا يعدون الصينية لغة واحدة بل لغات منفصلة (الكانتونيزية، والمندرينية والهاكاوية...) ولكل منها لهجات متعددة[2]. وبه أيضا يعدون هولندية أمستردام وألمانية ميونخ لغتين مستقلتين، بل يعدون به اللهجة السعودية واللهجة المغربية لغتين مستقلتين لا لهجتين من لهجات العربية الفصحى[3].

على أن هذا المعيار اللغوى لا يسلم لهم، إذ تتصارع معه عوامل سياسية، وثقافية واجتماعية وتاريخية، ودينية، وعرقية حين لا تتطابق هذه العوامل مع معيار الفهم المتبادل، فالسويديون والدانمركيون والنرويجيون مثلا من الممكن أن يفهم كل منهم كلام الآخر على نحو يكثر أو يقل، لكن إذا تدخلت المعايير غير اللغوية أصبح لدينا خمس لغات على الأقل، مع أنهما بمعيار

---

(1) O'Grady, Dobrovolsky, Katamba (1996). P.372
- Fromkin & Rodman (1998). P.476
- West, F. (1975). P.45

(2) يرى بعض الباحثين أن هذه لهجات للصينية بالرغم من عدم تحقق معيار الفهم المتبادل بين المتحدثين بها؛ لما يجمع بينها من وحدة الثقافة، والسياسة، والنظام الكتابى. انظر
- Fromkin & Rodman (1998). P.477
- Crystal, D. (1989). P.285

(3) O'Grady et al (1996). P.373.

الفهم المتبادل لغتان اثنتان.وقل مثل ذلك فى اللغات التى ليس بينها إلا اختلافات لغوية قليلة كالهندية والأوردو، والفلمنكية، والهولندية Dutch والصربية والكرواتية، بل إن هذه العوامل قد تطغى على المعيار اللغوى فتعد لغات ليس بين الناطقين بها فهم متبادل لهجات للغة واحدة، واللهجات الثلاث لـLapp (فى شمال اسكندنافيا) مثل لذلك[1] .

٢ـ الاكتشافات :

لا يزال العلماء حتى يوم الناس هذا يكتشفون مناطق من العالم لم يكن لأحد علم بها، بخاصة فى حوض نهر الأمازون ووسط أفريقيا وأهل هذه المناطق يتحدثون لغات غير معروفة، لم يضعها اللغويون فى الحسبان حين أرادوا الوقوف على عدد اللغات فى العالم، ذلك بأن المسح اللغوى للغات العالم ليس شاملا حتى الآن، بل لم تتوفر إلا فى العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة معلومات كافية عن التصنيف المفصل للغات الأفريقية. ولا تزال لغات كثيرة فى أمريكا الجنوبية واستراليا غير معروفة إلى حد ما. وقد يظن أن أهل هذه المناطق يتحدثون لهجة من لهجات لغة معروفة، لكن البحوث الحديثة أثبتت أنها لغات جديدة مستقلة[2] .

٣ـ حياة اللغات وموتها :

تعد اللغة حية إذا كان لها أهل أحياء يتحدثونها فى الوقت الحاضر حديثا مطردا. وليس من السهل القول بأن أهل بعض اللغات أحياء أو

---

(١) Fromkin & Rodman (1998). P.476 f
- Crystal, D. (1989). P.248

(٢) O'Grady et al (1996). P.389
- McArthur (ed.) 1996. P.525

أموات ، فإذا كانوا أحياء فليس من الميسور القول بأنهم لا يزالون يستخدمون لغتهم استخدامًا مطردًا أو لا[١] .

وعلى الرغم من أن العلماء اكتشفوا مناطق من العالم لم يكونوا على علم بها، ووجدوا أهل هذه المناطق يتحدثون لغات غير معروفة لهم فقد تبين لهم أن كثيرا من هذه اللغات يموت سريعا بسبب القرارات السياسية أو الإغراءات الاقتصادية أو الأمراض الوبائية. وقد سجل الباحثون سنة ١٩٦٢ أن الناطقين بالترومای Trumai المستخدمة فى إحدى قرى فنزويلا نقص عدد مستعمليها بسبب وباء الأنفلونزا إلى أقل من عشرة أشخاص، كما لحظوا أن اللغات الهندية فى البرازيل، وكانت فى القرن التاسع عشر تقدر بأكثر من ألف لغة، انخفض عددها الآن إلى أقلّ من مائتين[٢] .

ب ـ قاعدة البيانات :

يعتمد اللغويون فى تصنيفهم للغات على قاعدة بيانات data base تشمل وصفا للغات التى يرغبون فى تصنيفها من المفترض فيه أن يكون دقيقا وشاملا، وهذا الوصف يتاح لهم من خلال مصادر أولية primary sources ومصادر ثانوية secondary sources ورواة informants[٣] .

أما المصادر الأولية فالمقصود بها كتب النحو التى تصف نظام لغة من اللغات، وهذه الكتب إما شديدة الاختصار فلا تشمل كل الظواهر، وإما

---

(١) Crystal, D. (1989). P.284
- McArthur (ed.) 1996. P.525

(٢) Crystal, D. (1989). P.284

(٣) Mallinson & Blake (1981). P.12 f

شديدة الاتساع والتفصيل فلا يطيق الباحثون الصبر عليها والإحاطة بها، ناهيك عن اهتزاز الثقة فيما تقدمه بعض كتب النحو من وصف يتسم أحيانا بالخلط والاضطراب والتناقض. وثمة أمور أخرى تؤثر في دقة الوصف والثقة به، منها : أن يكون الباحث ابناً للغة أو لا يكون، وأن يكون جمعه للمادة اللغوية التي يصفها جمعاً من مصادر أصيلة أو وسيطة ، وأن يكون للبحث هدف سابق يسعى إلى تحقيقه أو لا يكون[1] .

وأما المصادر الثانوية فالمقصود بها المصادر التي تأخذ أخذاً مباشراً عن مصادر أصيلة، فيكون لها من القيمة العلمية ما لتلك المصادر، لكن المشكل أنّ عدداً منها يأخذ عن مصادر قديمة تجاوزها البحث العلمي، وبعضها لا يأخذ عن مصدر أصيل أخذاً مباشراً، بل يكون بينه وبين المصدر الأصيل مراجع ثانوية عديدة، وقد اجترح بعض الباحثين هذا الإثم الذي نتج عنه تأريث أخطاء كثيرة ، ومن هؤلاء كينان Keenan (سنة ١٩٧٨ ب ص ١٨٥) الذي أخذ مادة دراسته عن دالابون Dalabon، وأخذها هذا عن كومري Comrie (١٩٧٨ ص ٣٨٦ — ٣٨٧)، وأخذها كومري عن سلفرشتاين Silverstein (١٩٧٦ ص ١٢٩)، وأخذها سلفرشتاين عن كابل Capell (١٩٦٢) وهو المصدر الأصيل[2] .

ولعل أفضل المصادر جميعا المصدر الأخير وهو الرواة informants، وقد زاد اعتماد الباحثين على الرواة الأحياء زيادة كبيرة بعد أن زاد عدد المهاجرين واللاجئين والدارسين والباحثين من جنسيات مختلفة ولغات شتى وأخذ اللغويون منذ وقت بعيد يستثمرون وجود هؤلاء في وصف لغات أخرى

---

(١) Ibid, P.14

(٢) Ibid, P.15

غير اللغات الأوروبية التى قتلت بحثا.وبرغم ما يستخدمه الباحثون من وسائل متقدمة فى تسجيل المادة اللغوية ووصفها فإن هذه المادة تتعرض فى بعض الأحيان لأخطاء الملاحظة errors of observations وأخطاء المبالغة فى التعميم over- generalization، وأخطاء تتعلق بالعينات أو النماذج التى يجرى عليها البحث sampling errors فضلاً عن توجيه الاهتمام إلى سمات بعينها، أو الخطأ فى إرجاع بعض الظواهر إلى أصل مشترك common parentage[1] .

ج ـ منهج الوصف :

من المشكلات المنهجية أن بعض الباحثين الذين يعمدون إلى وصف لغات ماتت أو انقرضت قد يستخدمون فى ذلك معايير وصفت بها لغة حية يعرفونها فيسقطون عليها تصورات وقواعد جاهزة مستنبطة من لغة أخرى، ويضعونها فى إطار نظرى لا يناسبها[2] . وقد كان العكس صحيحا أيضاً فى مرحلة مبكرة من الوصف اللغوى، إذ كانوا يصفون لغات حية كالإنجليزية وصفا مقيساً على وصف لغة ماتت كاللاتينية. وغنى عن الذكر أن لهذا أثره فى صحة الوصف ودقة النتائج.

د ـ العلاقات بين اللغات :

يتجاهل بعض الذين يصفون اللغات ما بين أصحابها من علاقات ثقافية واجتماعية وتاريخية تترك آثارها فى اللغات بدرجات متفاوتة قد تؤثر فى دقة الوصف. فقد تختلف لغتان تنتميان تاريخيا إلى أصل واحد اختلافاً بينا، وقد تتقارب لغتان تقاربًا شديدًا من دون أن تنتميا إلى أصل واحد، هذا فضلاً

---

(1) Bell, A. : Language Samples, in : Greenberg (ed.) 1978: Universals of Human Language. Vol.1 Method & Theory. Stanford University Press, Stanford, California. P.126 f

(2) Mallinson & Blake (1981). P.14-15

عن أن التقارب والاختلاف لا يكون فى الظواهر اللغوية علـى درجـة واحـدة، فقـد تختلف اللغتان مثلا اختلافـا بينا فـى الظواهـر النحويـة، وتتفقــان اتفاقـاً ظاهرًا فى الظواهر الفونولوجية أو يحدث العكس. وقد يكون التقـارب شـديداً فى الثروة اللفظية فتقترض إحدى اللغتين ألفاظاً كثيرة من الأخرى مــن دون أن يكون التقارب على هذا النحو فـى غيرهـا مـن المستويـــات اللغوية[1] وليـس من الميسور فى بعض الأحيان إرجاع التماثل بـين اللغـات إلى نمـط تركيبــى، أو أصل وراثى، أو امتداد إقليمى[2] .

علـى أن هـذه العقبـات لم تصـرف البـاحثين عـن السّـعى الحثيـث إلى تصنيف ما استطاعوا الوقوف عليه من لغات العالم محاولين تذليل الصعوبـات ، واقتحام العقبات، وحل المشكلات قدر الطاقة بإيجاد المعايير التى تكفل لهـم دقة الوصف والتصنيف قـدر المستطاع ، فقدمـوا لنـــا ثلاثـة أنـواع أساسـية مــن التصنيف هـى التصنيف الجينى أو الوراثــى genetic والتصنيف الاقليمـى areal والتصنيـف اللغـوى linguistic[3] . وسـوف نعـرض الآن إن شــاء الله لهــذه الأنواع موجـزين الحـديث فـى النوعين الوراثى والإقليمى ومفصلين القول فــى التصنيف اللغوي، وهـو المراد بالتصنيف النوعى عند الإطلاق.

---

(١) Crystal, D. (1989). P.294

(٢) Comrie, B. (1993) P.449

وانظر: ج. فندريس: اللغة. تعريب عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصــاص (القـاهرة ١٩٥٠) ص٣٦١-٣٦٣

(٣) ثمة تصنيفات أخرى لم يرتضها العلماء أهمها التصنيف العرقي "الإثنولوجي" ، وصاحب هـذا التصنيـف هو فريدريش ملرFriedrich Müller، فقد صنـف اللغـات على أساس المميزات العرقيـة للشعوب الناطقة بها كتجعد الشعر أو ملاسته. وقد رأى فندريس أنـه تصنيـف شـديد الغرابة، ولا يثبت على التمحيص؛ لأنه ليس هناك ارتباط بين اللغة والمميزات العرقية، وكل محاولة للربط بينهما لا طائل مــن ورائها. (فندريس: اللغة ص ٢٩٨).

التصنيف الوراثي genetic classification :

يرجع تاريخ البحث المنهجي في العلاقات بين اللغات التي يعتقد أنها تنحدر من أصل واحد إلى أواخر القرن الثامن عشر، وقد صادف تطبيقه على اللغات الهندية ـ الأوروبية قبولا واسعا شجع الباحثين على تطبيقه على مجموعات أخرى من اللغات، فأخذوا يقارنون بين مجموعات منها على نحو منتظم ومفصل للكشف عما بينها من تماثل يسوغ القول بانحدارها من أصل واحد[1] . من هنا ظهر ما يسمى التصنيف الوراثي للغات على أساس من نسبها أو أصلها descent ، فاللغات التي تطورت عن لغة أمّ تتجمع معاً، ويقال إنها ذات صلة وراثية[2] . هذه اللغة الأمّ قد تكون لغة تاريخية استعملت فعلاً في مرحلة زمنية بعينها، ومن ثم يستدل عليها من خلال الوصول إلى النصوص المكتوبة بهذه اللغة، كما هي الحال في اللغة اللاتينية، وقد تكون مفترضة يستدل عليها بالترسيس reconstruction كما هي الحال في اللغات الأمات التي لم يعثر لها على نصوص أو شواهد كاللغة الهندية الأوروبية الأم واللغة السامية الأم. واللغات التي تنحدر من لغة أم سواءٌ أكانت تاريخية أم مفترضة تسمى لغات شقيقة cognate language، فالعربية والحبشية والآرامية، مثلاً، لغات شقيقة لانحدارها من السامية الأم، والبرتغالية والإسبانية والإيطالية لغات شقيقة لانحدارها من اللاتينية وهي لغة تاريخية[3] .

---

(١) Crystal, D.(1989). P.292

وانظر: رمزي بعلبكي : فقه العربية المقارن. دراسات في أصول العربية وصرفها ونحوها على ضوء اللغات السامية. دار العلم للملايين- بيروت ١٩٩٩ ص ٢٤.

(٢) O'Grady et al (1996). P.373

(٣) Ibid.

- رمزي بعلبكي: فقه العربية المقارن ص ٢٤.

ولعل أول من مهد السبيل لهذا النوع من البحث فى القرن الثامن عشر الباحث الإنجليزى آدم سميث Adam Smith ، وعليه اعتمد الأخوان فريدرش وأوجست فيلهلم شليجل فى وضع علم اللغة التاريخى والمقارن فى بداية القرن التاسع عشر[1] .

لقد نشط البحث المقارن بين اللغات فى القرن التاسع عشر بعد اكتشاف اللغة السنسكريتية، وكان فريدرش شليجل أول من طالب بجعل اللغة السنسكريتية منطلقا للمقارنات اللغوية[2] .

واستطاع فرانتس بوب Franz Bopp (١٧٩١-١٨٦٧) فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يقارن بين اللغات الهندية الأوروبية متتبعا مراحلها التاريخية فى محاولة لاستخلاص خصائص اللغة الهندية الأوروبية الأم التى انحدرت منها هذه اللغات[3] .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نزع البحث اللغوى إلى إخضاع اللغة إلى ما تخضع له العلوم الطبيعية وصولا إلى استخراج نظمها ، وقوانينها، ومراحل تطورها تأثرًا بنظرية داروين فى نشوء الكائنات الحية وتطورها.

وكان شلايشر Schleicher (١٨٢١ - ١٨٦٨) الذى تخصص فى العلوم البيولوجية معجبا بنظرية داروين فحاول نقل التفسير التطورى للكائنات الحية إلى اللغات ، وقد نظر فرأى علماء النبات يصنفون النباتات فى أسر

---

(1) Dressler, W. : (1980). S.637

(2) محمود فهمي حجازي: أسس علم اللغة العربية (القاهرة١٩٧٩) ص ١٢٨-١٢٩.

(3) السابق نفسه.

- وانظر: رمزي بعلبكي (١٩٩٩) ص ١٨-١٩.

اعتماداً على ما بينها من تماثل فى البنية والخصائص، فانتهج هذا النهج فى مقارنة اللغات[1] . ثم شاع هذا النوع من تصنيف اللغات حتى عدّ تصنيف اللغات فى أسر على أساس ما بينها من علاقات جينية أو وراثية أشهر طرائق تصنيف اللغات[2] .

ولعلّ أشهر أسرة لغوية هى الأسرة الهندية الأوروبية. وعلى الرغم من أنها تشتمل على نحو مائة لغة فهى لا تعدّ أسرة كبرى بالنظر إلى العدد الكلّى للغات العالم ، لكنها على كل حال كبرى الأسر اللغوية فى العالم من حيث عدد المتكلمين بها، إذ يبلغ نحو بليونى متكلم بها من أهلها[3] ولما كان بعض لغاتها أقرب إلى بعضها من بعض فقد كونت اللغات المتقاربة فروعا لهذه اللغة بلغت تسعة هى : الجرمانى، والسلتى، والرومانسى، والهللينى، والألبانى، والأرمينى، والبلطيقى، والسلافى ، والهندى الإيرانى[4] .

وثمة أسر لغوية أخرى كثيرة[5] . منها الأسرة الأفريقية الآسيوية وهى أسرة كبرى موجودة فى شمال أفريقيا وشرقها وجنوب غرب آسيا، وهى تشتمل على نحو مائتين وخمسين لغة يتحدث بها نحو مائتى مليون، ويعتقدون أن اللغة الأم التى انحدرت منها هذه اللغات وجدت فى الألف السابع قبل الميلاد، ولها فروع هى : الفرع السامى، وهو صاحب أطول تاريخ وأكبر عدد من المتكلمين، واللغة الكبرى فيه هى اللغة العربية التى يستخدمها لغة أولى نحو

---

(1) محمود فهمى حجازى (١٩٧٩) ص١٢٩.

(2) Comrie, B. (1993). P.447

(3) O'Grady et al (1996). P.391

(4) Ibid.

- Crystal, D. (1989). P.298

(5) انظر فى تفصيل ذلك الفصول ٥٠، ٥١، ٥٢ المعقودة لأسر اللغات فى :

Crystal, D. (1989). P.292-352

مائة وخمسين مليونا فضلاً عن عدد آخر مـن الملايين يستخدمونها لغـة ثانيـة، وفرع المصرية القديمة التى يعود تاريخها إلى الألف الثـالث قبـل الميـلاد، والفـرع البربرى الذى يبلغ عدد لغاته نحو عشرين لغة يتحدث بها فى شمال أفريقيـا نحـو اثنى عشر مليونا. والفرع الكوشى الذى يبلغ عدد اللغـات فيه نحو ثلاثـين لغـة يتكلمها نحو ثلاثة ملايين، والفـرع التشـادى ، وتصنيفـه فـى الأسـرة الأفريقيـة الآسيوية لا يتسم بالوضوح الكامل، وأهم لغاته الهوسا التـى يتحـدث بهـا نحـو خمسة وعشريـن مليونا بوصفها لغة أولى، وملايين عديدة بوصفها لغة ثانية[1] .

وعلى الرغم من أن اللغويين نجحوا فى تصنيف آلاف من لغات العـالم فى أسر فلا يزال هناك لغات كثيرة ليس من الممكن تصنيفها فـى أى مـن هـذه الأسر، لأنها لا تمت بصلة تاريخية أو تركيبية لأية لغة أخرى، وقد أطلقـوا علـى هذا النوع مـن اللغـات مصطلـح اللغـات المعزولـة **language isolates** كلغـة الباسك **Basque** التى يتكلمها الناس فى شمال إسبانيا وفى الجنوب الغربـى مـن فرنسا وكالسومرية من اللغات المنقرضة[2] .

وقـد حـاول العلمـاء فـى السنوات الأخيرة أن يضمـوا بعـض الأسـر المتقاربـة إلـى بعض ليكونـوا ما أسمـوه الأســرة الكبـرى **phylum** أو **macro family** كالأسرة التى أطلقوا عليهـا الأسـرة الأوروبيـة الآسـيوية **euroasiatic**، ولا تزال هذه المحاولات موضع خلاف حتى الآن، لأنها تتحدى الصيغ المستقرة فى علم اللغـة[3] .

---

(1) Ibid, P.316
- Fromkin & Rodman (1998). P.477
- محمود فهمى حجازى (١٩٧٩) ص ١٣٣

(2) O'Grady et al (1996). P.407
- Crystal, D. (1989). P.326

(3) O'Grady et al (1996). P.408.

ومـن الجديـر بالذكـر أنّ بعض اللغويين حذر مما يحمله مصطلح "أسرة لغوية" من إيحاء بأن اللغات كالأسر فعلاً من حيث الانتساب ودرجات القرابة. وقد وقع فى هـذا الشرك بعض علمـاء اللغة الذين تناسوا ما فـى هذا المصطلـح من مجاز فأخذوا يضعون قوائم بأنساب اللغات، واستباحوا القول بأن اللاتينيـة مثلا ولدت الفرنسية والإيطالية، وتكلموا من ثـم عن اللغات الأمات واللغـات البنات واللغات الأخـوات، وبنـات الخالات مـن اللغات[1] . وكلها فيما يرى فندريس: " مصطلحات سيئة لأنها تعطى فكرة زائفة عن علاقة اللغات بعضهـا ببعض، إذ لا شـئ من الشبه بين قرابـة اللغـات وبـين التتـابع أو التوالـد بـالمعنى الفسيولوجى لهذه المصطلحات"[2] .

ويرى " أننا إذا قلنـا إنّ الفرنسية قد خرجت من اللاتينية فمعنى ذلـك أن الفرنسية هى الصورة التى صارت إليها اللاتينية خلال العصور فـى إقليم من الأقاليم، وإذن فليست الفرنسيـة فـى كثير من الوجوه إلا اللاتينية نفسها"[3] .

التصنيف الإقليمى : areal classification

يقوم التصنيف الإقليمى للغات على رصد ما بينها من تمـاثل نـاتج عـن تجاورها فى نطـاق إقليمى أو جغرافى واحـد، وليـس مـن الممكـن إرجاعـه إلى أصل تاريخى ثابت، أو القول بأنه من قبيل المصادفة[4] .

وليس من شك فى أن التجاور المكـانى يؤدى إلى أنـواع مـن التبـادل الثقافى بين الشعوب المتجاورة، لابدّ أن تترك آثارها فـى لغاتها ثم لا تلبث هذه

---

(١) Fromkin & Rodman (1998). P.474

(٢) ج. فندريس : اللغة ص٣٦٧

- Crystal, D. (1989). P.292

(٣) Ibid.

(٤) Dressler, W. (1980). S.636

- Comrie, B. (1989). P.205

الآثار أن تصبح ظواهر لغوية تميز إقليما بعينه تمييزا لغويا عن غيره من الأقاليم. وقد تأخذ هذه الظواهر فى البداية صورة الاقتراض اللغوى الذى لا يقتصر على الألفاظ، بل يتجاوزها إلى الصيغ والتراكيب، وربما تجاوز ذلك كله إلى ما أسماه هومبولت الصيغة اللغوية الداخلية innere Sprachform ويعنى بها القوانين اللغوية الباطنة التي ترسم قوانين الفكر[1] .

وإذا كان فقهاء اللغة قد وضعوا للدلالة على اللغات التى تنحدر من أصل لغوى واحد مصطلح الأسرة اللغوية language family فقد تبنوا المصطلح الألمانى الاتحاد اللغوى Sprachbund للدلالة على اللغات التى تستخدم فى نطاق إقليمى أو جغرافى واحد، وتشترك فى ظواهر لغوية ليس من المستطاع إرجاعها إلى أصل وراثى. وقد شاع استعمال هذا المصطلح فى لغته الألمانية فى المراجع اللغوية غير الألمانية لما لم يجد الباحثون فى الإنجليزية أو غيرها مصطلحاً أدل منه على المراد[2] .

ولعل أبرز مثل للإقليم اللغوى هو الاتحاد اللغوى فى البلقان Balkan Sprachbund [3] . وتتألف نواته من أربع لغات هى اليونانية الحديثة، والألبانية، والبلغارية، والرومانية.وهذه اللغات الأربع هى فى الحقيقة هندية أوروبية لكنها من فروع مختلفة؛فاليونانية الحديثة تنتمى إلى الفرع الهللينى، والألبانية تمثل فرعا مستقلا ، والبلغارية تنتمى إلى الفرع السلافى، على حين

(١) Dressler, W. (1980). S.637

- Bussmann, H. (1983) Lexikon der Sprachwissenschaft. Kröner Verlag. Stuttgart. S.212

(٢) Comrie, B. (1989). P.204

(٣) ثمة اتحادات لغوية أخرى كتلك التى فى شبه القارة الهندية، وجنوب شرق آسيا، وأمريكا الجنوبية.انظر:

- Mallinson & Blake (1981). P.17

- رمزى بعلبكى (١٩٩٩) ص ٢٣.

أن الرومانية تنتمى إلى غصن subbranch من الفرع الإيطالى، وهى تشترك فـى عدد من السمات ليس من الممكن ردها إلى أصل وراثى. فاليونانية الحديثة مثلا تشترك مع اللغات البلقانية فى سمات تختلف اختلافاً بيناً عن اليونانية القديمة، والبلغارية فيها سمات تشيع فى اللغات البلقانية وتخالف اللغات السلافية الأخرى، وقل مثل ذلك فى الألبانية والرومانية[1] . ولما كان لهذه اللغات شواهد تاريخية ودراسات مقارنة مع لغات أخرى ليست داخلة فى الاتحاد اللغوى البلقانى، فإننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أى السمات ترجع إلى الأصل الوراثى وأيها يرجع إلى الأثر الإقليمى[2] .

على أن من اللازم التنبيه إلى أن من الممكن أن نجد فى العالم لغات تظهر فيها الخواص اللغوية التى تميز الاتحاد اللغوى البلقانى، لكنها لا تعدّ عضوا فيه لأنها تفتقر إلى التجاور المكانى[3] .

التصنيف النوعى (= اللغوى) Typological classification :

يقوم التصنيف النوعى للغات على أساس من تماثلها فى الخواص التركيبية structural charachteristics تماثلاً يميز كل صنف منها عن آخر دون نظر إلى انتمائها إلى أصل تاريخى واحد، أو امتداد مكانى محدد[4] .

---

(١) Comrie, B. (1993). P.448
- Comrie, B. (1989). P.205
- Mallinson & Blake (1981). P.17

(٢) Comrie, B. (1989). P.205

(٣) Comrie, B. (1989). P.51

(٤) Comrie, B. (1993). P.449
- Hopper, P.J. (1992) Vol.2. P.136
- Dressler, W. (1980). P.636
- O'Grady et al (1996). P.374

وإذا كان التصنيف الوراثي يقوم على رصد ما بين اللغات من علاقات تاريخية أدت إلى تماثلها فى سمات لغوية بعينها، وإذا كان التصنيف الإقليمي يقوم على معرفة ما للامتداد الجغرافي من أثر فى لغات متجاورة أدت إلى تماثل بينها فى سمات لغوية معينة، فان التصنيف النوعى يجعل السمات اللغوية هى أساس التصنيف، وبهذا تدخل فيه لغات تنتمى إلى أصل واحد، ولغات لا تنتمى إلى أصل واحد، وتدخل فيه أيضا لغات متجاورة ذات امتداد جغرافى واحد، ولغات متباعدة لا تشملها مساحة جغرافية واحدة[1] وهو بذلك أعم من النوعيين السابقين وأشمل لهما إذ هو متحرر من قيود الزمان والمكان، لا يتقيد بانتماء تاريخى ولا امتداد مكانى، بل يتسع ليشمل السمات المتماثلة التى تشيع فى لغات العالم جميعا، وبه تصبح العالميات اللغوية ظاهرة للعيان. من ثم قد يكون من الغريب أن يقرر رمزى بعلبكى أن المنحى الوراثى أو التكوينى ـ كما آثر أن يسميه ـ هو الأصل، والنوعى هو الفرع[2] ، ولعله نظر إلى أقدمهما نشأة فجعله أصلا، وجعل أحدثهما فرعا[3] . لكن العلاقة بينهما لا تفهم فى ضوء الأصلية والفرعية.

ويعتمد البحث التصنيفى على استقراء لغات العالم للوقوف على السمات التى تستحق الاهتمام من حيث بروزها، وقيمتها اللغوية وشيوعها لتكون أساس التصنيف النوعى. وهو يقوم على افتراضين سابقين : أحدهما أن

---

(١) Mallinson & Blake (1981). P.5
- Greenberg, J.H. (1974). P.56

(٢) رمزي بعلبكي (١٩٩٩) ص٢٣.

(٣) ذكر جرينبرج أنّ أول من استخدم مصطلح "Typology" بمعنى التصنيف اللغوي للغات هم لغويو مدرسة براغ في المؤتمر الأول لفقهاء اللغة السلافونية المقام سنة ١٩٢٨. انظر :
- Greenberg, J.H. (1974). P.13

بين اللغات سمات مشتركة من الممكن الوقوف عليها بمقارنة بعضها ببعض، والثانى أن بين بعض اللغات اختلافات فى الخواص والسمات تسوغ تصنيفها فى أنماط ، فلولا هذه الاختلافات لصارت كلها نمطا واحدا أو لغة واحدة[1].

والتصنيف الناجح هو الذى يزودنا بأكبر قدر من السمات تتميز به لغات عن لغات[2] .

أما كيفية التصنيف فقد تكون بإحدى ثلاث كلها مقبول عند الباحثين[3] :

الأولى : مقارنة عدد محدود من اللغات للوقوف على السمات المشتركة بينها، ثم اختبار تحقق كل سمة منها فى أكبر عدد من اللغات.

الثانية : مقارنة أكبر عدد ممكن من اللغات بعضها ببعض للوقوف على السمات الأربع التى تشيع فيها جميعا، وتحديدها، واختبار صدق النتائج.

الثالثة : وضع احتمالات منطقية للتصنيف، ثم النظر فيما يتحقق منها فى اللغات وما لا يتحقق، وقد ضرب كومرى أمثلة لذلك منها سمة استخدام الضمائر المنعكسة فى اللغات. فرأى أن ثمة احتمالات أربعة :

١ـ استخدام ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب جميعا استخداما انعكاسيا.

٢ـ استخدام ضمائر المتكلم والمخاطب دون الغائب استخداماً انعكاسيا .

٣ـ استخدام ضمائر الغائب دون المتكلم والمخاطب .

---

(١) Comrie, B. (1993). P.449

(٢) Hockett, Ch.F. (1973). P.62

(٣) Comrie, B. (1989). P.34 f
- Dressler, W. : (1980). S.313

٤ـ عدم استخدام الضمائر استخداماً انعكاسيا لأى من المتكلم والمخاطب والغائب.

وقال كومرى : "وعندما توزع اللغات على هذه الأنماط الممكنة منطقيا فإننا سوف نجد عددا ضخما من اللغات يحقق الاحتمال الأول والاحتمال الثانى، والاحتمال الرابع، لكننا لن نجد لغة تحقق الاحتمال الثالث"(١) .

على أن من الممكن أن تكون أية سمة لغوية فى لغة من اللغات منطلقاً للتصنيف اللغوى بشرط أن يؤدى هذا التصنيف إلى بيان قيمة من قيم التركيب اللغوى، فقد يجوز مثلا أن نصنف اللغات على أساس ما فيها من تقابل صوتى voice opposition أو خلوها منه، ففى نظام الصوامت فى الإنجليزية والروسية واليابانية أمثلة لوجود هذا التقابل، وفى الكيشوية Quechua، والهاوائية Hawaiian والديربالية Dyrbal (وهى لغة السكان الأصليين فى استراليا) أمثلة للغات التى تخلو من هذه الظاهرة. وعلى الرغم من أن هذا يبدو تصنيفا جيّدا فاللغويون لا يرتضونه، لأنه لا يقدم شيئا مفيداً لتحليل التركيب اللغوى(٢) .

ويطمح علماء التصنيف النوعى إلى التمكن من مقارنة أنظمة لغوية كاملة بأنظمة لغوية كاملة، ولكنهم لا يزالون يعملون من خلال أنظمة فرعية subsystems على أساس من معايير تصنيفية محددة إلى أن يتمكنوا من تحقيق هذا الطموح(٣) .

---

(١) Comrie, B. (1989). P.34

(٢) Comrie, B. (1993). P.450

(٣) Dressler, W. (1980). S.636

ونريد أن نلفت إلى ما بين المنهج المقارن والمنهج التقابلى والمنهج التصنيفى من فرق، فالمنهج المقارن يقارن بين لغات من أصل واحد وصولا إلى ترسيس اللغة الأم، والمنهج التقابلى يقابل بين لغتين لتحديد جوانب الصعوبة فى تعلم إحدى اللغتين[1] . أما المنهج التصنيفى فيقارن بين اللغات لكى يصل إلى الظواهر أو السمات المشتركة بين لغات العالم ولكل منها وسائله لبلوغ الهدف الذى يسعى إليه.

وسوف نعرض الآن لأهم ما قدموه من تصنيف للغات على أساس من أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية :

أولا: النظام الصوتى :

تضع فسيولوجية أعضاء النطق الإنسانى حدودا لأنماط الأصوات اللغوية التى يمكن إنتاجها، وتضع فيسولوجية الأذن ومراكز الاستقبال فى المخ حدودا لأنماط الأصوات التى يمكن استقبالها فى خطاب متصل بوصفها وحدات صوتية متميزة سمعيًا وفونولوجيًا[2] ، وذلك مما يجعل الوقوف على النظام الصوتى فى اللغة الإنسانية ممكنا، ويجعل تصنيف اللغات على أساس من خواصها الصوتية ميسورًا.

وعلى الرغم من أن تصنيف اللغات على أساس من أنظمتها الصوتية لم يلق عناية كافية من الباحثين[3] فقد قدموا لنا أنواعا منه ، منها ما هو خاص بالفونيمات فوق القطعية **suprasegmental** ومنها ما هو خاص بالفونيمات القطعية **segmental**، ولعلّ أشهر تصنيف من النوع الأول هو تصنيف اللغات

---

[1] محمود فهمي حجازي (١٩٧٩) ص ٣٤، ٤٠.

[2] Robins, R.H. (1978): General Linguistics. An Introductory Survey. Longman. Hong Kong, P.336

[3] McArthur, T. (ed.). 1996 . P.561

إلى لغات نغمية Tonal languages ولغات غير نغمية non-tonal languages على أساس مما تقوم به طبقة الصوت voice pitch من وظيفة فونولوجية تتغير بها معانى الكلمات وتتحدد بها بعض فصائلها النحوية أو لا تقوم[١] ففى الإنجليزية لا بأس أن تنطق كلمة cat مثلا بنغمة عالية أو منخفضة، صاعدة أو هابطة، إذ يظل معناها ثابتا لا يتغير ، فالإنجليزية بذلك ونحوه لغة غير نغمية[٢] . أما إذا قامت النغمة بدور فى تغيير معنى الكلمة وتحديد فصيلتها النحوية فى لغة من اللغات فهى لغة نغمية، ففى الصينية المندرينية (وهى اللغة الرسمية) مثلاً معنى ma إذا نطقت بنغمة مستوية level tone " أُمّ " ومعناها إذا نطقت بنغمة صاعدة rising tone " قنب" ومعناها إذا نطقت بنغمة هابطة صاعدة dipping tone "حصان" وتصبح إذا نطقت بنغمة هابطة falling فعلاً معناه "وبّخ"[٣] .

واللغات النغمية كثيرة فى العالم، فثمة أكثر من ألف لغة نغمية فى " أفريقيا " وحدها، وكثير من اللغات الوطنية فى أمريكا نغمية، وثمة كثير منها فى آسيا، ومنها الصينية والفيتنامية، والتايلاندية[٤] .

وثمة تصنيف آخر مثير للاهتمام قدمه جيل Jil سنة ١٩٨٦ على أساس إحصائى، فقد صنف اللغات صنفين[٥] :

---

(١) Robins, R.H. (1978). P.274

(٢) Fromkin & Rodman (1998). P.240 f

(٣) McArthur, T. (ed.) 1996. P.562

(٤) Fromkin & Rodman (1998). P.241
- Richards, J.C. –Platt, J. – Platt. H. (1993) : Dictionary of Language Teaching & Applied Linguistics. Longman. Singapore. P.382

(٥) Payne, J.R. : Language Universals and Language Types, In: Collinge, N.E. (ed.) 1990 An Encyclopedia of Language. Routledge. Great Britain. P.314 f

لغات ذات إيقاع صاعد iambic languages، ولغات ذات إيقاع هابط trochaic، فالإيقاع الصاعد يعتمد على نبر ضعيف متلوّ بنبر قوى، والإيقاع الهابط على العكس يعتمد على نبر قوى متلوّ بنبر ضعيف، وقد قارن بين الصنفين فانتهى إلى ما يأتى :

١- اللغات ذات الإيقاع الصاعد تحتوى على عدد من المقاطع أكثر مما تحتوى عليه اللغات ذات الإيقاع الهابط.

٢- اللغات ذات الإيقاع الصاعد بنيتها المقطعية أبسط من تلك التى فى اللغات ذات الإيقاع الهابط.

٣- اللغات ذات الإيقاع الصاعد فيها توازن نبرى stress–timed، إذ يتوزع فيها النبر على مدد زمنية تكاد تكون متساوية فى تباعدها، على حين أن اللغات ذات الإيقاع الهابط فيها توازن مقطعى syllable–timed.

٤- اللغات ذات الإيقاع الصاعد فيها أصوات غير رنينية non-sonoraint (انفجارية، ومزجية، واحتكاكية) أكثر مما فيهما من الرنينية. واللغات ذات الإيقاع الهابط على العكس، فيها من الأصوات الرنينية أكثر مما فيها من الأصوات غير الرنينية.

٥- اللغات ذات الإيقاع الصاعد لغات نغمية ، على حين أنّ اللغات ذات الإيقاع الهابط غير نغمية.

واللغة التركية أقرب أن تكون ذات إيقاع صاعد، واللغة الإنجليزية أقرب أن تكون ذات إيقاع هابط.

وتصنف اللغات على أساس من نوع النبر فيها هل هو نبر ثابت fixed stress أو غير ثابت، فتصنف اللغات إلى لغات ذات نبر ثابت وهى التى يمكن التنبؤ فيها بمواقع النبر ، وإلى لغات ذات نبر حرّ free stress وهى التى

لا يمكن التنبؤ فيها بمواقع النبر، بل ينبغى معرفته فى كل كلمة على حدة. ومن لغات النوع الأول الفرنسية التى يقع النبر فيها دائما على المقطع الأخير من الكلمة، والبولندية والسواحيلية اللتان يقع النبر فيهما على المقطع قبل الأخير من الكلمة، والتشيكية والفنلندية اللتان يقع النبر فيهما دائما على المقطع الأول من الكلمة. ومن لغات النوع الثانى الروسية[1] .

أما النوع الثانى وهو الخاص بالفونيمات القطعية فتصنف اللغات فيه على أساس من نظام الصوائت فيها ونظام الصوامت، ثم توزيع الصوامت والصوائت فى بنية مقطعية، وذلك على النحو الآتى :

نظام الصوائت :

لما كان نظام الصوائت فى لغات العالم يتألف من عدد يمكن حصره من الصوائت القصيرة فقد اتخذ منه الباحثون أساساً للتصنيف النوعى للغات[2] .

ولعل أهم دراسة فى هذا المجال هى الدراسة التى قدمها جون كروذرس John Crothers عن التصنيف النوعى لأنظمة الصوائت والعالميات معتمداً على " عينة " نموذجية من اللغات تجمع جمعاً متوازناً بين التصنيفين الوراثى والإقليمى أنجزها مشروع ستانفورد لأرشفة الفونولوجى Stanford Phonology Archiving Project ، وشملت حتى كتابة البحث مائتى لغة وتسعًا[3] . وقد اقتضى عمله فى هذه المادة اللغوية الضخمة أن يسقط

---

(١) O'Grady et al (1996). P.379

(٢) Ibid, P.375

- Crothers, J. : Typology and Universals of Vowel Systems, In: Greenberg, J.H. (1978): Universals of Human Language. Stanford University Press, Stanford, California. Vol.2 Phonology. P.95 ff

(٣) Crothers, J. (1978). P.95

الفونيمات الهامشية marginal التي يقل ترددها في العينة أو ينـدر. وقـد استخلص الرحل منهـا اثنى عشر تصنيفا كـل منهـا مؤسس على عـدد الصوائت المستخدمة في اللغات ونكتفى هنا بأن نذكر منهـا أنماطـا سـتة هـى أكثر شيوعـاً، وتمثل نحو ٨٠٪ من اللغات فـى العينة[1] .

١- لغـات ذات نظـام ثلاثي، وله صورة واحدة هى :

/ i a u / وتمثله فى العينة ثلاث وعشرون لغة.

٢- لغـات ذات نظام رباعـى، وله صورتان، الأولى منهما

/ i ɛ a u / وتحققها ثلاث عشـرة لغـة، والثانيـة / i i a u /

وتحققها تسع لغـات، فالمجمـوع أثنتان وعشـرون.

٣- لغات ذات نظام خماسى، ولـه صورتان الأولى منهمـا / i ɛ a u ɔ /

وتحققها خمس وخمسـون لغـة، والثانيـة / i ɛ ɨ a o / وتحققها خمس لغات، فالمجموع ستون.

٤- لغـات، ذات نظام سداسى، وله صورتـان الأولـى منهمـا / i e ɛ u o ɔ //

وتحققها سبع لغات، والثانية/ i ɛ ɨ a u o / وتحققها تسع وعشرون لغة، فالمجموع ست وثلاثين.

٥- لغـات ذات نظـام سبـاعى، و لـه صورتـان أساسيتـان، الأولـى

/ i e ɛ a u o ɔ / وتحققهـا إحـدى عشرة لغة، والثانية / i e ɨ ə a u o /

وتحققها أربع وعشـرون، فالمجمـوع خمس وثلاثون.

٦- لغات ذات نظام تساعى[2] ، وله صورة أساسية واحدة هى :

/ i e ɛ ɨ ə a u o ɔ / وتحققـه سبع لغـات .

---

(١) Ibid, P.104

(٢) Ibid, P.104

(انظر الرسم البيانى الذى يبين عدد اللغات التى يستخدمها كل نظام) ص١٠٥ من المرجع السابق.

وقد أظهر تحليل كروذرس لهذه الأنظمة نتائج تصلح أن تكون أساسا لصياغة عالميات لغوية منها[1] :

١ـ النظام الخماسى أكثر هذه الستة شيوعاً، ومن الممكن أن يعدّ النمط الأساسى للغات العالم، وهذا أمر أكده باحثون آخرون[2] .

٢ـ كل اللغات فيها الصوائت / i a u / .

٣ـ اللغات ذات النظام الرباعى فيها /i/ أو / ɛ /.

٤ـ اللغات ذات النظام الخماسى فيها /ɛ/ وفيها بصفة عامة أيضا / ɔ /

٥ـ اللغات ذات النظام السداسى فيها/ ɔ /وفيها بصفة عامة أيضا / i /.

٦ـ اللغات ذات النظام السباعى فيها / e o / أو / ə i / .

٧ـ اللغات ذات النظام التساعى فيها بصفة عامة / o / .

٨ـ التقابل بين نوعيات الصوائت الخمسة الأساسية هو المعتاد فى اللغة البشرية، وأكثر الأنظمة شيوعا هى تلك التى تقترب من هذا العدد من الصوائت الأساسية.

٩ـ عدد الصوائت الأنفية مساوٍ أو هو أقل من عدد الصوائت الفموية.

١٠ـ ثمة نزوع إلى أن تكون الصوائت المرتفعة والمنخفضة فى نظام الصوائت القصيرة أقرب إلى المركزية من نظيرتها من الصوائت الطويلة.

وقد ذكر باحثون آخرون أن العربية تنتمى إلى النظام الثلاثى[3] وأن بعض لغات اريزونا تنتمى إلى الرباعى[4] ، واللاتينية إلى الخماسى، والإيطالية إلى السباعى، والإنجليزية إلى التساعى[5] .

---

(١) Ibid, P.115

(٢) O'Grady et al (1996). P.375

(٣) رمزى بعلبكى (١٩٩٩) ص٣٢.

(٤) السابق نفسه.

(٥) O'Grady et al (1996). P.375

ومن النتائج التى توصل إليها بعض الباحثين أن الفونيم الصائت الأكثر شيوعا هو / a / وهو يستخدم فى كل اللغات تقريبا، ويليه فى الشيوع الصائتان / i / و / u /[1] .

ومن الباحثين من ذكر أنّ اللغات تصنف أيضا بناءً على أنماط التقابل بين الصوائت كالشفوى فى مقابل الأنفي، والطويل فى مقابل القصير، فالإنجليزية مثلا فيها تقابل بين الصوائت الشفوية لكن ليس فيها تقابل بين الصوائت الأنفية والصوائت الفموية، والفنلندية فيها تقابل بين الصوائت الطويلة ، والسواحيلية فيها تقابل بين الصوائت القصيرة / u o a e i / لكن ليس فيها تقابل بين الصوائت الطويلة والقصيرة[2] .

وقد تصنف اللغات أيضا على أساس من بساطة الصائت وتركيبه، ومن علوه وانخفاضه، ومن كونه أماميا أو خلفيا أو مركزيا، ومن استدارة الشفتين عند النطق به أو انبساطهما[3] .

نظام الصوامت :

غير ممكن تصنيف اللغات على أساس من عدد الصوامت فيها ــ كما كانت الحال فى الصوائت ــ ذلك بأن عدد الصوامت فى اللغات شديد التفاوت، إذ هو فى بعض اللغات لا يزيد على ثمانية صوامت، ويزيد فى بعض آخر على تسعين ، ففى اللغة المسماة كونج Kung - وهى لغة مستعملة فى ناميبيا - يصل عدد الفونيمات الصامتة إلى ستة وتسعين فونيما[4] . وإنما

---

(١) Ibid, P.376

(٢) O'Grady et al (1996). P.376 f

(٣) Robins, R.H. (1978). P.340

(٤) O'Grady et al (1996). P.377

تصنف اللغات على أساس من مخارج الفونيمات أو مواضع نطقها، وصفاتها الصوتية، وما تختص به لغات عن لغات من تنوعات فى هذين الجانبين تميزها عن غيرها.

وقد ظهر من تحليل اللغات أنها تشترك جميعا فى المخارج الأساسية : الشفوية، والأسنانية، واللثوية، والحنكية، وفى الصفات الصوتية الأساسية كالجهر والهمس، والانفجار والاحتكاك، والأنفية والشفوية ، لكنها تتميز بتنوعات تتمثل فى عدد المخارج، والعمليات المميزة لكل نظام[1] ، فالصوامت الانفجارية والأنفية فى الإنجليزية مثلاً تقع فى نظام يتكون من ثلاثة مخارج هى الشفوى bilabial واللثوى alveolar، والطبقى velar، وثلاث عمليات هى الهمس، والجهر، والأنفية[2] :

/p/	/t/	/k/
/b/	/d/	/g/
/m/	/n/	/ŋ/

على حين أن لها فى اليونانية القديمة نظاماً يتكون من ثلاثة مخارج هى : الشفوي، والأسنانى dental، والطبقى، وأربع عمليات هى أنها مجردة من الهائية unsapirated ، وهائية aspirated، ومجهورة voiced وأنفية nasal [3] :

/p/	/t/	/k/
/p^h/	/t^h/	/k^h/
/b/	/d/	/g/
/m/	/n/	/ŋ/

---

(١) Robins, R.H. (1978). P.338

(٢) Ibid, P.340

(٣) Ibid.

والإنجليزية الفصحى لا يظهر فيها أى استعمال متميز للتهميز glottalization على النحو الذى يستخدمه الناطقون بالكوكنى cockney مثلاً[١] ، ولا يظهر فى الإنجليزية (ولا العربية) أى استعمال متميز للصوامت القذفية ejective، ولكن المعتقد أنها كانت فى السامية الأم بدليل وجود بقايا منها فى الحبشية، وهذا الاعتقاد قد يفسر تحول القاف فى الفصحى إلى همزة فى بعض العاميات[٢] .

وتصنف اللغات بناء على ما فيها من صوامت مجهورة ومهموسة، فأغلب اللغات فيها النوعان، لكن بعض اللغات فى شمال اليابان ليس فيها إلاّ صوامت مهموسة، وأغلب اللغات فيها فونيمات احتكاكية، لكن بعض اللغات ليس فيها فونيمات احتكاكية كتلك التى فى شمال استراليا والجنوب الشرقى من السودان[٣] . وهناك لغات فيها صوامت مزجية affricates كالإنجليزية والألمانية والعربية، ولغات تخلو منها كالفرنسية[٤] .

وقد أظهر التصنيف النوعى للغات أن أشيع الفونيمات الانفجارية هى الفونيمات / p, t, k / ، وأن قليلا من اللغات تفتقر إلى واحد من هذه الصوامت الثلاثة. وليس هناك لغة تفتقر إلى هذه الثلاثة جميعا ؛ فإذا فقدت لغة واحداً منها فالأغلب أن يكون / p / كما فى (العربية) والنوبية، وأكثرها استخداما هو الفونيم / t / ، وأن أشيع الصوامت الاحتكاكية هو / s / ، وبعض اللغات تفتقر إليه، فإذا كان فى بعض اللغات فونيم احتكاكى واحد

---

(١) Ibid, P.338

(٢) رمزى بعلبكى: (١٩٨٠) معجم المصطلحات اللغوية. دار العلم للملايين- بيروت ص١٦٧.

(٣) O'Grady et al (1996). P.378

(٤) Ibid.

فالأغلب أن يكون / s / كبعض اللغات المستخدمة فى كينيا، والفونيم الذى يليه فى الشيوع هو / f /[1]

وقد أظهر الصتنيف النوعى أيضاً أن كل لغة معروفة فيها فونيم أنفى واحد على الأقل، فإذا لم يكن فى بعض اللغات إلا فونيم أنفى واحد كان /n/، فإذا كان فيها فونيمان أنفيان متقابلان كانا/ m / و / n /[2] .

وأظهر التصنيف النوعى أيضاً أن أغلب اللغات فيها على الأقل فونيم مائع liquid واحد. وقليل منها يخلو من هذا النوع من الأصوات كبعض اللغات المستخدمة فى نيجيريا وإكوادور[3] .

وتصنف اللغات على أساس من أنماط التركيب المقطعى المسموح بها، فبعض اللغات تنحو نحو البساطة فى تراكيبها المقطعية كاللغة الفيجية Fijian مثلا، وبعضها يتميز بدرجة عالية من التعقيد فى البنية المقطعية كبعض اللغات القوقازية، وبينهما لغات تقترب من هذا النمط أو ذاك ؛ من أجل ذلك اقترح بعض الباحثين أن ترتب اللغات على مقياس scale على أساس من درجة البساطة أو التعقيد فى بنيتها المقطعية، فتكون اللغة ذات الدرجة العالية من التعقيد فى جهة منه يتلوها أو يعلوها لغات أقل فأقل حتى نصل إلى اللغة ذات الدرجة العليا فى بساطة التركيب المقطعى فتكون فى أقصى الجهة الأخرى من المقياس[4] .

وتصنف اللغات أيضًا على أساس ما تسمح به بنيتها المقطعية من

---

(1) O'Grady et al (1996)., P.377

(2) Ibid, P.377

(3) Ibid. P.377

(4) Robins, R.H. (1978). P.339 f

عناقيد الصوامت فى بداية المقطع ونهايته، فبعض اللغات كالإنجليزية تسمح بأن ينتهى المقطع بصوت أنفى يليه صوت انفجاري، كما فى hand مثلا، لكن ليس من المسموح به أن يبدأ المقطع بهما، على حين أنه فى السواحلية مسموح بأن يبدأ المقطع بصامت أنفى متلوّ بانفجارى كما فى كلمة ndizi (موز) لكنه ممتنع فى نهاية المقطع، لأن المقاطع فى السواحلية تنتهى بالصوائت[1] . وفى اللغة العربية لا يجوز أن يبدأ مقطع بصامتين متتاليين، ولا بصائت، ولهذا حين تستعار كلمة أجنبية تبدأ بصامتين فإن العربى غير المدرب على النطق الأجنبى يضع بينهما صائتا، أو يجعل أحدهما نهاية مقطع والآخر بداية مقطع آخر[2] ومثل ذلك يحدث فى لغات أخرى، فحين استعارت الهاوائية Hawaiian عبارة Merry Christmas أصبحت Mele Kalikimaka، لأن هذه اللغة تخلو من فونيمى / r / و / s /[3].

ثانيا : النظام الصرفى :

يعدّ تصنيف اللغات على المستوى الصرفى أقدم أنواع التصنيف النوعى، وأقربها إلى الضبط والشمول[4] . ولعلّ أهم من مهّد الطريق له فى القرن الثامن عشر الباحث الإنجليزى آدم سميث Adam Smith الذى سبق إلى التمييز بين اللغات التحليلية analytic واللغات التأليفية synthetic، وقد اعتمد عليه فى بداية القرن التاسع عشر الأخوان فريدريش

---

(1) Ibid, P.379

(2) أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوى (القاهرة ١٩٧٦) ص١٥٨.

- محمد على الخولى: الأصوات اللغوية (الرياض١٩٨٧) ص١٨٠-١٨١.

(3) O'Grady et al (1996). P.379

(4) Malmkjær (1990). P.272

وأوجست فيلهلم شليجل اللذان يرجع إليهما وضع علم اللغة التاريخي والمقارن في ألمانيا وأوروبا[1] ، وقد استطاع أوجست فيلهلم شليجل أن يطور أفكار أخيه فريدريش فاقترح تقسيماً ثلاثيا لأنماط التصنيف لا يزال مقبولاً حتى الآن[2] :

أ ـ لغات تخلو من أية تراكيب وظيفية تعدّل جذور الكلمات، كالصينية التى لا تتغير فيها جذور الكلمات تغيرا داخليا، ولا تضاف إليها الزوائد.

ب ـ لغات تستخدم الزوائد بأن يضاف إلى الجذور الثابتة فيها زوائد ثابتة الصيغة كالباسك واللغات الهندية الأمريكية.

جـ ـ لغات متصرفة تعدّل فيها جذور الكلمات تعديلاً داخليا سواء أضيفت إليها زوائد أم لم تضف كاللغات الهندية الأوروبية الكلاسيكية ومنها اليونانية واللاتينية والسنسكريتية، وبعض اللغات الأوروبية الحديثة كلغات المجموعة الرومانسية.

وقد أضاف همبولت من بعد إلى هذا التقسيم نمطا رابعا أطلق عليه اللغات الدمجية incorporating، وأطلق على الأنماط التى قدمها شليجل مصطلحاتها التى لا تزال تعرف بها إلى اليوم وهى[3] :

أ ـ اللغات العزلية	isolating
ب ـ اللغات اللصقية	agglutinating
ج ـ اللغات التصريفية	inflectional
د ـ اللغات الدمجية	incorporating

---

(1) Dressler, W. (1980). P.636

(2) - Payne, J.R. (1990). P.315
Payne, J.R. (1990). P.316

(3) Ibid, P.318

وعلى الرغم من أن هناك محاولات أخرى ظهرت لتصنيف اللغات على نحو يخالف فى قليل أو كثير تقسيم شليجل وهمبولت ، وعلى الرغم من أن النحويين الجدد Neo-Grammarian لم يعتدوا بهذا النوع من التصنيف، ورأوا أن التصنيف العلمي الحق هو التصنيف الوراثى[1] ، فإنّ هذا التصنيف لا يزال أهم تصنيف، ولا تكاد تجد باحثاً يعرض للتصنيف النوعى من الناحية الصرفية إلا كانت له به عناية ودراية، ولهذا سوف أوجز القول فى كل قسم، ثم أشير إلى بعض المحاولات الأخرى.

١- اللغات العزلية :isolating (وقد يطلق عليها مصطلح اللغات التحليلية analytic أو الجذرية root languages)[2] :

وهى اللغات التى تتكون الكلمات فيها من مورفيم جذرى واحد له معنى meaning واحد أو وظيفة نحوية grammatical function ولا تدخلها الزوائد afixes ، و لا تتغير الكلمات فيها بتغير الحالة الإعرابية، ولا تتغير صيغة الفعل عند التعبير عن الشخص أو العدد أو الزمن، وليس فيها نهايات إعرابية ending، وتعتمد فى بيان العلاقات النحوية فيها على الكلمات الوظيفية (وأكثرها أحادى المورفيم) وعلى ترتيب الكلمات فى التركيب[3] . ومن هذا النوع من اللغات الصينية المندرينية، والكانتونية، والفيتنامية،

---

(1) McCarthy, A.C. (1992) : Current Morphology Routledg, London and New York. P.166
- Malmkjær (1990). P.373

(2) Crystal, D. (1989). P.293

(3) O'Grady et al (1996). P.380
- Comrie, B. (1993). P.451
- West, F. (1975). P.119

- رمزى بعلبكى (١٩٩٩) ص٣٣.

والكمبودية، ولغات عديدة فى جنوب شرق آسيا[1].

ويرى بعض الباحثين أن الإنجليزية أيضا من هذا النوع[2] ، وربما كانت الصينية أقربها جميعا إلى النمط النموذجى[3] .

٢- اللغات اللصقية agglutinative/ agglutinating :

وفيها تتكون الكلمات من جذور ثابتة وزوائد تلتصق بها، لكل منها معناها المحدد ووظيفتها الثابتة، ومن الممكن تقطيعها وفصل بعضها عن بعض، وهى تعتمد على هذه الزوائد الثابتة فى بيان العلاقات بين الكلمات، وإن كان من الصعب التمييز فيها بين الزوائد الاشتقاقية derivational والزوائد التصريفية inflectional، ومن الممكن فيها أن تلتصق الزوائد الاسمية أو الفعلية بأى جذر ؛ لأن جذور الكلمات فيها لا تدل على نوع الكلمة ولا على فصيلتها الكبرى، وليس فيها جناس بين الزوائد أو ترادف، والمطابقة النحوية فيها مفقودة، ونظام الجملة صارم، وتستخدم المصدر واسم الفاعل واسم المفعول بدلا من الجمل الفرعية، وتكاد تخلو من حروف الربط[4] ومن هذا النوع من اللغات التركية، والفنلندية، واليابانية، والسواحيلية، والمنجارية، والجورجية، والباسك، ولغة الإسكيمو[5] .

---

(١) O'Grady et al (1996). P.380
- West, F. (1975). P.119

(٢) West, F. (1975). P.119

(٣) Ibid.

(٤) McCarthy, A.C. (1992). P.167
- Mallinson & Blake (1981). P.20

(٥) Crystal, D. (1989). P.451
- Mallinson & Blake (1981). P.20
- Dressler, W. (1980). P.318
- McCarthy, A.C. (1992). P.167

٣ـ اللغات التصريفية **inflecting / inflectional** (ويطلق عليها أيضا اللغات التأليفية **synthetic** واللغات الصهرية **fusional**) :

ويعبّر فيها عن الوظائف والعلاقات النحوية بتعديل التركيب الداخلي للكلمات، واستخدام النهايات المتصرفة، وتشير فيها الزوائد إلى فصائل نحوية متعددة تزامنيا **simultaneously** ، فقد تشير لاحقة واحدة في وقت واحد إلى فصيلة الجنس، (مذكر، مؤنث، محايد) وإلى فصيلة العدد (مفرد، مثنى، جمع)، وإلى الوظيفة النحوية (مسند إليه، مفعول به... الخ)، وليس من الممكن تقطيع الزوائد في هذا النمط من اللغات. وثمة مجانسة بينها، والمطابقة النحوية شائعة في هذا النمط من اللغات، ونظام الجمل فيها حرّ، والجمل الفرعية مستخدمة فيها[1] ، وتعدّ اللاتينية واليونانية والعربية من هذا النوع من اللغات[2] .

٤ـ اللغات الدمجية : **polysynthetic / incorporating** :

أضاف همبولت هذا النمط ليكون جامعاً للغات الهندية الأمريكية التي تتكون الكلمات فيها من سلسلة طويلة من الجذور والزوائد لتعبر غالباً عن المعاني التي تعبر عنها جملة كاملة ومن هذا النوع من اللغات لغة الإسكيمو التي تسمى **Greenlandic Eskimo** وبعض اللغات الأسترالية[3].

---

(١) O'Grady et al (1996). P.380
- Comrie, B. (1993). P.402
- رمزي بعلبكي (١٩٩٩) ص ٣٣.

(٢) Crystal, D. (1989). P.293
- Comrie, B. (1993). P.452
- O'Grady et al (1996). P.380

(٣) Comrie, B. (1993). P.452
- Mallinson & Blake (1981). P.21
- Crystal, D. (1989). P.293

على أن من اللغويين من لا يعتد بهذا النمط، ويعده داخلاً في نمط اللغات اللصقية، بيد أن اللصق فيها بلغ أقصى مداه[1]. وثمة بعد ذلك أمران ينبغي اللفت إليهما :

أولهما: أن بعض الباحثين أطلق على هذه الأنماط أحكاماً قيمية فزعم أن النمط العزلي نمط بدائي Primitive، وأن النمط اللصقي أكثر تطوراً منه، أما النمط التصريفي فهو أكثر تطوراً منهما معا، وواضح أنه زعم لا يثبت على التمحيص[2] .

والثاني: أنه ليس في العالم لغة تنتمي انتماءً كاملا إلى أي نمط من هذه الأنماط ولكن التصنيف بني على ما غلب عليها ولست تعدم أن تجد في لغة واحدة أمثلة لهذه الأنماط جميعًا[3] من أجل ذلك قدم بعض اللغويين اقتراحا، بأن تصنف اللغات تصنيفًا مورفولوجيا من خلال نظام الرتبة rank system فترتب اللغات على أساسٍ من درجة اقترابها من النمط أو ابتعادها عنه[4] .

وجدير بالذكر أن جرينبرج قدم سنة ١٩٦٠ محاولة للتصنيف الموفولوجي إلى هذه الأنماط الأربعة على أساس إحصائي، فأخذ قطعة من نص من كل لغة وعدّ ما فيها من مورفيمات وكلمات، وانتهى إلى أنّ الأغلب في اللغات العزلية أن تتكون الكلمة فيها من مورفيم واحد وأن اللغات اللصقية تستخدم مورفيمات مقيدة أكثر من استخدام اللغات التصريفية لها. والثمرة

---

(١) Mallinson & Blake (1981). P.21

(٢) Ibid.

(٣) McCarthy, A.C. (1992). P.167

- West, F. (1975). P.122

(٤) West, F. (1975). P.122

الواضحة لهذه المحاولة أن التصنيف قام على أساس إحصائى منضبط بعد أن كان قائماً على التقدير الحدسى intuitive[1] .

وثمة محاولة أخرى لتصنيف اللغات من الوجهة الصرفية لا تزال - على الرغم من قدمها - تلقى قبولاً من الباحثين حتى اليوم هى محاولة فرانتس نيكولاوس فنكس Franz Nicolaus Finchs التى قدمها سنة ١٩٠٩، وقد صنف اللغات فيها إلى ثمانية أنماط[2] .

١- لغات معزولة الجذوع : Wurzelisolierend :

والكلمات فيها جامدة لا يمكن تقطيعها، وليس فيها ما يدل على انتمائها إلى فصيلة نحوية بعينها،ولا تقوم الزوائد فيها بوظيفة اشتقاقية، ويقوم ترتيب الكلمات فيها ببيان الوظائف النحوية، ومن هذا النمط اللغة الصينية.

٢- لغات معزولة الجذور stammisolierend :

وتقوم فيها الزوائد بوظيفة اشتقاقية مثل Fish–er ، لكنها زوائد ثابتة الصيغة لا تتصرف بتصرف المواقع النحوية، وهى تضاف إلى جذر ثابت. واللغة السموانية مثل لهذا النوع من اللغات، وتعدّ الإنجليزية أقرب إلى هذا النمط.

٣- لغات تفريعية subordinierend :

وتبدو فيها العلاقة واضحة بين الصيغة والوظيفة، إذ تتلاصق فيها الزوائد، وكل زائدة منها تقوم بوظيفة محددة، ومن الممكن فصلها عن غيرها، ومن هذا النوع اللغة التركية والمنجارية.

---

(١) Mallinson & Blake (1981). P.22

(٢) Dressler, W. (1980). S.637

٤ـ لغات تتابعية anreihend :

ونظام ترتيب الكلمات فى جملها غير ثابت، وتقوم الزوائد فيها بتحديد الفصائل النحوية، وبيان العلاقات بينها، ومن هذا النوع اللغة السواحيلية.

٥ـ لغات متصرفة الجذوع wurzelflektierend :

وفيها تتصرف الكلمات تصرفا داخليا للتعبير عن الفصائل أو الصيغ المختلفة، ومن هذا النوع اللغات السامية، ففى اللغة العربية مثلاً تتصرف الجذوع من خلال تغيير الحركات.

٦ـ لغات متصرفة الجذور Stammflektierend :

وفيها تذوب الزوائد الدالة على التصرف والاشتقاق بحيث لا يمكن أن تتبين حدوداً واضحة بين الصيغة form والوظيفةfunction. ويمكن القول أن أغلب اللغات الهندية الجرمانية من هذا النوع، ومنها اليونانية الحديثة، ويرى رمزى بعلبكى أن اللغة العربية من هذا النوع بما هو أغلب عليها من غيره[1] .

٧ـ لغات متصرفة المجموعة الكلمية : gruppenflektierend:

وفيها تدخل الزوائد التصريفية Flexionsaffixe ـ خلافا للغات متصرفة الجذور ـ كل كلمات المجموعة الكلميةWortgruppe المترابطة. ومن هذا النمط اللغة الجورجية، ولغات قوقازية أخرى.

٨ـ لغات دمجية incorporierend :

وفيها تضم إلى الفعل عناصر نحوية كثيرة خاصة بالجملة بوصفها زوائد. ومن هذا النمط بعض لغات الإسكيمو. واللغة الفرنسية أقرب إلى

---

[1] رمزى بعلبكى (١٩٩٩) ص ٣٣.

هذا النمط ففيها يمكن أن تعد je ne l'entends (pas) كلمة واحدة سبق الفعل فيها بثلاث زوائد.

وثمة طرائق أخرى للتصنيف النوعي منها طريقة طورها فنكس أيضاً، وهي تقوم على تصنيف اللغات على أساس ما تخصصه من عناصر لغوية للعناصر السياقية، فاللغة الصينية مثلا تخصص لكل عنصر سياقي عنصرا لغويا، والتركية تخصص عنصراً لغويا لعنصرين سياقيين، والإنجليزية تخصص لعناصر السياق عناصر لغوية أكثر منها عدداً، فإذا أردنا مثلاً أن نعبر عن سياق يتمثل في مجيء رجل فالصينية تقول ما يماثل هو آتٍ. والتركية تقول geliyor والإنجليزية تقول He is coming.

وبناء على هذا التفاوت تصنف اللغات ابتداءً من اللغة التي تخصص عنصراً لغويا واحداً لأقل من عنصر سياقي واحد كاليونانية، وانتهاء باللغة التي تخصص عنصراً لغويا واحداً لعدد من العناصر السياقية كلغة الإسكيمو، وبينهما تقع الصينية[1] .

ويرى رمزى بعلبكى أنّ العربية موقعها بحسب هذا التصنيف بين لغة الإسكيمو والصينية، تشاركها في هذا الموقع التركية والجورجية[2] .

ثالثا : النظام النحوى :

في سنة ١٩٦٣ نشر جرينبرج – J. Greenberg بحثًا عنوانه :

Some Universals of Grammar with Particular Reference to the Order of Meaningful Elements

---

[1] رمزي بعلبكي (١٩٩٩)، ص٣٥.

[2] السابق نفسه.

استخلص فيه الخصائص النحوية المشتركة فى ثلاثين لغة من أسر لغوية متنوعة فى أجزاء مختلفة من العالم من خلال تصنيف هـذه اللغـات إلـى أنمـاط تركيبية ومورفولوجية مختلفة وصولاً إلى نظرية مستقبلية للعالميـات اللغويـة[1] .
ومنذ ذلك التاريخ وجـه البحث التصنيفى اهتمامه الأساسى إلى التراكيب، وارتبـط ارتباطـاً وثيقـاً بالعالميـات[2] .

ولما كانت كثرة كـاثرة من لغـات العـالم لا تـزال تفتقـر إلى الوصـف المفصّل لأنظمتها النحوية فقـد اقتصر أغلب الباحثين على دراسـة نظـام الجملـة الخبرية البسيطة فى أكبر عدد من اللغات[3] .

وقد نظر بعض الباحثين فوجـدوا أن لبعـض اللغـات نظامـاً أقـرب إلى الثبات يسود فيه ترتيب خاص للكلمات فى الجملة، وبعضها أقرب إلى التحرر، فلا تكاد تلتزم ترتيباً خاصاً للكلمات فى الجمل، وبعضها وسط بين هذا وذاك، فصنفوا اللغات على هذا الأساس إلى ثلاثـة أنمـاط[4] .

الأول : اللغات ذات الترتيب الصارم rigid word – order :

وهى لغات متطرفة فى اعتمادها علـى نظـام الجملـة، والاعتمـاد علـى أنواع خاصة من الكلمات بوصفهـا مؤشـرات أو رواسم markers للعلاقـات التركيبية، ومنها اللغة الصينية ولغات عديدة فى جنوب شرق آسيا[5] .

---

(1) Smith, N. & Wilson, D. : (1979) : Modern Linguistics. The Results of Chomsky's Revolution. Penguin Books. P.203 f

(2) Malmkjær (1990). P.274

(3) O'Grady et al (1996). P.282

(4) Robins, R.H. (1978). P.341

(5) Steele, S. : Word Order Variation: A Typological Study, in: Greenberg, J.H. (1978) :Universals of Human Language Vol.4 Syntax. P.605

الثانى : اللغات ذات الترتيب الحرّ free word – order :

وهى لغات ليس لنظام الجملة فيها مغزى insignificant من الوجهة النحوية، وهى تعتمد فى بيان العلاقات التركيبية على فصائل مورفولوجية خاصة، ومنها اللاتينية واليونانية القديمة(١) .

الثالث : اللغات ذات الترتيب الخليط mixed word – order :

وهى لغات تقع موقعاً وسطاً بين النمطين المتطرفين السابقين، ومنها الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وإن كانت الإنجليزية أقرب إلى الصينية، والفرنسية أقرب إليها من الألمانية(٢) .

على أن من الباحثين من رأى لكل لغة من اللغات نظاماً أساسيا لترتيب الكلمات فى الجملة basic word –order هو الذى ينبغى أن يكون مناط التصنيف، وما يخرج عنه لأسباب أسلوبية يعدّ تنويعات لنمط واحد. وقد تبنى أغلب الباحثين هذا الرأى فأخذوا بما سبق أن أطلق عليه ياكوبسون سنة ١٩٦١ الحياد الأسلوبى stylistic neutrality بوصفه معياراً منهجيا للاختيار(٣) ، فكل الأنظمة الستة الممكنة رياضيًا mathematically للجملة الخبرية البسيطة المكونة من مسند إليه وفعل ومفعول به مستخدم فى اللغة الروسية، ومن الممكن أن يقال فيها ما يماثل الأمثلة الآتية إذا رمزنا للمسند إليه بالرمز (س) وللفعل بالرمز (ف) وللمفعول به بالرمز (م) :

١ـ زيد ضرب عمرا (س ف م) ٢ـ زيد عمراً ضرب (س م ف)

٣ـ ضرب زيد عمراً (ف س م) ٤ـ ضرب عمراً زيد (ف م س)

---

(١) Ibid, p.605

(٢) Ibid., p. 605.

(٣) Haarmann, H. (1976). S.141

٥ـ عمراً زيد ضرب (م س ف)   ٦ـ عمراً ضرب زيد (م ف س)

لكن هناك نظاماً واحداً من هذه الأنظمة يعدّ من الوجهة الأسلوبية محايداً هو **س ف م** أما الأنظمة الأخرى فهي إمكانات تعبيرية تعتمد على سليقة ابن اللغة بوصفها تنوعات توكيدية مختلفة، ولا أدل على ذلك من أن النظام **س ف م** هو نظام الجملة الوحيد الذى يستخدمه الأطفال الروسيون ، فاذا قيل لهم ما يماثل: (ماما تحب بابا) فهم الأطفال أنّ الأم تحب الأب، وإذا قيل لهم : (بابا تحب ماما) أساءوا فهم هذه الجملة وفهموها على أن الأب يحب الأم[1] .

وعلى أساس من فكرة النظام المحايد أو غير الموسوم **unmarked** حاول الباحثون تصنيف اللغات على أساس من الأنماط الستة الممكنة لنظام ترتيب الكلمات فى الجملة الخبرية البسيطة التى تتكون من مسند إليه (= س) وفعل (= ف) ومفعول به (= م). فقد استطاعت سوزان ستيل **susan steele** سنة ١٩٧٨ أن تقدم دراسة تصنيفية إحصائية تعتمد على ثلاث وستين لغة انتهت فيها إلى أن الأنماط الثلاثة التى تعدّ أكثر شيوعاً هى[2] :

١ـ س م ف.   ٢ـ س ف م.   ٣ـ ف س م.

ثم استطاع توملين **Tomlin** من بعد (سنة ١٩٨٦) أن يضع دراسة تعتمد على اثنتين وأربعمائة لغة[3] . وقد أيدت دراسته النتيجية التى وصلت إليها ستيل، وذلك على النحو الآتى :

---

(١) Jakobson, R. : Implication of Language Universals for Linguistics, in: Greenberg, J.H. (1973): Universals of Language. The M.I.T. Press. P.268 f

(٢) Steele, S. (1978). P.587

(٣) Tomlin, R.S. (1986): Basic Word Order : Functional Principles. London.
- Payne, J.R. (1990). P.296 ff

النمط الأول : س م ف (نحو : زيد عمراً ضرب) وهو أكثر الأنماط شيوعاً فى لغات العالـم، وقد استخدم فى الدراسة الأولى فى ثلاثين لغـة، وفـى الثانية فى مائة وثمانين بنسبة ٤٥٪ تقريباً، ومنها التركيبة واليابانية والصومالية.

النمط الثانى : س ف م (نحو : زيد ضرب عمراً) ويلـى النمـط الأول فى الشيوع، وقـد استخدم فى الدراسة الأولى فى عشرين لغة، وفى الثانيـة فـى ثمان وستين ومائة بنسبة ٤٢٪ تقريباً، ومنها الإنجليزية والألبانية والفيتنامية.

النمط الثالث : ف س م (نحو : ضرب زيد عمراً) ويلى النمط الثـانى فى الشـيوع، وقد استخدم فى الدراسة الأولى فى عشر لغات، وفى الثانيـة فـى سبع وثلاثين بنسبة ٩٪ تقريبًا، ومن هذه اللغات التاهيتية Tahitian[١] . وذكر بعـض البـاحثين أن مـن اللغــات التــى تتبـع هــذا النظــام العربيــة والبربريــة والمالاحازية[٢] .

وواضح أن المسند إليه فى هذه الأنماط الثلاثة مقدم على المفعول به.

أما النمط الرابع : ف م س (نحو : ضرب عمراً زيـد) فلـم يسـتخدم فى الدراسة الأولى إلا فى أربع لغات، ولم يستخدم الدراسة الثانية إلا فى اثنتـى عشرة لغة بنسبة ٣٪ تقريباً.

أما النمط الخامس : م ف س (نحو : عمراً ضرب زيد) فلم يستخدم فى الدراسة الأولى، واستخدم فى خمس لغـات فحسـب فـى الدراسـة الثانيـة. بنسبة ١٪ تقريبـا.

---

(١) Steele, S. (1978). P.590

(٢) المالاحازية لغة غرب إندونيسيا الذى كان يسمى من قبل مدغشقر. انظر:

- Malmkjær (1990). P.274
- Smith & Wilson (1979). P.204
- Atkinson, M – Kilby, D. – Roca, I. (1988): Foundations of General Linguistics. London. P.365

ولم يرد النمط السادس : م س ف (نحو عمراً زيد ضرب) فى لغات أى من الدراستين. على أن من الباحثين من أشار إلى أن النمطين الخامس والسادس مستخدمان فى حوض نهر الأمازون فى أمريكا الجنوبية[1] .

ومن الباحثين من تجاوز البحث فى نظام ترتيب الكلمات فى الجملة الخبرية البسيطة إلى البحث فى ترتيب العناصر فى الضمائم الاسمية كالترتيب بين الصفة والموصوف، والمضاف والمضاف إليه، والجار والمجرور، والموصول وصلته، وقد صنفت اللغات على أساس الترتيب الغالب لعناصر الضمائم الاسمية على النحو الآتى :

١ـ الضميمة الوصفية :

ثمة ثلاثة أنماط : أحدها تسبق فيه الصفة الموصوف كما فى الإنجليزية، واليونانية، والتركية، واليابانية[2] . والثانى يسبق فيه الموصوف الصفة ، كما فى الولشية، والباسك، واللغات الكلتية والرومانية[3] (ومنها اللغة العربية). والثالث تقع الصفة فيه مقدمة على الاسم ومؤخرة عنه كما فى البولندية، والرومانية وغيرها[4] والتقديم والتأخير فى لغات هذا النمط مرتبط بدلالة الصفة، أو طول الكلمة، أو بقيمة أسلوبية. ولا تزال القواعد التى تحكم موقع الصفة فى اللغة الفرنسية مثلاً مثار جدل حتى الآن[5] .

---

(١) O'Grady et al (1996). P.383
- Payne, J.R. (1990). P.297

(٢) Comrie, B. (1993). P.453

(٣) Ibid.

(٤) Haarmann, H. (1976). P.142

(٥) Haarmann, H. (1976). P.142

٢- ضميمة الإضافة :

ثمة ثلاثة أنماط : أحدها يسبق فيه المضاف إليه المضاف كما فى التركية واليابانية، والثانى يسبق المضاف فيه المضاف إليه كما فى الولشية (والعربية)، والثالث يقع فيه المضاف إليه مقدمًا على المضاف ومؤخرًا عنه فى لغة واحدة كما فى الإنجليزية[١] .

٣- الضميمة الجرية :

ثمة نمطان اثنان : أحدهما يسبق فيه المجرور حرف الجرّ، كما فى اليابانية. والثانى يسبق فيه حرف الجرّ المجرور كما فى الولشية[٢] (والعربية).

٤- ضميمة الصلة :

ثمة ثلاثة أنماط : أحدها : يسبق فيه الاسم الموصول جملة الصلة كما فى الانجليزية (والعربية)، والثانى : تسبق فيه جملة الصلة الموصول كما فى التركية. والثالث : تحيط فيه جملة الصلة بالموصول كما فى اللغة المسماة Barliara وهى إحدى لغات الفرع الماندى من لغات الكنغو – نيجر المستخدمة فى السنغال ومالى وبوركينا فاسو[٣] .

ومما هو حدير بالذكر أن ثمة لغات ليس فيها تراكيب يمكن أن تسمى ضميمة صلة على الإطلاق[٤] .

وقد حاول بعض الباحثين أن يؤسس علاقة وثيقة بين مواقع هذه الضمائم وموقع الفعل فى الجملة الخبرية البسيطة فلحظ أن اللغات التى يكون

---

(١) Malmkj?r (1990). P.275
- Comrie, B. (1993). P.454

(٢) Comrie, B. (1993). P.454

(٣) Comrie, B. (1989). P.90,145
- Malmkj?r (1990). P.274

(٤) Comrie, B. (1989). P.144

الفعل فيها فى بداية الجملة الخبرية البسيطة تسبق فيها الصفة الموصوف، والمضاف المضاف إليه، والجار المجرور، والموصول الصلة. (وهذا ظاهر فى العربية)، وكذلك الأفعال المساعدة ترد دائماً قبل الفعل الأساسي، لكن المقياس لم يستقم له فى الجمل التى يرد فيها الفعل فى الموقع الثانى أو الثالث[1]

وقد شملت محاولات الباحثين أيضاً تصنيف اللغات على أساس استخدامها للجمل ذات الخبر الاسمى مثل زيد طبيب فصنفت اللغات فى نمطين: أحدهما تستخدم فيه اللغات فعلاً رابطاً copula والثانى لا تستخدم فيه اللغات فعلاً رابطا، فمن النمط الأول الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية واليونانية، ومن لغات النمط الثانى العربية[2].

ولعلى أشير هنا إلى أن جرينبرج خصص جزءاً منفرداً من الأجزاء الأربعة التى قام على نشرها بعنوان Universals of Human Language للنظام النحوى[3]، وفيه أبحاث قيمة عن التصنيف النوعى للغات من حيث استخدامها أساليب النفى، والاستفهام، والمطابقة، والتعريف، والصلة، والعلاقة بين الربط والتفريع فى الجمل، وصلة ذلك كله بالعالميات.

العالميات :

للبحث فى العالميات اللغوية linguistic universal أصول ضاربة بجذورها فى البحث الفلسفى الأوروبى فى القرن السادس عشر وما تلاه من قرون. وكان الفلاسفة فى تلك القرون بين مذهبين : أحدهما عقلى يؤمن

---

(1) Comrie, B. (1993). P.453

(2) - Smith & Wilson (1979). P.204 f
Haarmann, H. (1976). P.144

(3) Greenberg, J.H. (ed.) 1978 : Universals of Human Language. Vol. 4 Syntax.

بقدرة فطرية قائمة فـى العقل الإنسانى هى أساس اليقين فى المعرفـة، ويتجـافى عن انطباعات الحواس التى هى عرضة للخطأ والتحريـف، وقوامـه الاستدلال. والثانى تجريبى يقوم على الملاحظـة المستمدة من انطباعات الحواس، ومـا يجريه عليها العقل من عمليات التجريد والتعميـم، وقوامـه الاستقراء[1] . والخلاف المشهور بين الاتجاهين يدور حول الأفكار الفطريـة innate، فلـوك، وبـاركلي، وهيوم ينكرون وجود أية أفكار فطرية ماثلة فى العقــل الإنسـانى سابقــة علـى التجربة، على حين يرى العقليون الديكارتيون أن ثمة أفكاراً فطريـة معينـة هـى أساس أى يقين بالمعرفة الإنسانية. وليس هذا يعنى أنّ التجريبيين يسـقطون دور العقل فى الإدراك واكتساب المعرفة، بل مناط الاختلاف بينهـم وبـين العقليـين هو المدى الذى يقوم فيه العقل بدور أساسى فـى هذا المجال[2] .

وقـد كـان للإيمـان بسـلطان العقــل، وتصنيفـات العلــوم التجريبيــة، والتقدير الكبير لأنظمة الرموز الرياضية أثر فـى التفكير فـى ابتـداع لغة عالمية تخلـو من عيوب اللغات البشـرية، ومـا فيهـا مـن شـذوذ واضطـراب وتعقـيد بوضع رموز تبتدع لهذا الغرض، وتُعطى قيما نطقية، كمـا فعــل مرسـن فـى فرنسـا، وولكنز فى إنجلترا فى القرن السابع عشر، وكما فعـل زامنهوف الذى وضع الإسبرانتو فى أواخر القرن التاسع عشر (سنة ١٨٨٧)[3] .

لقـد أكّد التجريبيون عـــلى الاختلافات الفرديـــة بين اللغـات، وعلى

---

[1] ر.هـ. روبنز (١٩٩٧) موجز تاريخ علم اللغة (فى الغرب). ترجمـة: أحمـد عـوض. عـالم المعرفـة ٢٢٧ الكويت ص١٩١.

- Fromkin & Rodman (1998). P.19

[2] ر.هـ. روبنز (١٩٩٧) ص١٩٢.

- Langacker, R.W. (1973) : Language and its Structure. USA. P.242

[3] ر.هـ. روبنز (١٩٩٧) ص ١٩٥ فما بعدها.

الحاجة إلى تصنيفها فى ضوء الملاحظة، فى حين ظل العقليون يبحثون عن الجوامع المشتركة بين اللغات التى تكمن تحت سطح الاختلافات الظاهرة[1] ، وامتداداً لهؤلاء وهؤلاء ظهر اتجاهان بارزان فى دراسة العالميات اللغوية أحدهما عقلى يمثله تشومسكى ومن نهج نهجه، والآخر تجريبى يمثله جرينبرج ومن سار على هديه.

اتجاه تشومسكى :

ظهر الاهتمام بالعالميات عند تشومسكى فى أبحاثه المبكرة، فقد أشار فى المبانى التركيبية Syntactic Structures إلى ما أسماه شرط العموم condition of generality الذى يجب أن تستوفيه النظرية، وقال : إننا نطالب بأن يكون نحو اللغة مطابقا لنظرية محددة للتركيب اللغوى تتحدد فيها مصطلحات من مثل الفونيم phoneme والضميمة phrase بمعزل عن لغة بعينها[2] .

وعلى الرغم من أن الرجل فى مواضع عديدة لم يدع مجالاً للشك فى أن القواعد اللغوية linguistic rules عنده ذات صبغة عالمية، فهو لم يستخدم مصطلح "عالمى universal" حتى حوالى سنة ١٩٦٢. ولعلّ السبب فى ذلك راجع إلى أن المناخ العلمى فى العقد الخامس من القرن العشرين كان يرتاب فى أية تعميمات generalizations غير استقرائية non-indicative فجعله ذلك على حذر من استخدام مصطلح قد يوصم وقتها بأنه " انفعالى "، حتى إذا كانت سنة ١٩٦٥ عمد إلى التصريح فى كتابه "أوجه النظرية التركيبية" بأن

---

(1) ر.هـ. روبنز (١٩٩٧)، ص٢١١.

(2) Chomsky, N. (1957): Syntactic Structure. The Hague. P.50

«المهمة الأساسية للنظرية النحوية ينبغي أن تكون تطوير وصف للعالميات اللغوية»[1] ، لكنه فيما يبدو حتى ذلك الحين لم يكن يرى أن اللغات كلها تستخدم فصائل وقواعد واحدة، لكنها تختار من المخزون العالمى universal inventory ويبدو أن تشومسكى نظر فى ذلك إلى نظرية السمات المميزة distinctive feature theory عند ياكوبسون الذى أورد فيها قائمة بنحو عشرين سمة زعم أنّ النظام الفونولوجى لأية لغة لا يخرج عن سمة منها، لكن ليس من اللازم أن تستخدم لغة واحدة كل السمات التى فى القائمة، فالإنجليزية مثلا لا تستعمل السمة + مغلق checked[2] .

ثم قدم تشومسكى من بعد ما يبدو أنه مفهوم أكثر تحديداً للعالميات، فذكر أن العالميات الحقة حتمية بيولوجية necessity biological، وهى من ثم فطرية innate، والكشف عنها يعمق فهمنا للغة، ويمكننا من فهم القدرة العقلية البشرية على إبداع اللغة، إذا إنها كامنة وراء الاختلافات الظاهرة بين اللغات الفردية، مؤسسة ما يسمى النحو العالمى universal grammar [3] ، فاللغة عنده ظاهرة عقلية أكثر منها ظاهرة اجتماعية[4] .

لقد رأى تشومسكى فى القول بالفطرة innateness تفسيراً للعالميات اللغوية على أساس أن ما يتعرض له الطفل من مادة لغوية فى سنى عمره الأولى

---

(1) Chomsky, N. (1965) : Aspects of the Theory of Syntax, Cambridge, Mass. : M.I.T. Press. P.27 f

(2) Comrie, B. (1989). P.15

(3) Chomsky, N. & Lasnik, H. (1977) : Filters and Control. L I 8, P.437
- Chomsky, N. (1976): Reflections on language. London. P.34
- Newmeyer, F. J. (1986): Linguistic Theory in America. Academic Press, INC. Orlando, Florida. P.72

(4) Chomsky, N. (1968) Language and Mind New York: Harcourt. P.135

هزيل، لا يكفى بحـال لتفسير كيفية اكتسابه اللغة الأولى فى أقصر وقت، وبأيسر مجهود، فما ينتجه الطفل غير محدود، وما يتلقاه ناقص ومحدود، وهو ما أطلق عليه فقر المثير poverty of stimulus[1] ، فالأطفـال يستخدمون اللغة استخداما صحيحا ومبتكرا، ولا يقتصر إنتاجهم للغة على مـا سمعوه منهـا من قبل، بل يبدعون جملا لم يسمعوهـا، ولو أنهم لم يعتمدوا على الفطرة فى إنتاجهم اللغوى، وكانوا كما قيل كاللوح الأملس الذى يعكس ما يقـع عليه، لما اقتصر إنتاجهم على الجمل الصحيحة ؛ لأنه ليس فى الكلام الذى يسمعونـه من المحيطين بهم دليل على أنَّ جمـلا ما لا يصح استخدامها[2] . وصحيح أنهم يخطئون فى مرحلة الاكتساب الأولى لكنهم يصوبـون أخطـاءهم بأنفسـهم من دون التفات إلى ما يقوم به الوالـدان من تصويـب أو تخطئـة ؛ لأنهم يجـردون لأنفسهم القواعد التى تحكم الاستعمال الصحيح، ولذلـك تجدهـم لا ينتحون جملاً تصادم أسس النحو العالمى[3] . وأغلب هذه القواعد من التجريـد بحيث لا يمكن للطفـل أن يتعلمها من أبويه، أو من البيئة المحيطة به، على فرض أن فى البيئـة المحيطة بـه وعيًا بهـا[4] .

أسس النحو العالمى هى عند التشومسكيين إذن فطرة فطر الناس جميعـا

---

(1) ماكلافن، بارى: نظريات تعلم اللغة الثانية. ترجمة: عبد الرحمن عبـد العزيز العبـدان (الرياض ١٩٩٦) ص١٦٩

- Newmeyer, F.J. (1986). P.72

(2) تشومسكى، نعام: اللغة ومشكلات المعرفة. ترجمة حمزة بن قبلان المزينى. دار توبقـال للنشـر. الـدار البيضاء - المغرب ١٩٩٠ ص٣٣.

- Comrie, B. (1989). P.130

(3) تشومسكى، نعام: اللغة ومشكلات المعرفة ص٣٣.

- Cook, V.J. (1988): Chomsky's Universal Grammar : An Introduction. Oxford: Basil Blackwell. P.64 f.

(4) Cook, V.J. (1988). P.61

عليها علـى نحو شامل ومتساوٍ منذ مولدهم، تقررها عوامـل بيولوجيـة تختـص بتعلم اللغات، ويتحكم فيهـا فـى المـخ البشـرى جهـاز أشبه شئ بـالصندوق الأسود، يطلق عليه تشومسكى جهاز اكتساب اللغة Language Acquisition Device ويرمز له اختصارًا بـLAD [1] ويشبه كوك قدرة الطفل على اكتسـاب اللغة بقدرة البرعم على أن يصبح زهرة، فالبرعم لا يتعلم ذلك ؛ بل نموّه تحقيـق لإمكاناته الوارثية، تعين عليه عـوامـل خارجيـة كالمـاء، والتربـة، والهـواء تمـثل ما يمكن أن يسمى " قـوى الإطـلاق"[2] .

فالأسس اللغوية الموجودة فى ذهن الطفـل تقـوم بإظهـار نفسـها وفقـاً لقدرة الطفل على معالجة المعلومات، ووفقا لعوامل النضج الأخرى، فـالطفل لا يكشف عن جميع ما فى ذهنه من أسس لغوية دفعة واحـدة، بـل يتـدرج وفقـا لمراحل النضج المختلفة التى تمدّنا كل مرحلـة منهـا بجـانب مـن إدراكـه لبعـض الأسس اللغوية، فالجملة الموصولة مثلاً تظهر فـى لغـة الطفـل فـى مرحلـة تاليـة لظهور التراكيب اللغوية ذات الكلمة الواحدة، والجملة الواحـدة[3] .

ولا ينكر تشومسكى وأتباعه أثر البيئـة فـى اكتسـاب اللغـة، فـالمُدخَل input اللغوى الصحيح الذى يأتى منهـا فـى الوقـت المناسـب أشـبه مـا يكـون

[1] Chomsky, N. (1975): Reflections on Language. New York : Pantheon. P.8,14

- براون، هـ. دوجلاس: أسس تعلم اللغة وتعليمها. ترجمة عبده الراجحـى وعلـى علـى أحمـد شـعبان (بيروت١٩٩٤) ص٣٨
- عبد العزيز بن إبراهيم العصيلى: النظريات اللغوية والنفسـية وتعليـم اللغـة العربيـة (الريـاض١٩٩٩) ص٨٣.

[2] ماكلافن، ب (١٩٩٦) ص١٤٩.

[3] السابق، ص١٥٠.

بالضغط على أزرار تشغيل جهاز اكتساب اللغة[1] . ولا تعارض عند هؤلاء بين اكتساب الطفل لغة بعينهـا وأسـس النحـو العـالمى ؛ لأن الطفـل يضـع لنفسـه فروضاً عن تلك اللغة يختبرها فى إطار الأسس العامة للنحـو العـالمى، ومـن ثـم فان الطفلين اللذين يكتسب كل منهما لغة مختلفة عن اللغة التى يكتسبها نظـيره يطبقان الأسس العالمية نفسها تطبيقين مختلفين بناءً على استجابة كل منهما لبيئة لغوية مخالفة للأخرى[2] .

ومن اللافت للنظر أن نظرية تشومسكى فى النحو العالمى تنحصـر فـى اكتساب الطفل اللغة الأولى فحسب، ويبدو أن الرجل يرى أن تعلم اللغة الثانية تحكمه ملكات عقلية أخرى. على أن هذا الأمر قد تغير فى السنوات الأخـيرة؛ إذ حاول بعض الباحثين تطبيق مبادئ اكتساب اللغة الأولى على الثانية، وانتهوا إلى أنّ أسس الاكتساب واحدة[3] ومن ثمّ أصبحت نظرية النحو العالمى مذهبـاً بديلاً لمذهب التحليل التقابلى[4] .

ويرى تشومسـكى وأصحابـه أن الوصـول إلى أسـس النحــو العــالمى المركوزة فى ذهن البشر يكفى فيـه تحليـل عميـق ومفصّـل للغـة بشـرية واحـدة كالإنجليزية مثلاً، أو عـدد قليل مــن اللغـات، ولا يـرى تشـومسـكى فـى ذلـك تناقضاً بين الأسس العالمية واللغـة الواحـدة ؛ لان الإنجليزيـة عنده لغـــة بشـرية، وهى لذلك تحتوى على القواعد الكلية التى تحتوى عليها لغــات البشـر جميعـا،

---

[1] السابق نفسه، ص١٥٤.

[2] براون، هـ. د (١٩٩٤) ص ٣٩-٤٠

- ماكلافن، ب(١٩٩٦) ص١٥٥

[3] ماكلافن، ب (١٩٩٦) ص١٤٧.

[4] السابق، ص١٦٣.

وفيها فى الوقت نفسه سمات فردية تجعل منها لغة إنجليزية على وجه الخصوص[1] . من ثم كان نحو أية لغة نحوين - نحواً جوهريا أو نوويا core grammar فيه أسس النحو العالمى الموجودة فى لغات البشر جميعا، ونحوا عرضيا أو هامشيا peripheral يحتوى على السمات الخاصة لكل لغة على حدة، وهى السمات التى تجعلها لغة مختلفة عن غيرها من اللغات[2] . والنوع الأول غير موسوم unmarked أما الثانى فموسوم marked. من ثمّ أصبحت نظرية الوسم اللغوى قرينة لنظرية النحو العالمى عند تشومسكى وأتباعه[3] .

لقد صنف كاتز وبوستال سنة ١٩٦٤[4] وتشومسكى سنة ١٩٦٥[5] العالميات فى نمطين اثنين : أحدهما عالميات مادية substantive وهى العناصر الأولية primitive elements التى تكون أساساً لتحليل المادة اللغوية، ففى الفنولوجيا تعدّ السمات الفارقة distinctive features التى حددها ياكوبسون بعدد يتراوح بين خمس عشرة وعشرين سمة فارقة مثالاً واضحاً لهذا النوع من

---

(١) Comrie, B.(1989). P.4.
- Malmkjær (1991). P.278

(٢) انظر فى تفصيل ذلك الفصل الأول من كتاب
Radford, A. (1988): Transformational Grammar:A First Course. CUP. Cambridge.

(٣) Chomsky, N. (1981): Lectures on Government and Binding. Dordrecht: Foris. P.18
- Newmeyer, F.J.(1986). P.200
-Crystal, D. (1989). P.85

(٤) Katz, J. & Postal, P. (1964): An Integrated Theory of Linguistic Descriptions. Cambridge, MA: M.I.T. Press. P.160 f.

(٥) Chomsky, N. (1965). P.27 ff.
- Comrie, B. (1989). P.15 f.
- Newmeyer, F.J. (1986). P.72
- Allen, J.P.B. & Buren, P.V. (1971): Chomsky: Selected Readings. Oxford University Press. P.139 ff.

العالميات، حيث إنها تمثل مجموعة كلية تختار منها كل لغة فردية، أى أنها تمثل المدى الكلى لكل اللغات الطبيعية. أما العناصر التى تقع خارج هذا المدى فهى تعد ضروباً من المحال impossibilities. والثانى : عالميات شكلية، وهى عالميات تتصل بالنظام النحوي، وتتمثل فى القيود الشكلية التى تحكم هذا النظام، وهذا النوع من العالميات أشدّ تجريدًا من سابقه؛ إذ هو يحدد الشروط الشكلية التى ينبغى على كل وصف نحوى أن يأخذ بها، والضوابط التى تتفاعل بها القواعد بعضها مع بعض، وتعدّ فرضيات كاتز ـ بوستال مثالا للعالميات الشكلية.

وعلى الرغم من أن اتجاه تشومسكى فى بحث العالميات اللغوية يمثل موقفاً متماسكا ليس من السهل تجاهله كما يقول كومرى[١] ، فإنه لم يسلم من النقد. وأهم ما أخذه عليه اللغويون، وأكثرهم من المنتمين إلى اتجاه جرينبرج[٢] مايأتى:

١ـ من العجيب أن يؤدى تفسير ملاحظة بسيطة عن تعلم الطفل لغته الأولى فى وقت قصير بسهولة ويسر إلى الزعم القوى بأنّ اللغة كلها فطرية، إذ يؤدى هذا إلى افتراض أن الطفل المولود فى جماعة لغوية بعينها مبرمج فعلاً لاكتساب لغة جماعته اللغوية برمجة يفترض أنه ورثها عن أبويه. وهذا تبسيط واضح لمشكلات قدرات التعلم learnabilities تدل الملاحظة على أنه لا يثبت على التمحيص ؛ فهو يتضمن أن الطفل لا يستطيع أن يتعلم ـ أو على الأقل لا يستطيع أن يتعلم فى سرعة وسهولة ـ إلا لغة أبويه دون معول كبير على لغة الجماعة اللغوية المحيطة به. ومن المؤكد أن الطفل

(١) Comrie, B. (1989), P.2

(٢) Ibid.

يكتسب بسهولة قصوى اللغة التى تتحدثها الجماعة اللغوية التى ينمو بينها، أيًا كانت، من دون نظر إلى لغة أبويه أو أصلهما البعيد. ومن الممكن أن نلحظ ذلك بوضوح فى الأطفال الذين ينشأون بين متكلمين بلغة مختلفة عن لغة أبويهم. وهذا مؤسس على قاعدة من الملاحظة التجريبية لا على مجرد افتراض ليس من الميسور التسليم به[١].

وليس من الميسور أيضا التسليم بأن أسس النحو العالمى أسس فطرية مثلى تمكن الطفل من اكتساب أية لغة يتعرض لها دون تفضيل لغة على لغة، فمعنى ذلك أنها واحدة عند الأطفال جميعًا، فيجب إذن أن يكونوا جميعاً محايدين فيما يتصل بالاختلاف بين اللغات، أو بعبارة أخرى يجب أن يكونوا هم أنفسهم عالميين universals[٢].

وإذا كانت العالميات اللغوية مساوية للقدرة الفطرية المجردة ، وكان من المستطاع أن نجد فى الفطرة تفسيراً للعالميات اللغوية، فمن ذا يفسر لنا هذه القدرة الفطرية[٣] ؟ ثم إن الزعم بأن العالميات اللغوية حتمية بيولوجية، وأنَّ ثمة جهازاً فى المخ البشرى لاكتساب اللغة، لم يثبته البحث البيولوجى حتى الآن ، ولا علم لنا بطبيعة هذا الجهاز أو طريقة عمله، وهو من ثمَّ محض افتراض يراد التسليم به ليمكن التسليم بما ينبنى عليه.

٢- القول بأن الوصول إلى أسس النحو العالمى المركوزة فى ذهن البشر يكفى فيه تحليل لغة واحدة كالإنجليزية تحليلاً عميقاً مفصلا لا يمكن التسليم به ؛ لأنه سيؤدى حتما إلى إنتاج أسس خاطئة أو مشوهة distorted، ففى

---

(١) Comrie, B. (1989), P.3f

(٢) Ibid, P.4

(٣) Ibid, P.4

الإنجليزية مثلاً سمات كثيرة ليست موجودة فى عدد من اللغات مثل استعمال النهاية التصريفية inflectional ending فى الزمن الحاضر كما فى نحو She runs أو غياب التمييز بين المفرد المخاطب وجمع المخاطبين (الفرنسية مثلاً فيها tu / vous)[1] ، (والعربية فيها أنت وأنتم).

ولو كانت اللغات متجانسة تجانس الحديد الخام لكفى فيها كما يكفى فيه الاقتصار على عينة واحدة من الممكن التسليم بأنها تمثل خواص الحديد فى العالم، لكنها متنوعة تنوع السلوك الإنسانى تحت الضغط العصبى ؛ إذ لا يمكن الاقتصار فيه على عينة واحدة يمكن القول إنها تمثل السلوك الإنسانى الواقع تحت الضغط العصبى فى العالم كله[2] . والمعروف أن اللغات ليست قياسية، ويكثر فيها الشذوذ، ثم إن عزل الأسس العالمية التى تشترك فيها لغات العالم جميعا عن السمات الفردية التى تميز لغة عن لغة ليس من المستطاع الوصول إليه من خلال لغة واحدة أو عدد قليل من اللغات[3] .

وثمة شواهد لا يمكن إغفالها على أنّ البحث فى العالميات من خلال أكبر قدر ممكن من اللغات يعد أمراً لازما للوصول إلى تأسيس عالمية لغوية يكتب لها القبول، فمن المعروف أن العالميات الاستلزامية implicational universals مثلاً لا يمكن بحال الوصول إليها من خلال لغة واحدة. وقد أورد كومرى لذلك مثلاً العالمية الاستلزامية الخاصة بالضمائر المنعكسة reflexive pronouns التى تقول : " إذا كان فى لغة ضمائر منعكسة خاصة بالمتكلم والغائب فان فيها ضمائر منعكسة خاصة بالغائب " فإذا نظرنا فى

---

(١) Crystal, D. (1989). P.85

(٢) Comrie, B. (1989). P.6

(٣) Crystal, D. (!989). P.85

الإنجليزية وجدنا فيها هذه الظاهرة، إذ يقال فيها مثلاً : I hit myself كما يقال : He hit himself ، لكن ليس في نحوها ما يدل على أن هده عالمية استلزامية، فإذا اقتصرنا على الإنجليزية فربما وصلنا إلى عالمية تقول : إن كل لغة فيها ضمائر منعكسة خاصة بالمتكلم والمخاطب والغائب، وليس هذا صحيحا، فالفرنسية مثلاً فيها ضمائر منعكسة خاصة بالغائب، ولكن ليس فيها مثل ذلك للمتكلم والمخاطب. والأنجلوساكسونية ليس فيها ضمائر منعكسة خاصة بأي من المتكلم والمخاطب والغائب، فيقال فيها ما يماثل: هو ضربه، حيث يجوز أن يكون الضمير في ضربه عائداً على غير المبتدأ، أو منعكسا عليه، (وكذلك العربية)[١]

وبهذا يتضح أنّ الاقتصار على لغة واحدة في صياغة عالمية يفضي بها إلى أن تكون عالمية مفترضة putative كثيرا ما تتعرض للبطلان إذا عرضت على مادة لغوية مأخوذة من أكبر عدد ممكن من اللغات[٢]. ويقال : أكبر عدد ممكن من اللغات لأنه ليس في مقدور الباحثين الآن البحث في لغات العالم جميعا لسببين :

الأول : أن كثيرا من لغات العالم لم تسجل حتى الآن أو لم تسجل بتفاصيل نافعة للبحث في هذا المجال.

والثاني: أن العدد المشهور من لغات العالم نحو أربعة آلاف لغة، فإذا انتظرنا بحثا مفصلا لكل لغة منها قبل أن نبدأ البحث في العالميات فلن ننجز هذه المهمة أبدا[٣] . من ثم كان من اللازم اختيار عينة ممثلة للغات

---

(١) انظر: محمود أحمد نحلة: الضمائر المنعكسة في اللغة العربية (بيروت ١٩٩٠) ص١٢ فما بعدها.

(٢) Comrie, B. (1989). P.7

(٣) Ibid, P.9

العالم لا تغلب عليها السمات الوراثية ولا الإقليمية ولا التركيبية، بل تكون على نحو متوازن فى هذه الأمور جميعا[1] .

٣- هاجم باخ فى بحث قدمه إلى مؤتمر العالميات اللغوية الذى انعقد فى أوستن- تكساس سنة ١٩٦٧، ونشر سنة ١٩٦٨ القول بأن كل لغة تختار من المخزون العالمى من العناصر اللغوية واصفا إياه بأنه زعم فارغ ؛ لأنه ليس فى مقدورنا أن نضع قائمة بكل العناصر التى تستخدم فى كل اللغات مكونة المخزون العالمى ليمكن القول بعد ذلك إن هذه اللغة أو تلك تختار منها قائمة جزئية[2] .

لقد اضطر تشومسكى تحت ضغط ما وجه إليه من نقد أن يعيد النظر منذ عام ١٩٨١ فى نظريته عن النحو العالمى فعدل منها لتشمل البارامترات parameters التى تحتوى على متغيرات ذات قيم values خاصة بالفروق الملحوظة بين اللغات[3] .

على أن اتجاه تشومسكى قد حفز بعض الباحثين إلى دراسة علاقة جهاز الإدراك والتلقى عند البشر بالعالميات، وانتهى برلين وكاى سنة ١٩٦٩ إلى أنه إذا كان فى لغة نظام للألوان فإنها لا بد أن تميز على الأقل بين لونين: الأبيض والأسود ، فإذا كان فيها ثلاثة ألوان فالثالث لا بدَّ أن يكون الأحمر، فإذا كان فيها أربعة فالرابع إما الأخضر وإما الأصفر، فإذا كان فيها خمسة فالخامس سوف يكون واحدا من الأخضر أو الأصفر بعد اختيار الرابع، فإذا

---

(١) Comrie, B. (1989), P.10 ff

(٢) Bach, E. Noun and Noun Phrases, in: Bach, E. & Harms, R.T (1968): Universals in Linguistic Theory. USA. P.113

(٣) Payne, J.R. (1990). P.308.

كان الرابع الأخضر كـان الخامـس أو العكس ، وإذا كـان فيهـا ستة ألـوان فالسادس سوف يكون الأزرق ، وإذا كان فيها سبعة ألوان فالسـابع سـوف يكون البنى. وقـد اعتمدوا فى ذلك على التشريح المحايـد neutral anatomy لرؤية اللون عند البشر(١) .

اتجاه جرينبرج :

يرى أغلب اللغويين أن البحث فى العالميات اللغوية استمدّ قوته الدافعة مـن إنجـازات جـوزيف جرينبرج فى العقد السـادس مـن القرن العشريـن فقـد استطاع الرجل أن يثير الاهتمام بدراسـة العالميات اللغويـة بوصفهـا مشروعًـا project لا مجرد نتاج هامشى قائم على المصادفـة(٢) وأن يربـط ربطا قويـا بـين التصنيف النوعى للغات والعالميات، وأن يضع أهـم الأسس المنهجيـة التـى بنـى عليها باحثون كثيرون. وكـانت بداية ذلـك مؤتمـر العالميـات اللغويـة الـذى انعقـد فـى المدة من الثالث عشر إلى الخامس عشر من أبريل سنة ١٩٦١ فـى دوبـس فرى Dobbs Ferry بنيويورك، وشارك فيه جرينـبرج(٣) ، وقـد تمخـض المؤتمر عن عدد من الأبحاث المهمة فى هذا المجال لباحثين كبار مثل ياكوبسون، وأولمان، وفاينريش، وغيرهم. وقـد قـام جرينبرج على نشرها سنة ١٩٦٣ فـى كتاب عنوانه Universal of Language. وتوالت بعد ذلك أبحـاث جرينـبرج وصحبه لتعمق اتجاهاً يختلف اختلافاً بينا عن اتجاه تشومسكى فى منهج البحـث

---

(١) Hawkins, J.A. (ed.) 1988: Explaining Language Universals. Blackwell. Oxford. P.15

(٢) Hopper, P.J. (1992). P.137

(٣) Lehmann, W.P.: The Great Underlying Ground-Plans, in: Lehmann, W.P. (ed.): Syntactic Typology. Studies in the Phenomenology of Language. The Harvester Press. P.43

ومنطلقاته، وإن لم يختلف الهدف الذى يسعى إليه كـل منهمـا، ولا يـزال لكـل اتجاه أنصاره ومؤيدوه من الباحثين المعاصرين.

وليس من الميسور أن نتتبع كل ما جاء به جرينبرج وأصحابه فـى هـذا المجال، ويكفينا هنا أن نشير إلى أمرين على درجة بالغة من الأهمية :

الأول : يتصـل بمـا صاغـه جرينـبرج سنة ١٩٦٦ مـن عالميـات بلغـت خمسـاً وأربعـين[1] ، لا يسـتطيع بـاحث فـى العالميـات اللغويـة أن يغفلهـا، أو يغضى عنها، وقد استخلصها جرينبرج على أسـاس تجريبـى مـن تصنيفـه النوعـى للظواهـر التركيبيـة والمورفولوجيـة فـى ثلاثـين لغـة منهـا سـبع أوروبية، وسـبع أفريقيـة، وتسـع آسـيوية، واثنتـان محيطيتـان **Oceanian** وخمس أمريكية هنديـة[2] . وليس من بينها العربية.

والثاني: يتصل بأنواع العالميات عنده، وصلة بعض منها بنظرية الوسـم، وبمـا يسمى الترسيس المقارن.

قواعد العالميات :

أ ـ عالميات النظام الأساسي للجملة word- order :

١- النظـام السائـد فى الجملة الخبرية التى تتكون مـن مسـند إليـه (س) وفعـل (ف) ومفعول به (م) أن يسبق المسند إليه المفعول به.

٢- الأغلب فى اللغات التى يسبق فيهـا الجـار المجرور[3] **preposition** أن يسبق فيها المضـاف المضـاف إليـه، وفـى اللغـات التـى يـلـى فيهـا الجـار المجرور **postposition** أن يلى المضـاف المضاف إليه.

---

(1) Greenberg, J.H.: Some Universals of Grammar with Particular Reference to the Order of Meaningful Elements, in: Greenberg, J.H. (ed.) 1973. P.76-96

(2) Ibid, P.74 f.

(3) شاع فى اللغة العربية ترجمة "prepositions" بحروف الجر، وهى ترجمة مشكلة؛ لأن مفهوم الجر فى العربيـة لا ينطبـق على المصطلح الإنجليزى، ولأن بعضـاً منها قد لا يعادله فى العربية "حـرف"،-

٣- اللغات التى يسود فيها النظام ف س م يسبق الجار فيها دائما المجرور Preposition .

٤- اللغات التى يغلب عليها النظام **س م ف** يلى الجار فيها المجرور postposition.

٥- إذا كان النظام السائد فى لغة هو : **س م ف**، والمضاف إليه فيها يلى المضاف فان الصفة فيها تلى الموصوف أيضا.

٦- كل اللغات التى يسود فيها النظام **ف س م** يكون فيها النظام س ف م، أو هو وحده النظام البديل.

٧- إذا ساد فى لغة النظام **س م ف** فليس فيها نظام أساسى بديل، فإن وجد لم يكن إلا النظام م س ف، وعندئذ تسبق فيه كل المحددات الظرفية adverbial modlifiers الفعل.

ب ـ العالميات التركيبية syntactic :

١- حين يتميز السؤال الذى إجابته "نعم" أو "لا" (= الاستفهام التصديقى) عن نظيره المؤكد بأنماط تنغيمية فإن السمات التنغيمية لكل نمط من هذه الأنماط تحسب من نهاية الجملة لا من بدايتها.

٢- إذا كان موقع كلمات الاستفهام أو الزوائد محدداً بالنظر إلى الجملة كلها، فإذا كان موقعها أول الجملة كانت موجودة فى اللغات التى يسبق فيها

-بل "ظرف" فضلاً عن أن بعضا منها قد يأتى بعد ما يدخل عليه فيطلقون عليه عندئذ مصطلح "postposition". وربما شاعت هذه الترجمة بما غلب من مقابلة فى اللغة العربية، ولتقارب وظيفتها فى اللغتين بدخولها على الأسماء والضمائر ونحوها لربطها نحوياً بكلمات أخرى، ولأن حرف الجر فى العربية لا يأتى بعد المجرور. ولما كان إطلاق مصطلح آخر أدلّ عليها مثل كلمات الربط قد يضلّل القارئ العربى فقد آثرت الإبقاء على ما شاع من ترجمته مفضلاً أحياناً استخدام مصطلح الجار ليدخل فيه الظرف، على الراجح عند نحاة العربية من عمل المضاف فى المضاف إليه.

الجار المجرور، وإن كانت فى آخر الجملة كانت موجودة فى اللغات التى يلى فيها الجار المجرور.

٣- إذا كان موقع كلمات الاستفهام أو الزوائد محددا بالنسبة لكلمة بعينها فى الجملة فإنها فى الأغلب تلى هذه الكلمة، ومثل هذه الكلمات لا تقع فى اللغات التى يسود فيها النظام **ف س م**.

٤- تغير نظام الجملة ليصبح الفعل مقدماً على المسند إليه لا يحدث إلا فى اللغات التى تكون فيها كلمات الاستفهام أو الضميمة الاستفهامية لها الصدارة، وهذا التغيير نفسه لا يقع فى الاستفهام التصديقى إلا إذا كان السؤال مشتملاً على كلمة استفهام.

٥- إذا كان نظام الجملة الخبرية **declarative sentences** السائد فى لغة ما هو ف س م فإن كلمات الاستفهام أو ضمائم الاستفهام فيها ترد أولاً فى النظام المعتمد على كلمات استفهام. فإذا كان نظامها السائد فى لغة ما هو س م ف فليس فيها قاعدة ثابتة كهذه.

٦- إذا كان المفعول به اسماً يسبق الفعل دائما فإن الصيغ الفعلية المرتبطة بالفعل تسبقه أيضا.

٧- فى الجمل الشرطية تسبق عادة جملة الشرط جملة الجواب فى كل اللغات.

٨- فى التراكيب الدالة على الإرادة **volition** والغرض **purpos** تلى الصيغ الفعلية الفرعية دائما فى النظام المعتاد الفعل الأساسى إلا فى اللغات التى يسبق فيها المفعول به الاسمى الفعل دائماً.

٩- فى اللغات التى يسود فيها النظام ف س م تسبق الأفعال المساعدة المتصرفة inflected auxiliary دائما الفعل الأساسي، وفى اللغات التى يسود فيها النظام س م ف تلى فيها دائما الأفعال المساعدة المتصرفة الفعل الأساسى.

١٠- فى اللغات التى يسود فيها النظام ف س م تقع الصفة بعد الموصوف.

١١- إذا سبقت الصفة الموصوف فى لغة ما فإنّ أسماء الإشارة تسبق المشار إليه، والعدد يسبق المعدود.

١٢- إذا كانت القاعدة العامة فى لغة ما هى أن الصفة تلى الموصوف فقد تكون هناك قلة من الصفات تسبق الموصوف، فإذا كانت القاعدة العامة أن الصفة تسبق الموصوف فلا استثناء.

١٣- إذا سبقت كلمة الإشارة المشار إليه ، أو سبق العدد المعدود، أو الصفة الموصوف فإنها تقع دائما هذا الموقع ، وإذا وقع أى منها بعده فإما أن يظل النظام ثابتا أو يتحول إلى العكس.

١٤- إذا وقعت كل الظروف adverbs أو بعضها بعد صفة adjective بحيث تكون هذه الظروف مقيدة لها عدّت اللغة التى يقع فيها هذا من اللغات التى تقع فيها الصفة بعد الموصوف، ويسبق الفعل فيها مفعوله، نظاما سائدًا.

١٥- إذا كان ترتيب المواقع فى أسلوب التفضيل هو : الصفة + دليل الصيغة + مستوى التفضيل adjective – marker - standerd كما فى الإنجليزية ، وكان هذا الترتيب هو الترتيب الوحيد الممكن كانت اللغة من اللغات التى يسبق فيها الجار المجرور، فإذا كان ترتيب المواقع فى هذا الأسلوب معكوساً ، أى مستوى التفضيل + دليل الصيغة + الصفة، وكان هذا هو الترتيب الوحيد، أو كان واحداً من أنواع بديلة من الترتيب كانت اللغة من اللغات التى يلى فيها حرف الجر الاسم.

١٦- فى باب البدل apposition إذا سبق الاسم العلم proper noun الاسم العام common noun فإن اللغة التى يقع فيها هذا تكون واحدة من اللغات التى يسبق فيها المضاف المضاف إليه. فإذا كان الاسم العام يسبق عادة الاسم العلم فان المضاف إليه يسبق المضاف فى اللغة التى يقع فيها ذلك.

١٨- إذا كانت الضميمة الموصولة تسبق الاسم سواء أكان هذا هو التركيب الوحيد أم كان تركيباً بديلا فإن اللغة تكون من اللغات التى يقع فيها الجار بعد المجرور، أو الصفة فيها تسبق الموصوف، أو هما معا.

١٩- إذا وقع المفعول به الضمير بعد الفعل فان المفعول به الاسم يقع مثله بعد الفعل.

جـ - العالميات المورفولوجية :

١- إذا كان فى لغة زوائد منقسمة discontinueous affixes كان فيها سوابق أو لواحق، أو هما معا.

٢- إذا كانت اللغة لا تستخدم إلا اللواحق فموقع الجار فيها بعدىّ postposition، وإذا كانت لا تستخدم إلاّ السوابق فموقع الجارّ فيها قبلى preposition .

٣- إذا كان كل من عنصرى الاشتقاق derivation والتصريف inflection تاليا للجذر root أو كانا كلاهما يسبقان الجذر فإن عنصر الاشتقاق يكون دائما بين الجذر وعنصر التصريف.

٤- إذا كان فى اللغة تصريف كان فيها دائما اشتقاق.

٥- إذا كان للفعل فصيلتا شخص person وعدد number أو كـان لـه فصيلـة للجنس gender كان له دائما فصيلتا زمن tense وصيغـة mode.

٦- إذا طابق فى لغـة مـا أى مـن المسند إليه subject أو المفعـول بـه object الفعل فى الجنس فان الصفة فيها دائما تطابق الموصوف فى الجنس.

٧- إذا طابق الفعل المسند إليه أو المفعول به فى الجنـس فانـه يطابقـه أيضـاً فـى العدد.

٨- إذا لم تحدث مطابقة بين الاسم والفعل فى العدد، واعتمدت القاعـدة على الترتيب فإن الحالة case تكون دائمـاً واحـدة مـن تلـك التـى يكـون فيهـا الفعل مقدماً ، وفى صيغة المفرد.

٩- لا يقع فى لغةٍ عدد مثلث trial إلا إذا كان فيها مثنى ولا تقـع التثنيـة فـى لغة إلا إذا كان فيها الجمع.

١٠-ليس هناك لغة ليس للجمع فيها ألومورفات غير صفرية ، على حين أنَّ ثمـة لغات لا يعبر فيها عن المفرد إلاّ بالألومورفات الصفرية، أما المثنى والمثلـث فلا يقتصر التعبير عنهما إطلاقا على الألومورفات الصفرية.

١١-إذا كان فى لغة فصيلة للجنس فإن فيها دائما فصيلـة للعـدد.

١٢- لا يقع فى لغـة فصائل للجنس تكون أكثر فى غير المفرد منها فـى المفرد.

١٣- حيثما يوجد نظام للحالة case فإن الحالـة الوحيـدة التـى ليـس فيهـا إلا ألومورفات صفرية هى تلك التى تشمل بـين معانيهـا معنـى فاعـل الفعـل اللازم.

١٤- حيثما توجد مورفيمات للعدد والحالة كليهما، وكل منها يلي أو يسبق أساس الاسم noun base فإن التعبير عن العدد يقع في الأغلب بين أساس الاسم وتعبير الحالة.

١٥- حين تقع الصفة بعد الموصوف فان الصفة تعبر عن كل الفصائل التصريفية للاسم، وقد يفقد الاسم في مثل هذه الحالة التعبير الصريح عن واحد من هذه الفصائل أو عنها كلها.

١٦- إذا وقع الفعل في لغة بعد المسند إليه والمفعول به كليهما وكان هذا نظاماً سائداً في تلك اللغة، كان في هذه اللغة على الأغلب نظام للحالة case system.

١٧- كل اللغات فيها ضمائر تشمل على الأقل ثلاثة أشخاص three persons وعددين two numbers .

١٨- إذا كان في لغة فصيلة للجنس خاصة بالأسماء فان فيها فصيلة للجنس خاصة بالضمائر

١٩- إذا كان في لغة مايميز المتكلم من حيث الجنس فإن فيها أيضا ما يميز - من حيث الجنس - المخاطب والغائب، أو ما يميزهما كليهما.

٢٠- إذا كان في لغة ما يميز ضمائر الجمع من حيث الجنس كان فيها أيضاً ما يميز ضمير المفرد.

أنواع العالميات :

استطاع جرينبرج واثنان من زملائه هما أو سجود Osgood وجنكينز Jenkins أن يميزوا منذ بدايات بحثهم في العالميات أنواعاً منها، وقد فتح هذا

بابا واسعاً للباحثين من بعد لمناقشة هذه الأنواع، وتطويرها، والإضافة إليها، والتوسع فى إيراد الشواهد عليها. وهذه الأنواع هى :

١- العالميات غير المقيدة unrestricted universals :

وهى عند جرينبرج وزميله أقوال تحدد الظواهر المشتركة بين اللغات جميعا من دون استثناء، وقد أوردوا مثالا واضحاً على ذلك من المجال الفونولوجى هو : كل اللغات فيها صوائت[1] ، وفرّع كروذرس على هذه العالمية عالمية أخرى غير مقيدة هى : **كل اللغات فيها الصوائت / i a u /**[2] ، وذكر باحث آخر عالمية أخرى من هذا المجال هى : كل اللغات فيها صوامت وقفية stops[3] .

وقد أضاف بعض الباحثين عالميات أخرى من المجالين التركيبى والصرفى، فقدم بولنجر Bolinger (١٩٦٨) العالميات الآتية[4] :

- كل اللغات فيها ضمائم اسمية، وضمائم فعلية تماثلا مع القسمين الكبيرين: الاسم والفعل، وفيها كلها يفوق عدد الأسماء عدد الأفعال.
- كل اللغات فيها وسائل لتحويل الجمل الخبرية إلى استفهامية ومنفية وطلبية.

---

(١) Greenberg, J.H. – Osgood, Ch.E.- Jenkins, J.J.: Memorandum Concerning Language Universals, in: Greenberg, J.H. (ed.)1973. P.xix

وانظر أيضاً:

- Langacker, R.W. (1973). P.247
- Comrie, B. (1989). P.18

(٢) Crothers, J. (1978). P.136

(٣) O'Grady et al (1996). P.377

(٤) Mallinson & Blake (1981). P.8

- Langacker, R.W. (1973). P.249

- كل اللغات فيها على الأقل صيغتان للتفاعل بين الأفعال والأسماء هما اللزوم والتعدى.

وأضاف باحثون آخرون العالميات الآتية :

- كل اللغات فيها أنظمة للضمائر تميز ثلاثة أشخاص : المتكلم والمخاطب والغائب، وعددين على الأقل هما المفرد والجمع[1] .

- كل اللغات فيها وسائل للإشارة[2] .

- كل اللغات فيها وسائل للتعريف والتنكير[3] .

على أن كثيرا من اللغويين يرون أن القول بسمة ما موجودة فى اللغات جميعا ليس من الممكن اختبار صدقه ، بل من السهل تحطيمه على صخرة اللغات التى تكتشف حديثًا، فضلاً عن أنه لا سبيل إلى اللغات التى ماتت، بل إنه لا سبيل إلى أوصاف كاملة لكل اللغات الحية فى العالم[4] .

وقد استطاع بعض الباحثين أن يجد أمثلة مضادة **counterexamples** للعالميات غير المقيدة فذكر أن لغة تسمى الكباردية **Kabardian** مستعملة فى شمال غرب القوقاز تفتقر إلى الصوائت الفونولوجية[5] .

وشكك بعضهم فى القول بأن كل اللغات فيها ضمائم اسمية، وضمائم فعلية، أولاً : لأنه ليس ثمة اتفاق على تحديد كل منهما فى كل

---

(1) Atkinson et al (1988). P.363.

(2) Langacker, R.W. (1973). P.249.

(3) محمود أحمد نحلة: التعريف والتنكير بين الدلالة والشكل (الإسكندرية ١٩٩٧) ص١٢ فما بعدها.

(4) Mallinson & Blake (1981). P.8.

(5) Payne, J.R. (1990). P.293.

اللغات، وثانيا : لأنه ليس من السهل التمييز بين الفعل والاسم في بعض اللغات مثل اللغة التي تسمى نوتكا Nootka [1] وذكروا أنه على الرغم من أن الضميمة الاسمية مستخدمة عالميا، فإنه ليس في كل اللغات أسماء تعادل أسماء إنجليزية مثل sorrow ، joy ، laughter.. إلخ[2] .

والضميمة الفعلية ليست مستخدمة في كل اللغات، فثمة لغات تجمع الفعل والمسند إليه في ضميمة واحدة. وثمة لغات لا يمكن أن يضم إلى الفعل فيها مكون آخر، فضلا عن أن هناك أفعالا واضحة مثل يقفز، ويسفك، ويطارد ليس لها معادل في كل اللغات. وفي كثير من اللغات كلمات لها الخواص النحوية التي للأفعال كالدلالة على الزمن tense، والجهة aspect، والصيغة mood، والبناء للمعلوم أو المجهول[3] .

كذلك قال بعضهم إنّ اللغة القوقازية المسماة Avar لا يظهر فيها التمييز بين اللازم والمتعدى من الأفعال، فكل الأفعال في هذه اللغة تتطلب التعبير عن واحد فقط من المشاركين في الحدث participants[4].

من أجل ذلك رأى بعض الباحثين أنّ العالميات غير المقيدة التي لا استثناء فيها يندر وجودها، فإن وجدت فليس لها قيمة حقة في البحث اللغوي[5] . وعلى ذلك فالقول بالعالميات غير المقيدة مؤسس على أن الباحثين

---

(1) Payne, J.R. (1990), P.294.

(2) Mallinson & Blake (1981), P.9.

(3) Ibid, P. 9.

(4) Ibid. P.9.

(5) Atkinson et al (1988). P.363.

لم يكتشفوا حتى الآن استثناء منها، ولهذا فليس من الممكن من الوجهة العملية أن نكون على يقين من أن هـذه العالمية أو تلك غير مقيدة حقا[1] .

٢ـ الاستلزامات العالمية univrsal implications :

وهى عند جرينبرج وصاحبيه تقوم على عقد صلة بين خاصيتين لغويتين عالميتين نحو : إذا كان فى لغة معينة الخاصية (أ) فان فيها أيضاً الخاصية (ب)، لكن العكس غير صحيح، ومثال ذلك : إذا كان فى لغة فصيلة للمثنى dual فإن فيها أيضاً فصيلة للجمع plural، لكن العكس غير صحيح ضربة لازب. وهم يعبرون عن ذلك بالسهم ذى الاتجاه الواحد: مثنى←جمع[2] . ويرون أن مثل هـذه الاستلزامات كثيرة حقا بخاصة فى المجال الفونولوجى[3] .

وقد ذكر باحثون آخرون عالميات أخرى من هذا المجال منها[4] :

- إذا كان فى لغة أصوات أنفية مهموسة كان فيها أيضاً أصوات أنفية مجهورة. والعكس ليس لازما.
- إذا كان فى لغة من اللغات فونيمات احتكاكية fricatives فان فيها أيضًا فونيمات وقفية stops والعكس ليس لازمًا.
- إذا كان فى لغة تقابل بين الصوائت الطويلة فإن فيها أيضاً تقابلاً بين الصوائت القصيرة، والعكس ليس لازمًا.
- إذا كان فى لغة فونيمات مجهورة يعترض عند النطق بها مجرى الهواء اعتراضًا

---

(١) Comrie, B. (1989). P.20.

(٢) Greenberg et al (1973). P.xix.

(٣) Ibid, P.xx.

(٤) O'Grady et al (1996). P.374 ff.

كليا أو جزئيا، كان فيها أيضاً فونيمات مهموسة، يعترض عند النطق بها مجرى الهواء اعتراضا كليا أو جزئيا، ولا يلزم العكس.

- إذا كان فى لغة فونيمات مزجية affricates فإن فيها أيضاً فونيمات احتكاكية ووقفية، ولا يلزم العكس.

- إذا سمحت لغة بسلسلة من الصوامت فى مستهل المقطع أو مختتمه سمحت أيضا بصامت مفرد فى مستهل المقطع أو مختتمه، والعكس غير لازم.

ولهذا النوع من العالميات شواهد من المجال التركيبى منها[١] :

- إذا كان فى لغة ضمائر منعكسة خاصة بالمتكلم، والمخاطب كان فيها ضمائر منعكسة خاصة بالغائب، ولا يلزم العكس.

- إذا سبقت ضميمة الصلة الاسم المسيطر عليها فى لغة غير نغمية فإن نظام الجملة الأساسى فيها هو : س م ف

وللاستلزامات العالمية صلة بمجالات مهمة فى البحث اللغوى منها نظرية السمات الفارقة distinctive feature theory ؛ إذ إنّ الصوائت الأنفية تشترك مع الفموية فى كل السمات، وتفترق عنها بسمة إضافية تتعلق بالأنفية nasality . ومنها نظرية الوسم اللغوى markedness، إذ إن الصوائت الأنفية موسومة والفموية غير موسومة[٢]؛ ومنها الترسيس المقارن comparative reconstruction، إذ يمكن بها عند ترسيس اللغات الأمات التنبؤ بوجود ظاهرة لغوية معينة حين توجد ظاهرة معينة[٣] .

---

(١) Comrie, B. (1989). P.19

(٢) Atkinson et al (1988). P.364
- O'Grady et al (1996). P.374 f

(٣) Hopper, P.J. (1992). P.137

ومن الجدير بالذكر أنّ جرينبرج وصاحبيه التفتوا إلى نوع من الاستلزام غير العالمى، وقد أطلقوا عليه مصطلح "التكافؤ المقيد" restricted equivalence، وقصدوا به الاستلزام المتبادل بين خاصيتين غير عالميتين، وقدموا صياغة له على النحو الآتى :

- إذا كان فى لغة معينة الخاصية غير العالمية (ج) فإن فيها أيضاً الخاصية غير العالمية (د) والعكس صحيح، وذكروا مثالاً لذلك هو : إذا كان فى لغة طقطقة جانبية lateral click فان فيها أيضاً طقطقة أسنانية dental.

وهذه الخاصية ليست عامة فى اللغات، بل هى مستعملة فى لغات موجودة فى منطقة بعينها من جنوب أفريقيا[١] . وظاهر أن هذا النوع من الاستلزام لا يدخل فى العالميات، و لم يلتفت إليه الذى ذكروا أنواع العالميات من الباحثين.

٣- العالميات الإحصائية statistical univesals :

وقد حددها جرينبرج وصاحباه بأنها خواص فى لغات العالم زادت من الناحية الإحصائية على الخواص التى تقابلها زيادة كبيرة تقترب بها من العالمية. وذكروا الصوامت الأنفية مثالاً لها فهى موجودة فى كل اللغات ما عدا لغات قليلة مثل اللغات السالشية Salishian وبعض اللغات المجاورة لها، لهذا فمن الجائز أن تصاغ عالمية تقول :

- الأغلب فى اللغات أن يكون فيها على الأقل صامت أنفى واحد[٢] .

وقد أكدت بعض الدراسات الإحصائية ما ذهب إليه جرينبرج وزميلاه، إذ أثبتت دراسة فونولوجية لأكثر من ثلاثمائة لغة أن نسبة اللغات

---

(١) Greenberg et al (1973). P.xx

(٢). Ibid, P.xx

التى تخلو من الصوائت الأنفية أقل من ٣٪[١] ، كما ثبت أيضاً أن نحو ٩٩٪ من اللغات التى درس فيها نظام الجملة كان المسند إليه فيها سابقاً على المفعول به[٢] .

ومن العالميات الإحصائية أيضا ما يأتى[٣] :

- أغلب اللغات تستعمل الفونيمات الوقفية / p t k / ، وقليل من اللغات تخلو من واحد من هذه الثلاثة، لكن ليس هناك لغة تفتقر إلى هذه الصوامت جميعا. فإذا فقدت اللغة واحداً منها فالأغلب أن يكون / p / كما فى النوبية (والعربية)، والفونيم الأكثر استخداماً من هذه الثلاثة هو / t /.
- أكثر الصوامت الاحتكاكية شيوعاً فى لغات العالم هو / s /، فإذا كان فى لغة من اللغات صوت احتكاكى واحد فالأغلب أن يكون / s / كما فى اللغة المسماة ناندى Nandi المستخدمة فى كينيا ففيها صوت احتكاكى واحد هو / s /، والصامت الإحتكاكى الذى يليه فى الشيوع هو / f /.
- إن كان فى لغة فونيم أنفى واحد فالأغلب أن يكون / n / فإن كان فيها فونيمان أنفيان متقابلان فهما عادة /m/ و / n / .
- الأغلب فى اللغات أن يكون فيها فونيم مائع واحد.

٤- الارتباطات الإحصائية statistical correlations :

ذكر جرينبرج وزميلاه أن هذا النوع يختلف عن سابقه اختلاف الاستلزامات العالمية عن العالميات غير المقيدة، وهم يعنون به أنه إذا كان فى لغة خاصية معينة فإن فيها خاصية أخرى يغلب ورودها معها.

---

(١) Crystal, D. (1989). P.85
- Comrie, B. (1989). P.19

(٢) Crystal, D. (1989). P.85.

(٣) O'Grady et al (1996). P.377 ff.

والمثال على ذلك : اللغات التى فيها ضمير يدل على جنس المخاطب يغلب أن يكون فيها ضمير يدل على جنس الغائب، ولكن العكس غير صحيح.

ولو أن هذه العالمية كانت من دون استثناء لأصبح عندنا استلزامية عالمية تقول : إذا كان فى لغة ضمير يدل على جنس المتكلم فإن فيها ضميراً يدل على جنس الغائب، لكن ثمة لغات فى وسط نيجيريا فيها ضمائر تميز جنس المخاطب، وليس فيها ضمائر تميز جنس الغائب، فإذا كان هذا الزعم صحيحاً وليس ناتجا عن سوء وصف لها فمن الممكن أن نصوغ ارتباطاً إحصائيا على النحو الآتى :

- إذا كان فى لغة ضمير يميز جنس المخاطب فالأرجح أن يكون فيها ضمير يميز جنس الغائب[1] .

تلك هى العالميات التى يعمل فى إطارها جرينبرج ومن تبعه منذ سنة ١٩٦٣. وقد حاول كومرى من بعد أن يضبط أنواعها ومصطلحاتها، وأن يضيف إليها بعض الأمثلة التوضيحية، فرأى أن العالميات نوعان : **مطلقة ونسبية**، وأن كلا من المطلقة والنسبية إما **استلزامية** وإما **غير استلزامية** ، فأطلق على النوع الأول من عالميات جرينبرج وزميله مصطلح **العالميات المطلقة غير الاستلزامية** absolute non implicational universals مثل : كل اللغات فيها صوائت. وأطلق على النوع الثانى من عالميات جرينبرج وزميليه مصطلح **العالميات المطلقة الاستلزامية** absolute implicational universals مثل : إذا كان فى لغة ضمير منعكس خاص بالمتكلم والمخاطب فإن فيها ضميراً منعكساً خاصاً بالغائب.

---

(١) Greenberg et al (1973). P.xx

وقد أطلق على النوع الثالث من عالميات جرينبرج وزميليه مصطلح **عالميات نسبية غير استلزامية ، أو نزعات عالمية غير استلزامية** non-implicational universal tendencies مثل أغلب اللغات فيها صوامت أنفية.

أطلق على النوع الرابع مصطلح **نزعات عالمية استلزامية** implicational universal tendencies مثل : إذا كان نظام الجملة فى لغة هو س م ف فالأرجح أن يقع الجار فيها بعد المجرور postposition لكن الفارسية تعدُّ مثالاً مضادا لذلك إذ فيها هذا النظام لكن الجار فيها يقع قبل المجرور prepositlon[1] .

وقد كتب لمصطلحات كومرى من الشيوع ما لم يكتب لمصطلحات جرينبرج وزميليه.

ومما ينبغى اللفت إليه أن جرينبرج وزميليه تنبهوا إلى أن كل ما قدموه من بحث فى العالميات ينحو منحى تزامنيا synchronic يقوم على رصد السمات المشتركة فى لغات العالم وبيان العلاقات بين بعضها وبعض، لكنه لم يعن بالدراسة الزمانية diachronic التى تعنى بالتطور اللغوى عبر المراحل الزمانية المتعاقبة، فلم يقدموا عالميات تكشف عن السمات المشتركة التى تسم اللغات فى تطورها أو تغيرها عبر الزمن، ولفتوا إلى أن هذا المجال جدير بالبحث[2] وقد عاد جرينبرج سنة ١٩٧٨ إلى الحديث عن الوجهتين الزمانية والتزامنية فى دراسة العالميات[3] ، ثم عنى من بعد باحثون كثيرون بهذا النوع

---

(١) Comrie, B. (1989). P.19

(٢) Greenberg et al (1973). P.xxii

(٣) فى بحث له عنوانه:
Diachrony, Synchrony and Language Universals, in: Greenberg, J.H. (1978) Vol.1. P.7ff.

من العالميات[1] ، وهو من غير شك فى حاجة إلى أن يفرد له بحث مستقل فى العربية.

هذان إذن هما الاتجاهان السائدان فى دراسة العالميات اللغوية، أحدهما ينطلق من الفطرة الإنسانية ليصل إلى العالميات، والثانى ينطلق من دراسة أكبر عدد ممكن من اللغات للوصول إلى العالميات، فهدفهما واحد، وإن اختلفت بهما السبل. ومن ثم كان بعض الباحثين على حق حين قال إن الاتجاهين غير متناقضين، بل هما متكاملان وليس أحدهما بقادر وحده على الوصول إلى هذا الهدف[2] .

ولعلّ مما يدعو للدهشة أن اللغة العربية لم تأخذ مكانها الجدير بها فى التصنيف النوعى للغات أو العالميات ؛ وعدد مستخدميها لغة رسمية يزيد على مائة وخمسين مليونا، فضلاً عن ملايين أخرى عديدة تستخدمها لغة ثانية، فى حين أن لغات لا يتجاوز عدد مستخدميها بضع مئات تدرج بين اللغات التى تكون مادة الدراسة فى هذين الجانبين، ولا عذر لمعتذر فى ذلك، فقد أتيح لأنظمة العربية الصوتية، والصرفية والنحوية، والدلالية وصف دقيق قدمه علماء العربية منذ قرون، وتوفر على درسها علماء أوربيون كثيرون فقدموا فى ظواهرها المختلفة بحوثاً لا تحصى كثرة مكتوبة بأكثر اللغات الحية شيوعاً وأوسعها انتشارا : الإنجليزية

---

(1) انظر على سبيل المثال:

Fox. A.: (1995): Linguistics Reconstruction. An Introduction to Theory and Method.

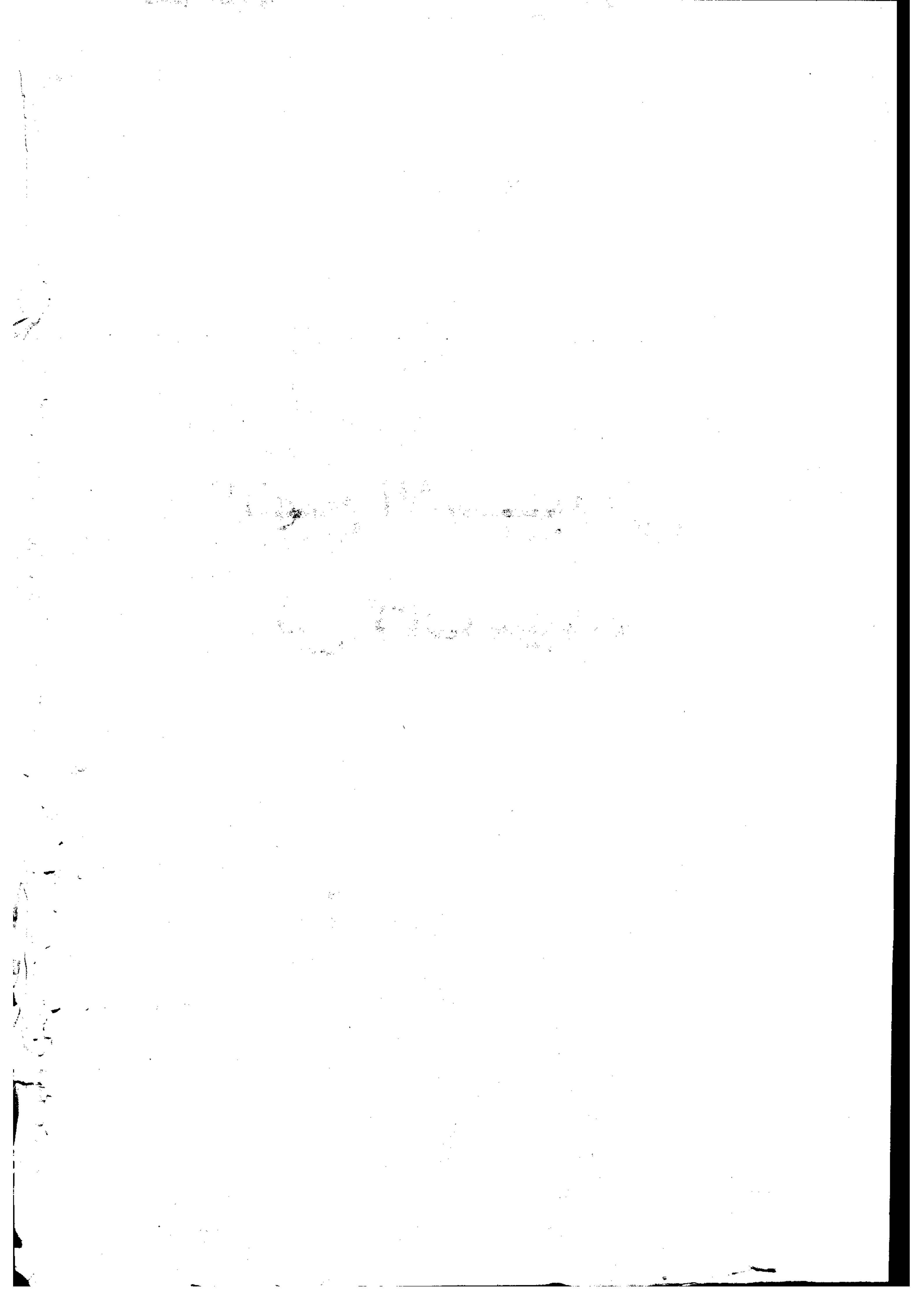
وثبت المراجع الوارد فيه ص٣٣٠ فما بعدها.

(2) Hawkins, J.A. (1988). P.4

- Comrie, B. (1989). P.23

والفرنسية والألمانية، وبالرغم من ذلك تجدهم يحيدون عنها ويؤثرون عليها العبرية، وقد اضطررت فى مواضع من البحث أن أذكر بالعربية فكنت أضعها بين هلالين حتى يأتى وقت أستطيع فيه أن أفرد بحثا لموقع العربية من التصنيف النوعى، وما يكون من ظواهرها داخلاً فى العالميات، وما يكون منها أمثلة مضادة، وأرجو أن أتمكن من إنجازه فى أقرب وقت إن شاء الله. والله الموفق والمستعان.

النهـج الاســـتبدالى
فى كتاب سيبويه



(١)

لكتاب سيبويه مكانة غير منكورة فى تاريخ الدرس اللغوى عند العرب فهو أول كتاب نحوى وصل إلينا، استطاع فيه صاحبه أن يقدم وصفًا شاملاً دقيقًا للغة العربية فى نحو ألفى صفحة[1] تنتظم خمسمائة وثمانية وخمسين بابًا، وأربعمائة وعشرين شاهدًا قرآنيًا، وثمانية شواهد من الحديث النبوى الشريف وتسعمائة وسبعة وأربعين بيتًا كاملاً من الشعر العربى لم يشك أحد فى صحتها، وخمسة من أجزاء أبيات، وواحدًا وأربعين مثلاً عربيًا، وثلاثمائة وست عبارات مسموعة عن العرب، ومائتين وستة وتسعين شاهدًا من الأرجاز، وثمانمائة وخمسين رأيًا لأئمة النحاة السابقين عليه[2].

وعددًا لا يكاد يحصى كثرة من الأمثلة التى صاغها سيبويه قياسًا على ما هو مستعمل من لغة العرب، وليس بين أيدينا ما يدل على أن سيبويه بنى كتابه على كتاب قبله توسعة له أو تطويرًا، أو أفاد منه فى تصنيف مادته اللغوية وتبويبها، أو أخذ عنه منهجه فى العرض والتحليل.

ولست أشك فى أن سيبويه صدر فى وصفه للنظام اللغوى فى العربية، وبيان القوانين التى تحكم الاستعمال الصحيح للغة، عن أسس منهجية كانت قائمة فى ذهنه لم يعن بإيضاحها عنايته بإجراءات التحليل اللغوى، ولا نكاد

---

[1] طبعة عبد السلام هارون، (القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٧٧).

[2] قمت بهذا الإحصاء من خلال الفهارس التى أعدها الأستاذ عبد السلام هارون لكتاب سيبويه فى الجزء الخامس (القاهرة ١٩٧٧)، وهو مخالف للإحصاء الذى نقله د. حسن عون عن الطبعة الأوروبية إلا فيما يتصل بآراء النحاة، انظر : د. حسن عون، أول كتاب فى نحو العربية فى مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية م١١ سنة ١٩٥٧ ص ٣٩ وما بعدها.

نجد فى التراث النحوى من بعده من حاول استظهار هذه الأسس، والتأصيل النظرى لها، وتحديد دورها فى النظرية اللغوية عند سيبويه، على كثرة من عرضوا لكتاب سيبويه شرحًا لمتنه وشواهده، ومناقشة لمشكلاته وقضاياه، واعتراضًا عليه.

على أن بعض الباحثين المحدثين من العرب ومن غير العرب حاولوا أن يستخرجوا بعض هذه الأسس في ضوء معارف العصر، فظهر لهم أن لبعض ما جاء به سيبويه نظيرًا فى المدارس اللغوية المعاصرة، فاكتفى بعضهم باللفت إلى ذلك منبهًا إلى أن تأمل المادة اللغوية قد يفضى إلى استراتيجية واحدة أو متقاربة عند باحثين من لغات مختلفة، وإن اختلفت المنطلقات، والغايات، والمصطلحات[1]، وأثبت بعضهم لسيبويه سبقًا إلى بعض هذه الأسس بعشرة قرون[2]، ووصولاً إلى نماذج من التحليل البنيوى لم يعرفها الغرب حتى القرن العشرين[3].

---

(1) انظر فى ذلك :

- Mosel, U. : Die syntaktische Terminologie bei Sibawaih (Diss.) München 1975, S. 13, 73 - 4.
- Owens, J. : Early Arabic Grammatical Theory, Amsterdam 1990, p. 35.
- Versteegh, C.H.M. : The Arabic Terminology of syntactic Position, in : Arabica Tome XXV 1970, p. 263f.

وانظر د. نهاد الموسى نظرية النحو العربى فى ضوء مناهج النظر اللغوى الحديث، بيروت ١٩٨٠م، ص ٣٢، ٣٨.

ود. عبده الراجحى : النحو العربى والدرس الحديث، بحث فى المنهج، بيروت ١٩٨٦م، ص ٥٩، ١٤٥، ١٥٠ فما بعدها.

(2) د. عبد الرحمن أيوب : التفكير اللغوى عند العرب : مصادره ومراحله، فى : مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج ٢٤، يناير ١٦٩، ص ١٢٧.

(3) Carter, M. : An Arabic Grammarian of the Eighth Century A.H. JAOS. 93, p. 157.

ولاريب فى أن قراءة سيبويه فى ضوء النظريات اللغوية المعاصرة تعين على استخراج بعض هذه الأسس المنهجية، وتحديد مكان هذا الكتاب ومكانته فى الدرس اللغوى العالمى، وهذا البحث محاولة لاستخراج واحد من أهم الأسس المنهجية، التى اعتمد عليها سيبويه، من كتابه ذاته، أصطلح عليه بـ"النهج الاستبدالى" ولما كان سيبويه يلتقى فى هذا النهج مع مدرسة لغوية حديثة هى "التوزيعية Distributionalism" فقد رأيت أن أوجز تصورها لهذا الأساس، ثم أعرض لتصور سيبويه له، وتقنيات استخدامه، وأهدافه منه، ثم أقارن فى النهاية بين التصوّرين.

(٢)

التوزيعية هى المرحلة الثانية فى تطور علم اللغة الوصفى فى أمريكا، أو ما يطلقون عليه "البنيوية الأمريكية"[١]، وضع أسسها هاريس فى الخمسينيات من هذا القرن[٢]، ويعد كتابه : "مناهج فى علم اللغة البنيوى Methods in Structural Linguistics الذى صدر فى شيكاغو سنة ١٩٥١ إنجيل هذه المرحلة، وقد بين فيه منهج البحث وإجراءات التحليل[٣] .

لقد حاول هاريس أن يقدم نموذجًا للتحليل اللغوى بمنهج العلوم المضبوطة، فاتجه إلى تطوير تحليل يقوم على أسس شكلية بعيدة عن الأسس العقلية أو الدلالية[٤] . فالتحليل اللغوى عند يقوم على أن العلاقة بين العناصر اللغوية فى الأداء الكلامى ليست اعتباطية أو تعسفية، فكل عنصر يقع مواقع

(١) Helbig, G. : Geschichte der neueren Sprachwissenshaft, Opladen 1981, S.80.

(٢) Stammerjohann, H. (Hrsg.) : Handbuch der Linguistik, München, 1975, S.97.

(٣) Helbig ; Geschichte ... S. 81.

(٤) Brinker, K. : Modelle Und Methoden der Strkturalistischen Syntax, Köln, 1977, S. 35.

معينة بالقياس إلى العناصر الأخرى[1] . وثمة قيود تركيبية تحكم وروده مع عناصر أخرى، أو بعبارة اصطلاحية : "تحدد توزيع عنصر" بالقياس إلى العناصر الأخرى، ويحدد هاريس مفهوم التوزيع بقوله : «أىّ توزيع لغوى هو مجموع كل السياقات environments التى يرد فيها، أى مجموع المواقع positions التى يقع فيها العنصر اللغوى بالقياس إلى العناصر الأخرى»[2] .

ولكى نصل إلى تحديد العنصر اللغوى أو "اكتشافه" ثم معرفة "توزيعه" ينبغى أن نقوم بإجراءين يعتمدان على أساس منهجى هو الاستبدال Substitution :

أحدهما : تقطيع الكلام المتصل فى المادة اللغوية إلى الوحدات الصغرى التى تسمى المورفات morphs.

الثانى : تصنيف المورفات وتجميعها فى مورفيمات Morphemes.

ولما كانت المورفيمات عندهم وحدات مجردة تنتمى إلى النظام اللغوى Langue والمورفات هى الوحدات الصغرى للكلام الفعلى المحقق Parole كان لابد أن تصنف المورفات وتجمع فى مورفيمات، وتلك هى الخطوة الأولى، ثم الخطوة الثانية تكون بتصنيف المورفيمات بناءً على تماثلها فى العلاقات التوزيعية إلى أنواع مورفيمية، وتوسيع الأنواع لتشمل ضمائم من المورفيمات ذات توزيع متماثل، ثم تجميعها فى أقسام مورفيمية كبرى تسمى الأقسام الموقعية، والخطوة الثالثة تكون بوصف إمكانات الربط بين الأقسام الموقعية المختلفة لنصل بها إلى وصف تركيب الجملة، فإجراءات التحليل أو خطواته تتجه من

---

(1) Harris, Z.S. : Papers in Structural and Transformational Linguistics, Holland, 1970, p. 775.

(2) Ibid.

أسفل إلى أعلى بتجميع المورفات فى مورفيمات، والمورفيمات فى ضمائم مورفيمية، والضمائم المورفيمية فى أقسام مورفيمية كبرى أو فى أقسام موقعية، وتحدد بعد ذلك العلاقات بين الأقسام الموقعية، فيتحقق بذلك وصف بناء الجملة وصفًا شديد البساطة والاقتصاد[١].

وقد شرح هاريس إجراءات التحليل على النحو الآتى :

إذا وردت صيغة مثل (أ) فى سياق مثل (حـ - د) ثم استبدلنا بـ (أ) صيغة أخرى هى (ب) أى وضعناها مكان (أ)، فإذا كانت العبارة الناتجة عن الاستبدال لا تزال مستخدمة فى اللغة، بمعنى أن اللغة لا تستخدم (حـ أ د) فحسب، بل تستخدم أيضًا (حـ ب د) فإننا نقول : إن (أ) و(ب) تنتميان إلى قسم استبدالى واحد Substitution Class أو أن كلا من (أ) و(ب) يصح أن يشغل الموقع (حـ -د)[٢].

وهكذا نرى أن للاستبدال دورًا أساسيًا فى "اكتشاف" العناصر اللغوية التى يمكن أن يحل أحدها محل الآخر، وتحديد توزيعها، وقد نص هاريس على ذلك فقال : "الاستبدال نهج أساسى فى علم اللغة الوصفى"[٣].

ولا يقتصر الاستبدال عندهم على استبدال مفرد بمفرد، بل يتعدى ذلك إلى الضمائم أو العبارات[٤] ، وقد حددوا للتوزيع أنماطًا ثلاثة[٥] .

---

(١) Brinker, (1977), S. 58 ff.
- Helbig, (1981), S. 80 f.
- Harris, (1970) p. 234.

(٢) Brinker, (1977), S. 36.

(٣) Harris, (1970), p. 102.

(٤) Lewandowski, Th., Linguistisches Wörtrbuch, Heidelberg 1979, 3 / 946.

(٥) Brinker, (`977), S. 37.

١- التوزيع الحر Frei :

ويتحقق حين تتطابق السياقات التى ترد فيها وحدتان لغويتان (أ) و(ب) مثلاً تطابقًا تامًا، ويجوز استبدال إحداهما بالأخرى فى أى سياق لغوى، ويمكننا أن نقول : إن كلاً منهما معادل توزيعى للآخر.

٢- التوزيع التقابلى : Kontrastiv :

ويتحقق حين تتطابق السياقات التى يرد فيها العنصران اللغويان (أ) و(ب) تطابقًا جزئيًا (غير تام)، ويتميز هنا نوعان من العلاقات :

أحدهما : أن تطابق كل السياقات التى ترد فيها (أ) عددًا من السياقات التى ترد فيها (ب)، أى أن (ب) يمكن أن تحل فى كل سياق محل (أ)، لكن (أ) لا تحل محل (ب) إلا فى بعض السياقات، فبين التوزيعين علاقة اشتمال.

الثانى : أن تختلف بعض السياقات التى ترد فيها (أ) عن بعض السياقات التى ترد فيها (ب) بمعنى أن (أ) تحل فى بعض السياقات محل (ب)، و(ب) تحل فى بعض السياقات محل (أ)، ولكل منهما بعد ذلك سياقاته الخاصة به، والعلاقة التى بينهما علاقة توزيع متقاطع.

٣- التوزيع التكاملى : Komplementär :

ويتحقق حين لا تتحد السياقات اللغوية التى ترد فيها وحدتان لغويتان فلا تحل إحداهما محل الأخرى فى أى سياق.

وينبغى، قبل أن أختم الحديث عن التوزيعية، أن أشير إلى الفرق عندهم بين الاستبدال Substitution والإبدال mutation فالاستبدال إحلال عنصر لغوى محل آخر فى سياق لغوى واحد، أما الإبدال فهو إبدال فونيم مكان آخر أو قلبه إليه بتأثير الأصوات المجاورة[1].

---

(1) Robins, R.H. : General Linguistics, An Introductory Survey, Hong Kong, 1978, p. 192.

(٣)

يقوم النهج الاستبدالى فى كتاب سيبويه على أساس شكلى بعيد فى الأغلب الأعرف عند الافتراضات العقلية والنواحى الدلالية، فهو يعتمد على مادة لغوية متمثلة فى الأداء الكلامى المحقق، ولا أدل على ذلك من أن القول ومشتقاته فى كتابه أكثر من أن يحصى، أو كما قال تروبو(non dénombré)[١] ثم إنه ينتهج نهجًا منضبطًا يقوم على استبدال عنصر لغوى بآخر فى موقع محدد من السياق الكلامى، وقد استطاع به تحديد الأقسام الموقعية الكبرى، ثم عاد إلى كل قسم منها فبين بالاستبدال أيضًا أنواعه، والعلاقات التوزيعية بين كل نوع؛ وصولاً إلى إيضاح الفروق بين الأنواع المختلفة فى إطار القسم الواحد، وتحديدً لوظيفة كل منها فى التركيب، وبيان صحة استخدامها، وأثره فى تغيير التركيب الذى يتبعه تغير فى التحليل، على نحو سنفصل القول فيه من بعد.

على أن سيبويه لم يذكر مصطلحًا خاصًا لهذا النهج الاستبدالى، وخلا كتابه من الفعل "استبدل" أو مصدره، أو أى مشتق من مشتقاته، ذلك بأنه -كما أشرنا- غير معنىّ بالإيضاح النظرى لهذا الأساس فى كتابه، بل يتجه مباشرة إلى استخدامه فى التحليل اللغوى، لكنه يشير إلى القدرة الاستبدالية لعنصر من العناصر اللغوية باستخدام كلمات وعبارات يراوح بينها، وأهمها : بمنزلة[٢] ، وقع موقع[٣] ، جرى مجرى[٤] ، كأنك قلت[٥] ، فى

---

[١] Troupeau, G. · Lexique - Index du Kitab de Sibawayhi, Paris, 1976, p. 176.

[٢] سيبويه، الكتاب، ط. هارون، ج١، ص ١٦، ١٧، ٤٠، ٤٤، ١٨١، ج ٢، ص ٢٣، ٢٨٣، ٢٩٠، ٣٠٢، ٣١٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ج٣، ص ٦، ٢٦٨، ج٤، ص ٢٢١، ٢٢٨، ٢٣٤.

[٣] سيبويه:الكتاب، ج١، ص ١٦، ١٢٢، ٢٢٧، ج٢، ص ٨٨، ١٢٨، ٣٥١، ج٣، ص ١٧، ٣٥١، ٣٦٨.

[٤] سيبويه : الكتاب، ج١، ص ١٦٤، ١٦٨، ١٨٩، ٢٨٧، ج٢، ص٢٤.

[٥] سيبويه : الكتاب، ج١، ص ١٤، ٨٤، ١٠٩، ١٣١، ١٣٦، ج٢، ص ٣٨٧، ٣٩١، ٢٩٣، ج٣، ص ٦، ١١، ١١٩، ١٢٠.

معنى[1] ، فى موضع[2] ، وتقول ... كما تقول[3] ، يوافق قولك[4] ، على أننا نلفت إلى أنه يستخدم بعض هذه الألفاظ والعبارات فى غير الدلالة على الاستبدال، وأن قوله فى معنى لا يعنى به فى الأغلب المعنى الدلالى، بل المعنى التركيبى أو الوظيفى.

وقد استخدم سيبويه " البدل" دالاً على باب نحوى[5] ، واستخدمه دالاً على ظواهر صوتية يوضع فيها صوت لغوى مكان آخر أو يقلب إليه فى إطار الكلمة المفردة[6] ، وعلى ظواهر صرفية توضع فيها صيغة مكان أخرى[7] ، وقد ورد لفظ (بدل) مرة واحدة دالاً على عنصر لغوى يمكن استبداله بآخر[8] ، كما استخدم الإبدال مصطلحًا صوتيًا وصرفيًا[9] والمبدل والمبدل منه مصطلحين نحويين[10] لكنه لم يستخدم أيًا من هذه الألفاظ للدلالة على النهج الاستبدالى.

ولعلى ألفت هنا إلى أن سيبويه استخدم التعاقب / المعاقبة مصطلحًا دالاً على ما يعنيه المحدثون بالتوزيع التكاملى، بمعنى أن كلا من العنصرين يرد

---

[1] سيبويه : الكتاب، ج١، ص ٢٠، ١٣٠، ١٨١، ٢٧٤، ج٣، ص ١١، ج٤، ص ٢٣٥.

[2] سيبويه : الكتاب، ج١، ص ١٦، ٨٤، ١٥٥، ٢٦٩، ٣١٩، ٣٧٠، ج٢، ص ١٣٢، ٢٧٥، ٢٩٣، ج٣، ص ٥٥، ١١٩، ١٢٠، ١٨٦، ٢٨٦.

[3] سيبويه : الكتاب، ج١، ص ٤٥، ٦٠، ١١٠.

[4] ج١، ص ١٤.

[5] سيبويه : الكتاب ١ / ١٥٠ - ١٥٨، ٢ / ١٤ - ١٧.

[6] سيبويه : الكتاب ٤ / ١٢٩ - ١٣٠، ٢٣٩، ٢٤٠.

[7] سيبويه : الكتاب، ج٣ / ٣٥٧، ج٤ / ١٩٩.

[8] سيبويه : الكتاب ١ / ٣١٧.

[9] سيبويه : الكتاب ٤ / ١٩٩.

[10] سيبويه : الكتاب ١ / ٤٣٩.

فى سياقات لا يرد فيها الآخر، بحيث لا يمكن استبدال أحدهما بالآخر، كالمعاقبة بين "ال" و"التنوين"[1]، وبين أين ومتى[2]، وبين أنا وتاء فعلت[3]، وبين "إياى" و"نى" فى إياى رأيت ورأيتنى[4]، ومعاقبة الجر للتنوين فى اسم الفاعل[5]، ومعاقبة الاسم للفظ بالفعل فى نحو : أقائمًا وقد قعد الناس[6].

ونريد الآن أن نفصل القول فى النهج الاستبدالى أساسًا منهجيًا من أسس التحليل النحوى عند سيبويه :

لقد كان الاستبدال أساسًا منهجيًا لتقسيم الكلم عند سيبويه إلى ثلاثة أقسام؛ فقد نظر فوجد أن ثمة ثلاث طوائف من الكلمات لا يحل أحدها -فى أصل الاستعمال- محل الآخر فى أى سياق لغوى صحيح، وبحث عن أصل نموذجى للطائفة الأولى فوجده فى "اسم الجنس"[7] فكان مفتاح التقسيم عنده، إذ عد كل ما يقع موقع اسم الجنس، ولو فى سياق لغوى واحد اسمًا، فضم بذلك إلى قسم الأسماء عددًا كبيرًا من الأنواع، ثم نظر فوجد أن الفعل لا يمكن بحال أن يحل محل اسم الجنس فى سياق لغوى صحيح، ففصله عن الاسم وجعله قسمًا قائمًا برأسه، ولا أدل على ذلك من قوله : «ويبين لك أنها ليست بأسماء أنك لو وضعتها موضع الأسماء لم يجز لك، ألا ترى أنك لو قلت: إن يضرب يأتينا وأشباه هذا لم يكن كلامًا»[8] وكذلك فعل مع الحرف، إذ لا

---

[1] سيبويه : الكتاب ١ / ١٦٥.

[2] سيبويه : الكتاب ١ / ٢١٩.

[3] سيبويه : الكتاب ٢ / ٣٥١.

[4] سيبويه : الكتاب ٢ / ٣٦٤.

[5] سيبويه : الكتاب ١ / ٦٥.

[6] سيبويه : الكتاب ١ / ٣٤٣.

[7] Mosel, Die Syntaktische, Teriminologie, S. 12.

[8] سيبويه : الكتاب ١ / ١٤.

يحل محل فعل ولا اسم جنس فى سياق لغوى صحيح، فكانت أقسام الكلام عنده ثلاثة وهذا أساس منهجى منضبط يقوم على وصف المادة اللغوية وتصنيفها دون اعتماد على المعنى[1].

وسوف نعرض الآن لاستخدام سيبويه للنهج الاستبدالى فى إطار كل قسم من هذه الأقسام محددين العناصر الاستبدالية، ودور الاستبدال فى تحديد استخدامها اللغوى، ثم نتحدث عن تقارض الأقسام فى الاستبدال.

أولاً : الاسم :

استخدم سيبويه النهج الاستبدالى فى إطار قسم الاسم تحقيقًا لما يأتى :

١- تحديد الأنواع التى تنتمى إلى قسم الاسم، فعد كلمات الإشارة كلها والضمائر كلها أسماء لأن كلا منها يقع موقع الاسم الأصلى، ويقوم بوظيفته، وأمثلته شاهدة على ذلك[2] .

- أخوك عبد الله معروفًا.
- هذا عبد الله معروفًا.
- هو زيد معروفًا.

وعد اسم الفاعل فى الأسماء لأنه يقع موقع الاسم الأصلى أيضًا، يقول:

«ولو قال : آلدار أنت نازل فيها فجعل نازلاً اسمًا رفع كأنه قال :

آلدار أنت رجل فيها

«ولو قال : أزيد أنت ضاربه فجعله بمنزلة قولك :

---

[1] راجع فى تفصيل ذلك كتابى : الاسم والصفة فى النحو العربى والدراسات الأوروبية (الإسكندرية ١٩٩٢) ص ١٤ وما بعدها.

[2] سيبويه : الكتاب ٢ / ٧٨، ٨٠.

أزيد أنت أخوه، جاز»[1] .

وعدّ "أفْعل" فى الأسماء أيضًا؛ لأنها تقع موقع الاسم الأصلى، وهذا واضح من قوله : «ومما لا يكون فى الاستفهام إلا رفعًا قولك :

أعبد الله أنت أكرم عليه أم زيد

أعبد الله أنت له أصدق أم بشر كأنك قلت :

أعبد الله أنت أخوه أم عمرو»[2] .

وعدّ عددًا آخر من الكلمات الجامدة فى الأسماء لوقوعها موقع الاسم الأصلى أو لكونها تتم مع عنصر آخر كلامًا يحسن السكوت عليه، فقال فى الإشارة إلى اسمية المصدر : «وتقول : أزيد أنت له أشد ضربًا أم عمرو؟ ... فالمصدر ههنا كغيره من الأسماء كقولك : أزيد أنت له أطلق وجهًا أم فلان؟»[3] وقال فى الإشارة إلى اسمية الموصول وصلته : «كما أن "الذين فعلوا مع صلته" بمنزلة اسم»[4] ، وقال أيضًا : «والذى يأتينى بمنزلة عبد الله»[5] ، وقال فى الإشارة إلى اسمية "قط" : «لو لم تكن اسمًا لم تقل : قطك درهمان فيكون مبنيًا عليه»[6] ، وقال فى الإشارة إلى اسمية "حسب" : «واعلم أنهم إنما قالوا : حسبك درهم وقطك درهم فأعربوا حسب لأنها أشد تمكنًا»[7] ، وقال فى الإشارة إلى اسميه أن وصلتها : «إذا قلت : أخشى أن تفعل فكأنك قلت :

---

[1] سيبويه: الكتاب ١ / ١٠٩.

[2] السابق ١ / ١٣٢.

[3] السابق ١ / ١٣٢.

[4] السابق ١ / ١٨٦.

[5] السابق ٣ / ١٠٢.

[6] السابق ٣ / ٢٦٨.

[7] السابق ٣ / ٢٦٨، وانظر ١ / ٦٧.

أخشى فعلك، أفلا ترى أن "أن تفعل" بمنزل الفعل»[1] ، وقال : «وتقول : أذكر أن تلد ناقتك أحبُّ إليك أم أنثى كأنه قال : أذكر نتاجها أحب إليك أم أنثى»[2] ، وقال في الإشارة إلى اسمية أن ومعموليها : «وتقول : بلغنى أنك منطلق كأنك قلت : "بلغني ذاك"[3] ، وقال : «ألا ترى أنك تقول : بلغنى أن زيدًا جاء، فأن زيدًا جاء كله اسم»[4] .

٢- تحديد المواقع التى تتوارد عليها العناصر الاستبدالية فى سياقات محددة وهذه العناصر قد تكون مفردات أو عبارات أو جملاً.

- فمن ذلك قوله : «هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنه حال وقع فيه الأمر فانتصب لأنه موقوع فيه الأمر، وذلك قوله : قتلته صبرًا، ولقيته فجاءة، ومفاجأة، وكفاحًا ومكافحة ... وليس كل مصدر وإن كان فى القياس مثل ما مضى من هذا الباب يوضع هذا الموضع؛ لأن المصدر ههنا فى موضع فاعل إذا كان حالاً، ألا ترى أنه لا يحسن أتانا سرعة، ولا أتانا رحلة، كما أنه ليس كل مصدر يستعمل فى باب سقيا وحمدا»[5] .

- وقوله : «ومثل ذلك قولك للرجل : أحتتنا بغير شىء، أى : رائقًا»[6] .

- وقوله : «هذا باب ما ينتصب من الأسماء التى ليست بصفة ولا مصادر لأنه حال يقع فيه الأمر، وذلك قولك : كلمته فاه إلى فىّ، وبايعته يدًا

---

[1] سيبويه : الكتاب ٣ / ٦.

[2] السابق : ١ / ١٣١.

[3] السابق ٣ / ١١٩.

[4] السابق ٣ / ١١.

[5] السابق ١ / ٣٧٠.

[6] السابق : ٢ / ٣٠٣.

بيد كأنه قال : كلمته مشافهة وبايعته نقدًا، أى : كلمته فى هذه الحال»[1] .

– وقوله : «وتقول : لأضربنه ذهب أو مكث كأنه قال : لأضربنه ذاهبًا أو ماكثًا»[2] .

– وقوله : «ألا ترى أنك تقول : أنت الرجل أن تُنازل أو أن تخاصم كأنك قلت : نزالاً وخصومة»[3] .

– وقوله : «واعلم أن لا[4] وما عملت فيه فى موضع ابتداء، كما أنك إذا قلت : هل من رجل فالكلام بمنزلة اسم مرفوع مبتدأ، وكذلك ما من رجل، وما من شىء، والدليل على أن "لا رجل" فى موضع اسم مبتدأ، و«ما من رجل» فى موضع اسم مبتدأ فى لغة تميم قول العرب من أهل الحجاز : لا رجل أفضل منك، وأخبرنا يونس أن من العرب من يقول : ما من رجل أفضل منك، وهل من رجل خير منك»[5] ، ويقول : «وقال الخليل رحمه الله : يدلك على أن "لا رجل" فى موضع اسم مبتدأ مرفوع قولك : لا رجل أفضل منك كأنك قلت : زيد أفضل منك»[6] .

– وقوله : «وتقول هذا رجل ضربنا فتصف بها النكرة وتكون فى موضع ضارب إذا قلت هذا رجل ضارب»[7] .

– وقوله : «وتقول : كل رجل يأتيك فاضرب، نصب لأن يأتيك ههنا صفة فكأنك قلت : كل رجل صالح اضرب»[8] .

---

[1] سيبويه : الكتاب ١ / ٣٩١.

[2] السابق ٣ / ١٨٥.

[3] السابق ١ / ٣٩٠

[4] يقصد لا النافية للجنس.

[5] سيبويه : الكتاب ٢ / ٢٧٥ – ٢٧٦.

[6] السابق ٢ / ٢٩٣، وانظر ٢ / ٣١٧.

[7] السابق ١ / ١٦.

[8] السابق ١ / ١٣٦.

- وقوله : «لأنك إذا قلت : سواء عليّ أذهبت أم مكثت فهذا الكلام فى موضع سواء عليّ هذان»[1] .

- وقوله : «... وذلك قولك : يوم الجمعة ألقاك فيه، وأقل يوم لا ألقاك فيه، وأقل يوم لا أصوم فيه، وخطيئة يوم لا أصيد فيه، ومكانكم قمت فيه، فصارت هذه الأحرف ترتفع بالابتداء كارتفاع عبد الله، وصار ما بعدها مبنيًا عليها كبناء الفعل على الاسم الأول، فكأنك قلت : يوم الجمعة مبارك، ومكانكم حسن»[2] .

- وقوله : «وتقول : قد جربتك فوجدتك أنت أنت، فأنت الأولى مبتدأة والثانية مبنية عليها كأنك قلت : فوجدتك وجهُك طليق»[3] .

٣- بيان أثر استبدال علامة إعرابية بأخرى فى تغيير التركيب واختلاف تحليله:

- يقول : «وتقول : هذا من أعرف منطلق فتجعل أعرف صفة، وتقول : هذا من أعرف منطلقًا، تجعل أعرف صلة، وقد يجوز "منطلق" على حد قولك : هذا عبد الله منطلق»[4] .

- ويقول : «هذا باب يختار فيه الرفع، وذلك قولك : له علم علم الفقهاء، وله رأى رأى الأصلاء، وإنما كان الرفع فى هذا الوجه لأن هذه خصال تذكرها فى الرجل كالحلم والعلم والفضل، و لم ترد أن تخبر بأنك مررت برجل فى حال تعلم ولا تفهم، ولكنك أردت أن تذكر الرجل بفضل

---

[1] سيبويه : الكتاب ٣ / ٢٨٦.

[2] السابق ١ / ٨٤.

[3] السابق ٢ / ٢٥٩.

[4] السابق ٢ / ١٠٧.

فيه وأن تجعل ذلك خصلة قد استكملها كقولك : له حسب حسب الصالحين، وإن شئت نصبت فقلت : له علم علمَ الفقهاء كأنك مررت به فى حال تعلم وتفقه»[1] .

- ويقول : «وتقول : أما العلمُ فعالمٌ بالعلم، وأما العلمَ فعالمٌ بالعلم فالنصب على أنك لم تجعل العلم الثانى العلم الأول الذى لفظت به قبله كأنك قلت : أما العلم فعالم بالأشياء، وأما الرفع فعلى أنه جعل العلم الآخر هو العلم الأول، فصار كقولك : أما العلم فأنا عالم به، وأما العلم فما أعلمنى به، فهذا رفع لأن المضمر هو العلم فصار كقولك : أما العلم فحسن»[2] .

- ويقول : «... وهو قولك : دخلوا الأول فالأول على قولك : واحدًا فواحدًا، ودخلو رجلاً رجلاً، وإن شئت رفعت فقلت : دخلوا الأول فالأول جعله بدلاً وحمله على الفعل كأنه قال : دخل الأول فالأول»[3] .

- ويقول : «وتقول إن قريبًا منك زيدًا إذا جعلت "قريبًا منك" موضعه، وإذا جعلت الأول هو الآخر قلت : إن قريبًا منك زيد»[4] .

٤- بيان العناصر التى يمتنع استبدال بعضها ببعض فى سياق محدد.

- يقول : «ولا يكون أين إلا للأماكن كما لا يكون متى إلا للأيام والليالى .. وأجر "أين" فى الأماكن مجرى "متى" فى الأيام»[5] .

---

[1] سيبويه : الكتاب ١ / ٣٦١.

[2] السابق ١ / ٣٨٥.

[3] السابق ١ / ٣٩٨.

[4] السابق : ٢ / ١٤٢.

[5] السابق : ١ / ٢١٩ - ٢٢٠.

- ويقول مبينًا أن الاستبدال الصحيح لا يكون إلا فى إطار استبدالى صحيح : «هذا باب منه استكرهه النحويون وهو قبيح فوضعوا الكلام فيه على غير ما وضعت العرب، وذلك قولك : ويح له وتب، وتبًا لك وويحًا، فجعلوا التب بمنزلة الويح؛ وجعلوا ويح بمنزلة التب فوضعوا كل واحد منهما على غير موضعه الذى وضعته العرب، ولابد لويح مع قبحها أن تحمل على تب، فأما النحويون فيجعلونها بمنزلة ويح، ولا تشبهها، لأن تبًا تستغنى عن "لك"، ولا تستغنى ويح عنها»[1].

- ويقول : «والأسماء[2] لا تجرى مجري المصادر، ألا ترى أنك تقول : «هو الرجل علمًا وفقهًا ولا تقول هو الرجل خيلاً وإبلاً»[3].

- ويقول : «ولو قلت ائتنى ببارد كان قبيحًا، ولو قلت : ائتنى بتمر كان حسنًا ألا ترى كيف قبح أن يضع الصفة موضع الاسم»[4].

- ويقول : «ألا ترى أنك لو قلت : مررت بهو الرجل لم يجز ولم يحسن ولو قلت : مررت بهذا الرجل كان حسنًا جميلاً»[5].

ثانيًا : الفعل :

قبل أن نعرض للنهج الاستبدالى فى إطار قسم الفعل نود أن نشير إلى أن سيبويه حدد الإطار التوزيعى للأفعال بلزوم وقوعها بعد واحد من الحروف الآتية : إنْ، لو، قد، سوف، لمّا، لم، هلاّ، لولا، لوما، ألا، وحروف الاستفهام

---

[1] سيبويه : الكتاب ١ / ٣٣٤.

[2] يقصد بالأسماء هنا أسماء الأجناس، والمصادر عنده أسماء.

[3] سيبويه : الكتاب ١ / ٣٨٧.

[4] السابق ١ / ٢٦٩، والصفة عنده نوع من الأسماء، انظر كتابى : الاسم والصفة فى النحو العربى، ص ٣٩.

[5] سيبويه : الكتاب ٢ / ٨٨.

فى أصل الاستخدام فإن استخدم اسم بعدها كان على إضمار فعل، يقول سيبويه : «ولو بمنزلة إنْ، لا يكون بعدها إلا الأفعال، فإن سقط بعدها اسم ففيه فعل مضمر فى هذا الموضع تبنى عليه الأسماء، ومن ذلك قول العرب : ادفع الشر ولو إصبعا، كأنه قال : ولو دفعته إصبعًا، ولو كان إصبعًا»[1] ، ويقول : «وذلك أن من الحروف حروفًا لا يذكر بعدها إلا الفعل، ولا يكون الذى يليها غيره مظهرًا أو مضمرًا، فمما لا يليه الفعل إلا مظهرًا : قد، وسوف، ولما، ونحوهن، فإن اضطر شاعر فقدم الاسم وقد أوقع الفعل على شيء من سببه لم يكن حد الإعراب إلا النصب، وذلك نحو : لم زيدًا اضربه، لأنه يضمر الفعل إذا كان ليس مما يليه الاسم ... وأما ما يجوز فيه الفعل مظهرًا ومضمرًا، مقدمًا ومؤخرًا ولا يستقيم أن تبتدأ بعده الأسماء : فهلا ولولا، ولوما وألا ... وحروف الاستفهام كذلك لا يليها إلا الفعل، إلا أنهم توسعوا فيها فابتدءوا بعدها الأسماء، والأصل غير ذلك، ألا تراهم يقولون : هل زيد منطلق؟... فإن قلت هل زيدًا رأيت وهل زيد ذهب قبح، ولم يجز إلا فى الشعر؛ لأنه لما اجتمع الاسم والفعل حملوه على الأصل»[2] .

ولقد كان استخدام سيبويه للنهج الاستبدالى فى إطار قسم الفعل تحقيقًا لما يأتى :

١- بعد أن بين سيبويه أنواع الفعل الثلاثة : الماضى والمضارع والأمر بذكر الصيغ الأصلية التى يرد عليها كل نوع منها ولا يرد عليها الآخر[3] بين أن الأمر منها لا يقع موقع الماضى، وأن الماضى منها لا يقع موقع المضارع

---

[1] سيبويه : الكتاب ١ / ٢٦٩ - ٢٧٠.

[2] السابق ١ / ٩٨ - ٩٩.

[3] السابق ١ / ١٢.

فى أصل الاستخدام، يقول : «والوقف قولهم : "اضرب" فى الأمر، لم يحركوها لأنها لا يوصف بها، ولا تقع موقع المضارعة»[1] ، ويقول : «ولا يجوز فعلت فى موضع أفعل إلا فى مجازاة»[2] ، ويقول فى موضع آخر : «وتقول : إن فعل فعلت فيكون فى معنى : إن يفعل أفعل»[3] ، لكن سيبويه يتنبه إلى أن الماضى يستخدم استخدام المضارع خروجًا على الأصل لغرض أسلوبى فيقول : «... كما تقول : والله لا فعلت ذاك أبدًا تريد معنى لا أفعل»[4] .

٢- لبيان أن للأفعال الناقصة القيمة التركيبية التى للأفعال التامة فى سياقات محددة، مع التنبيه إلى الفرق بينهما، يقول : «... وإن شئت قلت : كان أخاك عبد الله، فقدمت وأخرت كما فعلت ذلك فى ضرب لأنه فعل مثله، وحال التقديم والتأخير فيه كحاله فى ضرب إلا أن اسم الفاعل والمفعول فيه لشىء واحد، وتقول : كنّاهم كما تقول : ضربناهم، وتقول: إذا لم نكنهم فمن ذا يكونهم كما تقول إذا لم نضربهم فمن يضربهم»[5] ، ويقول : «وتقول : من كان أخاك ومن كان أخوك، كما تقول : من ضرب أباك إذا جعلت مَنْ الفاعل ومن ضرب أبوك إذا جعلت الأب الفاعل، وتقول ما كان أخاك إلا زيد كقولك : ما ضرب أخاك إلا زيد»[6] .

---

(1) سيبويه : الكتاب ١ / ١٧.

(2) السابق ٣ / ٥٥.

(3) السابق ١ / ١٦.

(4) السابق ٣ / ١٠٨.

(5) السابق ١ / ٤٥ - ٤٦.

(6) السابق ١ / ٥٠.

٣- لبيان أن ثمة أفعالاً تقع فى سياقات محددة ولا تقع فى سياقات أخرى، يقول: «... وذلك أنه لا يجوز لك أن تقول للمخاطب اضربك، ولا اقتلك، ولا ضربتك، لما كان المخاطب فاعلاً وجعلت مفعوله نفسه قبح ذلك؛ لأنهم استغنوا بقولهم اقتل نفسك وأهلكت نفسك عن الكاف ههنا وعن إياك»[(١)] ، ويقول : «... لو قلت : يظن نفسه فاعلة وأظن نفسى فاعلة، على حد يظنيه وأظننى ليجزئ هذا من ذا لم يجزئ كما أجزأ أهلكت نفسك عن أهلكتك فاستغنى به عنه»[(٢)] ، ويقول وإذا أردت برأيت رؤية العين لم يجز رأيتنى لأنها حينئذ بمنزلة ضرب»[(٣)] .

٤- لاختبار تعدى الفعل إلى مفعولين أو إلى مفعول واحد، ولكى يصل إلى حكم صحيح استبدل بالفعل فعلاً لازمًا نصب اسمًا بعد استيفاء فاعله فانتهى إلى الحكم بنفى مفعوليته يقول : «... وذلك قولك : ضربت عبد الله قائمًا، وذهب زيد راكبًا، فلو كان بمنزلة المفعول الذى يتعدى إليه فعل الفاعل نحو عبد الله وزيد ما جاز فى ذهبت»[(٤)] .

٥- للنظر فى علاقة الحالة الإعرابية بالمعنى فى سياق محدد، ولكى يصل إلى تحديد هذه العلاقة استبدل حالة الجزم فى الفعل فى سياق محدد بحالة النصب، ثم بحالة الرفع، يقول : «وتقول : كتبت إليه أن لا تقل ذاك، وكتبت إليه أن لا يقول ذاك، وكتبت إليه أن لا تقول ذاك، فأما الجزم فعلى الأمر، وأما النصب فعلى قولك : لئلا يقول ذاك، وأما الرفع فعلى

---

(١) سيبويه : الكتاب ٢ / ٣٦٦.

(٢) السابق ٢ / ٣٦٧.

(٣) السابق ٢ / ٣٦٨.

(٤) السابق ١ / ٤٤.

معنى قولك : لأنك لا تقول ذاك، أو بأنك لا تقول ذاك، تخبره بأن ذا قد وقع من أمره»[1] .

ثالثًا : الحرف :

والحرف المقصود هنا قسمًا من أقسام الكلم ليس حرف مبنى، بل هو حرف معنى، فالاستبدال يجرى على حروف المعانى، أما الإبدال فعلى حروف المبانى وقد استخدم سيبويه النهج الاستبدالى فى إطار هذا القسم تحقيقًا لما يأتى:

١-لبيان الاختلاف فى التحليل النحوى إذا وقعت "إنْ" موقع "إما" فى سياق محدد، يقول : «وما يجرى ما بعدها ههنا على الابتداء وعلى الكلام الأول، ألا ترى أنك تقول قد كان ذلك إما صلاحًا وإما فسادًا كأنك قلت : قد كان ذلك صلاحًا أو فسادًا ولو قلت : قد كان ذلك إن صلاحًا وإن فسادًا كان النصب على كان أخرى»[2] .

٢-لبيان أن استبدال الفاء بالواو فى سياق محدد يفسد المعنى، يقول : «وتقول لا تأكل السمك وتشرب اللبن، فلو أدخلت الفاء ههنا فسد المعنى، وتقول: لا يسعنى شيء ويعجز عنك فانتصاب الفعل ههنا من الوجه الذى انتصب به فى الفاء إلا أن الواو لا يكون موضعها فى الكلام موضع الفاء»[3] .

٣-لبيان أن حرفا ما يستخدم فى سياق محدد لا يستبدل به غيره وإن كان من نوعه يقول : «وقالوا يا للعجب ويا للماء .. وكل هذا فى معنى التعجب والاستغاثة، و لم يلزم فى هذا الباب إلا "يا" للتنبيه ... ولا يكون مكان

---

[1] سيبويه : الكتاب ٣ / ١٦٦.

[2] السابق ١ / ٢٦٨.

[3] السابق ٣ / ٤٢ - ٤٣.

"يا" سواها من حروف التنبيه نحو أى، وهيـا، وأيا لأنهـم أرادوا أن يميزوا هذا من ذلك الباب الذى ليس فيه معنى استغاثة ولا تعجب»[1] .

تقارض الأقسام فى الاستبدال :

ونعنى به استبدال عنصر لغوى ينتمى إلى قسم من أقسام الكلم بعنصـر لغوى ينتمى إلى قسم غيره فى سياق لغوى صحيح، وذلك على النحو الآتى :

١- استبدال المضارع باسم الفاعل، ويعلل سيبويه صحـة هـذا الاسـتبدال فـى سياق محدد بقوله : «وإنما ضارعت أسماء الفاعلين أنك تقول : إن عبد الله ليفعل فيوافق قولك : لفاعل، حتى كأنك قلت : إن زيدًا لفاعل فيما تريـد من المعنى، وتلحقه هذه اللام، ولا تلحق فَعَل اللام»[2] ، وينبـه سـيبويه إلى أن وقوع المضارع موقع اسم الفاعل لا يعنى أنه أصبح اسمًا بقوله : «ويبين لك أنها ليست أسماء أنك لو وضعتها موضع الأسماء لم يجز ذلك، ألا تـرى أنك لو قلت: إن يضرب يأتينا وأشباه هذا لم يكن كلامًا»[3] .

٢- استبدال المضارع فى سياق محـدد بـالمصدر، واسـتبدال المصـدر بـه يقـول سيبويه : «كأنه إذا قال : هنيئًا له الظفر فقـد قـال : ليهنـئ لـه الظفـر وإذا قال: ليهنئ له الظفر فقد قال : هنيئًا له الظفر، فكل واحد منهما بـدل مـن صاحبه»[4] .

ولعل هذا هو الموضع الوحيد الذى استخدم فيه سيبويه لفظ "بدل" فى الدلالة على استبدال عنصر لغوى بآخر[5] .

---

[1] سيبويه : الكتاب ٢ / ٢١٧ - ٢١٨.

[2] السابق ١ / ١٤.

[3] السابق ١ / ١٤ - ١٥، وانظر ١ / ٢٠، ١٣٠، ١٦٤، ج٢، ص ١٣٢.

[4] سيبويه : الكتاب ١ / ٣١٧.

[5] قارن هذا بـ Troupeau, p. 37.

٣- **استبدال اسم الفاعل بالماضي في سياق محدد**، يقول سيبويه : «... وهذا شبيه في النصب لا في المعنى بقوله تبارك وتعالى : جاعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا، لأنه حين قال : جاعل الليل فقد علم القارئ أنه على معنى جعل، فصار كأنه قال : وجعل الليل سكنًا، وحمل الثاني على المعنى»[1] .

٤- **استبدال الاسم بالحرف في سياق محدد** : يقول : وكل موضع جاز فيه الاستثناء بـ "إلا" جاز بغير، وجرى مجرى الاسم الذي بعد إلا لأنه اسم بمنزلته وفيه معنى إلا»[2] .

٥- **استبدال الحرف بالاسم في سياق محدد**، يقول : «واعلم أن "لا" قد تكون في بعض المواضع بمنزلة اسم واحد هي والمضاف إليه ليس معه شيء، وذلك نحو قولك : أخذته بلا ذنب، وأخذته بلا شيء، وغضبت من لا شيء، وذهبت بلا عتاد، والمعنى ذهبت بغير عتاد، وأخذته بغير ذنب[3] .

٦- **استبدال الحرف بالفعل في سياق محدد** : يقول سيبويه : «وذلك قولك : ليس زيد ذاهبًا، ولا أخوك منطلقًا، وكذلك ما زيد ذاهبًا ولا معن خارجًا»[4] ، وقد نبه سيبويه إلى أن "ما" لا تقع في كل سياق ترد فيه ليس فقال : «كما أن ما لم تقو قوة ليس، ولم تقع في كل مواضعها»[5] .

---

(1) سيبويه : الكتاب ١ / ٣٥٦.

(2) السابق ٢ / ٣٤٣.

(3) السابق : ٢ / ٣٠٢.

(4) السابق ١ / ٦٠.

(5) السابق ١ / ١٢٢ - ١٢٣.

(٤)

ظاهر مما قدمنا أن النهج الاستبدالي عند سيبويه أساس منهجي منضبط فى التحليل النحوى استطاع به أن يحدد الأقسام الموقعية الكبرى بتقسيمه للكلم إلى ثلاثة أقسام، ثم عاد إلى كل قسم فبيّن بهذا النهج أنواعه، والعلاقات الاستبدالية بين كل نوع، والإطار التوزيعى له، وصولاً إلى تحديد العناصر الاستبدالية التى يمكن أن يحل أحدها محل الآخر فى سياق كلامى محدد، والعناصر غير الاستبدالية التى لا يمكن لأحدها أن يحل محل الآخر، ولم تكن العناصر الاستبدالية عنده مقتصرة على العناصر المفردة، بل امتدت لتشمل أنواعًا من الضمائم والجمل.

وقد استطاع بالاستبدال أيضًا أن يحدد المواقع الوظيفية التى تشغلها هذه العناصر الاستبدالية، ولم يغفل العلامة الإعرابية ولا الحالة الإعرابية، بوصفهما عنصرين قابلين للاستبدال فى لغة معربة وبيان أثر استبدال علامة إعرابية بأخرى، أو حالة إعرابية بأخرى، فى تغير التركيب مع صحته أو فساده، ثم تغير التحليل النحوى تبعًا لذلك، وقد عنى سيبويه أيضًا بما اصطلحنا عليه بتقارض الأقسام فى الاستبدال فبين أن نوعًا من الأفعال قد يستبدل بنوع من الأسماء، وأن اسمًا قد يستبدل بحرف، وأن حرفًا قد يستبدل باسم، وأن حرفًا قد يستبدل بفعل فى سياقات لغوية محددة، ولكنه نبه إلى أن ذلك لا يعنى انتقال العنصر اللغوى من القسم الذى ينتمى إليه إلى القسم الذى وقع معه فى علاقة استبدالية، فذلك أمر مشروط بسياق محدد ورد به الاستعمال لا يجوز فى غيره.

ولا يظنَّنَّ ظانٌّ أننا نحمل على سيبويه تصورًا حديثًا لم يخطر له ببال، فما عرضنا شيئًا من هذا النهج إلا موثقًا بنصوص سيبويه، ومن البدهى أن

سيبويه لم يعرض جوانب هذا النهج، على النحو الذى فصلناه فى موضع واحد من كتابه، و لم يستخدم ما استخدمناه من مصطلحات، ذلك بأنه -كما قلنا- لم يعن ببيان الأسس المنهجية التى يصدر عنها، فلم يضطر إلى وضع مصطلحات لها، بل عمد إلى الاستخدام العملى المباشر لهذه الأسس مراوحًا بينها فى كثير من الأحيان، ويمكننا أن نقول : إن ما قدمناه فى هذا البحث هو "إعادة تركيب" لهذا النهج الشائع فى كتابه فى مواضع متناثرة متباعدة بعد أن قرأنا كتابه كله قراءة مستأنية متأملة ولعل من المفيد الآن أن نقارن بين تصور التوزيعيين لهذا النهج وتصور سيبويه له مبينين أوجه الالتقاء وأوجه الافتراق :

أولاً : أوجه الالتقاء :

١-يلتقى التوزيعيون وسيبويه فى الاعتماد على الأساس الشكلى البعيد عن الأسس العقلية المفترضة والنواحى الدلالية، وكثيرًا ما ترد كلمة المعنى عند سيبويه دالة على المعنى التركيبى لا الدلالى، والمعنى التركيبى structural meaning مصطلح معروف عند الوصفيين من علماء اللغة[1].

٢-الاستبدال عند كل منهما نهج أساسى للوصول إلى تحديد العناصر اللغوية وبيان توزيعها ومواقع استبدالها.

٣-يلتقى كل منهما فى أن العناصر الاستبدالية هى العناصر الموقعية التى تتوارد على موقع وظيفى واحد فى سياق كلامى محدد.

٤-من اليسير أن نجد للأنماط التوزيعية الثلاثة نظائر فى كتاب سيبويه، فكل فرد من أفراد اسم الجنس عنده مثلاً معادل توزيعى للآخر، وبين اسم الجنس أو علم الشخص عند سيبويه مثلاً والضمير علاقة اشتمال إذ يقع

(1) Fries, C.C. : The structure of English, New York, 1952, p. 106, 173 ff.

كل منهما فى كل المواقع التى يقع فيها الضمير، ولا يقع الضمير فى كل المواقع التى يقع فيها اسم الجنس أو علم الشخص، فهما مثلاً يوصفان ولا يوصف الضمير، وبين اسم الجنس واسم الفاعل مثلاً توزيع متقاطع، إذ يمكن أن يقعا فى سياق لغوى واحد حينًا، ولا يمكن ذلك فى حين آخر، وبين أين مثلاً ومتى توزيع متكامل حين يكون الأول استفهامًا عن المكان والثانى استفهامًا عن الزمان ولا يقع أى منهما فى سياق يقع فيه الآخر[1] .

٥- يظهر الفرق بين الاستبدال عند سيبويه أساسًا منهجيًا، والإبدال أو البدل عنده ظاهرة صوتية أو صرفية، أو صوتية صرفية، وبعض هذا الفرق ملحوظ عندهم بين المصطلحين substitution وmutation.

ثانيًا : أوجه الافتراق :

١- التوزيعية مذهب متكامل له أصوله النظرية وإجراءاته العملية ومصطلحاته المحددة، والاستبدال فيه يقوم بدور أساسى فى تقطيع الكلام إلى المورفات، وهى الوحدات الصغرى للكلام عندهم، وتصنيفها وتجميعها فى مورفيمات، وتصنيف المورفيمات وتجميعها فى أنواع، ثم تجميع أنواع المورفيمات فى أقسام موقعية، أما الاستبدال فى كتاب سيبويه فهو أساس من أسس منهجية تعمل معًا جنبًا إلى جنب، وهو يبدأ مباشرة بالأقسام الموقعية دون نظر إلى المراحل التى قبلها من التقطيع والتصنيف والتجميع، والحق أن ما قام به التوزيعيون أمر يقتضيه إحكام المنهج وتحليل الجملة إلى أصغر عناصرها، لكن ليس له أثر يذكر فى صحة الاستبدال إذا وصلنا إلى الأقسام الموقعية الصحيحة دون شرح للمراحل التى تسبقها فقد وصل

---

[1] انظر كتابى : الاسم والصفة فى النحو العربى والدراسات الأوروبية ص ٢٤ وما بعدها.

سيبويه إلى الأقسام الموقعية دون مرور بالوحدات الصغرى و لم يؤد ذلك إلى خطأ فى النهج الاستبدالى عنده.

٢- استخدم التوزيعيون مصطلحات محددة لهذا النهج، أهمها :

- الاستبدال Substitution
- البديل Substitute
- المجموعة الاستبدالية Substitution Class
- الإطار الاستبدالى Substitution Frame
- الجدول الاستبدالى Substitution table
- الاختبار الاستبدالى Substitution test

... إلخ كما استخدموا مصطلحات لبيان أنماط التوزيع هى :

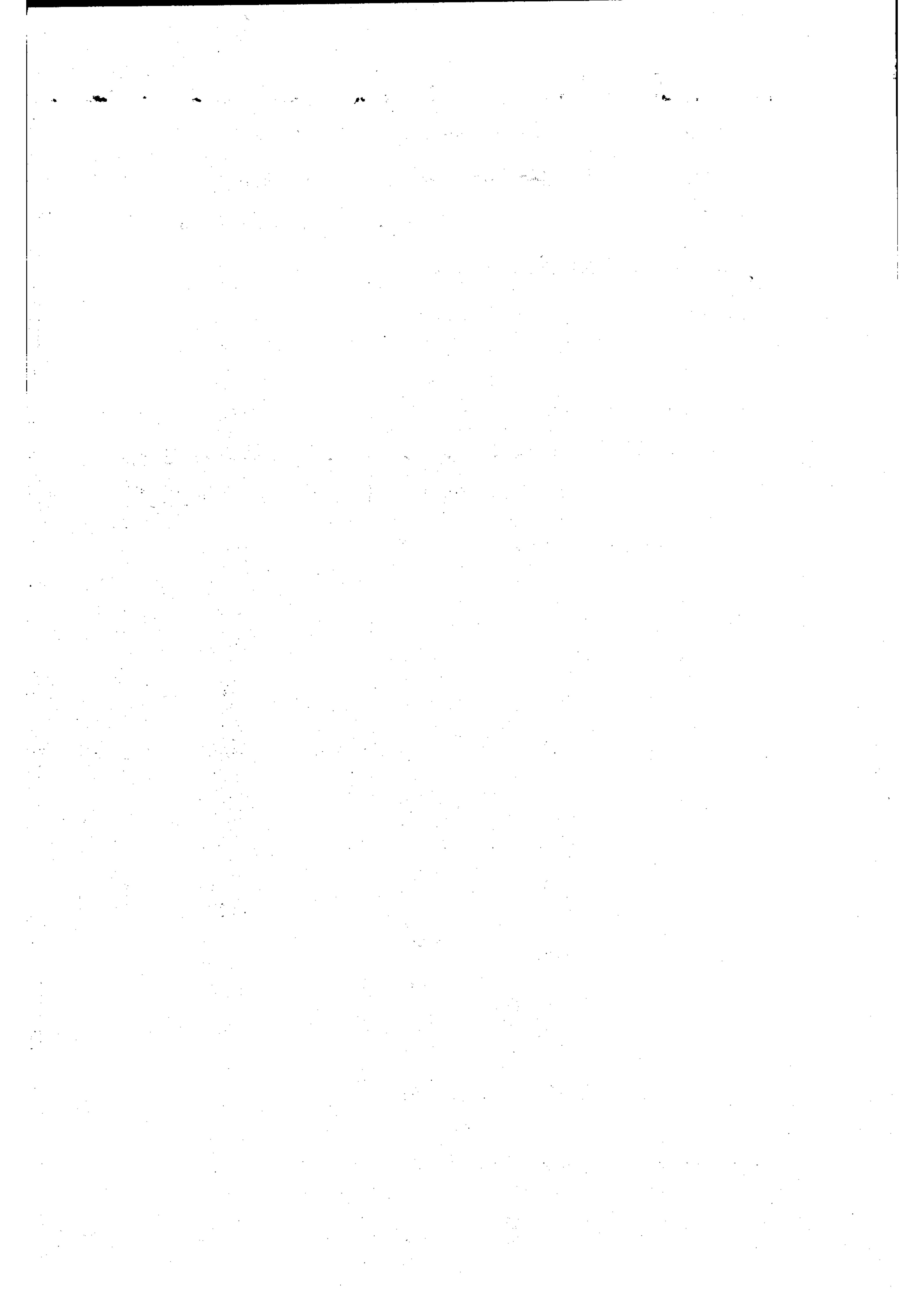
- المعادل التوزيعى distributional equivalent
- التوزيع التقابلى Contrastive
- التوزيع الاشتمالى inclusive
- التوزيع التكاملى complemcntary

أما سيبويه فلا نكاد نظفر عنده من بين كلمات كثيرة غير محددة إلا بمصطلحين اثنين أحدهما الموقع وهو يقابل position أو الوظيفة function، والآخر التعاقب / المعاقبة، وهو يوافق التوزيع التكاملى complementary من هنا مكان لزامًا علينا ونحن نعرض للنهج الاستبدالى عنده أن نستخدم مصطلحات التوزيعيين إذا انطبقت على ما يقدمه سيبويه من وصف للمادة اللغوية وتحليل لها.

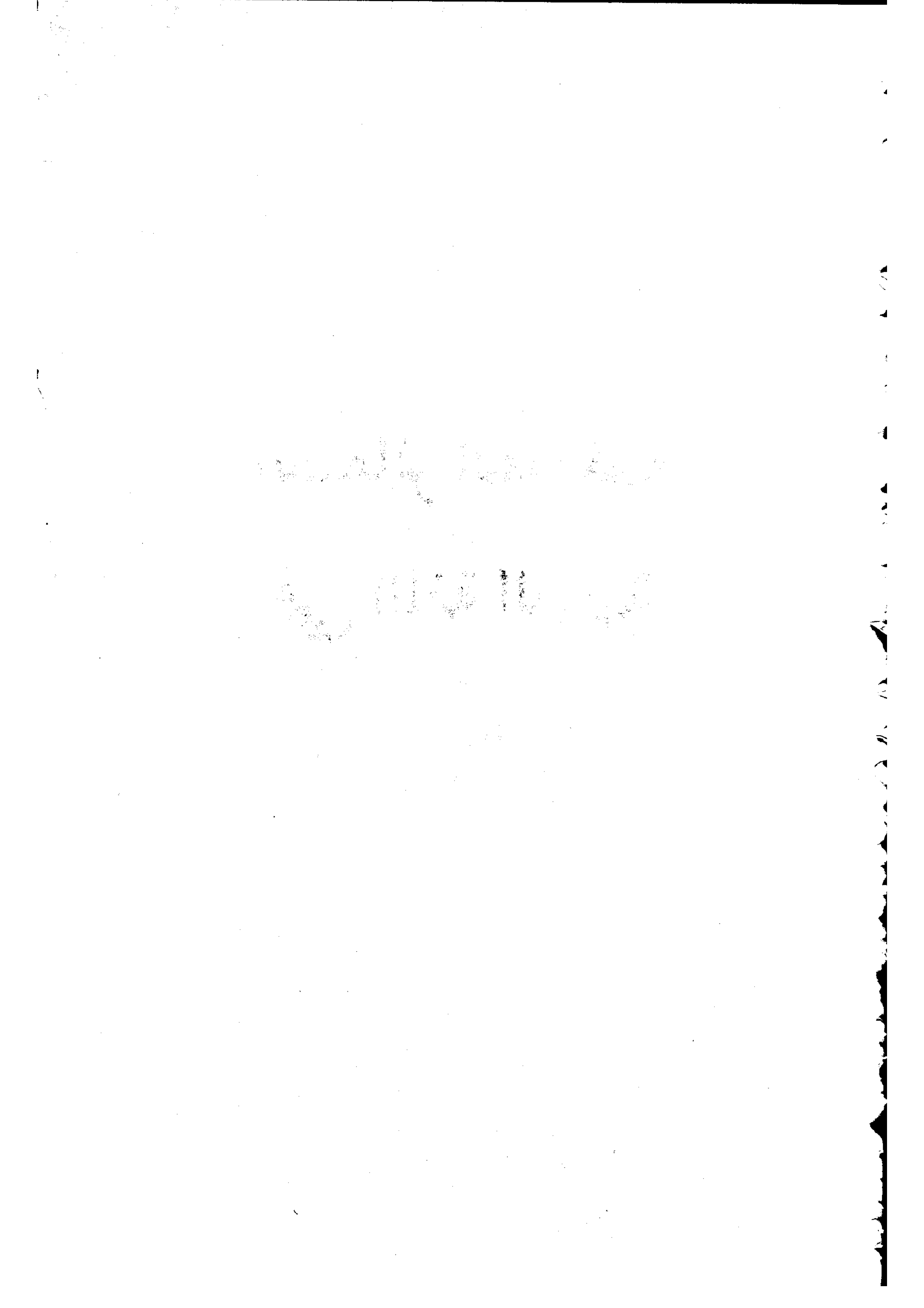
٣- الغاية من النهج الاستبدالى فى إطاره التوزيعى واضحة عند التوزيعيين وتتمثل فى الوصول إلى تحليل دقيق للجملة يحقق مبدأين أساسيين هما : بساطة الوصف والتحليل والاقتصاد فيه.

ولا يظهر من استخدام سيبويه لهذا النهج أن تلك غايته بل تنحصر غايته فى حل مشكلات جزئية كثيرة تعرض لأجزاء التركيب لا تبلغ أن تكون منهجًا واضحًا متكاملاً فى تحليل الجملة.

وبعد، فالنظر فى الأوجه التى التقى فيها سيبويه بالفكر اللغوى المعاصر يدل دلالة قاطعة على أن سيبويه سبق عصره بقرون عديدة، وأنه يتبوأ مكانة مرموقة فى تاريخ الفكر اللغوى العالمى.



الضمائر المنعكسة
فى اللغة العربية



لا يزال الدرس النحوى العربى القديم فى حاجة إلى قراءة معاصرة تفيد من اتجاهات الدرس الحديث، ومناهجه، وطرائقه فى رصد الظواهر اللغوية، ومعالجتها على نحو مضبوط، ويمكن الكشف بها عن ظواهر لم يعرض لها النحاة القدماء ومن صدر عن منهجهم من المحدثين، أو عرضوا لها ولكن لم يوفوها حقها من البحث الكاشف لها والمحيط بها. وليس من شك فى أن أجيالاً من الباحثين -وبخاصة من اتصل منهم بعلم اللغة الحديث دراسة وفهمًا- حاولوا، ويحاولون الآن الإفادة من جهود علماء اللغة المحدثين فى أوربا وأمريكا فى تجديد نظرتهم لتراثنا النحوى كله، والكشف عن كنوزه المخبوءة، وإثرائه، والإضافة إليه، وإبراز عناصر القوة فيه، وإصلاح ما قد يكون فيه من جوانب النقص والقصور.

والنحاة العرب لم يعرفوا مصطلح "الضمائر المنعكسة" reflexive pronouns وإن عرفوا بعض ما يدخل فيه، ويندرج تحته، وعرفه نحاة بعض اللغات الأخرى، واستخدموا لما يدل عليه مصطلحًا بديلاً هو "الأفعال المنعكسة"[(١)] reflexive verben وهم يرون أن الضمير يكون منعكسًا إذا كان مفعولاً للفعل، متحدًا coreferential مع الفاعل أو عائدًا إليه[(٢)]، والأفعال المنعكسة عندئذ هى الأفعال التى يكون معها الفاعل والمفعول به متطابقين أو عائدين إلى شخص واحد[(٣)].

وقد عرف نحاة العربية هذه الظاهرة من خلال درسهم لما أسموه "أفعال القلوب" وهى عند بعضهم سبعة أفعال: ظن، وحسب، وخال، وزعم، وعلم

---

(١) Gerbe, P.: Grammatik der deutschen Gegenwartssprache Duden 4 (Mannheim 1973) S. 75.

(٢) Perlmutter, D. & Soames, S. Syntactic Argumentation and the Structure of English (U.S.A. 1979) p.9.

(٣) Helbig, G. & Deutsche Grammatik (Leipzig 1980) S. 65.

(إذا لم تكن بمعنى عرف)، ورأى (إذا لم ترد رؤية العين)، ووجد (إذا لم ترد وجدان الضالة)[1]. وأضاف إليها بعضهم "عدم"، و"فقد" إذا كانتا للدعاء، و"هَبْ" (بمعنى احسب)[2] وذكروا أن من خصائصها "أنك تجمع فيها بين ضميرى الفاعل والمفعول فتقول : علمتُنى منطلقًا ووجدتَكَ فعلت كذا، ورآه عظيمًا، وقد أجرت العرب عدمت وفقدت مجراها، فقالوا : "عدمتُنِى وفقدتُنِى"[3]. ولما كان هذا من خصائص "أفعال القلوب" فقد نصوا على أن ذلك لا يجوز فى غيرها، بل يتوصل إلى التعبير عن هذا المعنى فى غير افعال القلوب بطريقة أخرى سنعرض لها.

ونود قبل الخوض فى وصف هذه الظاهرة تركيبيًا ودلاليًا أن نعرض لما جاء عنها فى كتب النحو العربى، لنقف على ما وصلوا إليه فيها، ونعرف أى مدى بلغوه فى الكشف عنها والإحاطة بها :

جاء فى كتاب سيبويه : «هذا باب لا تجوز فيه علامة المضمر المخاطب، ولا علامة المضمر المتكلم، ولا علامة المضمر المحدث عنه الغائب، وذلك أنه لا يجوز لك أن تقول للمخاطب : اضربْكَ، ولا اقتُلْكَ، ولا ضربْتَكَ، لما كان المخاطب فاعلاً وجعلت مفعوله نفسه قبح ذلك، لأنهم استغنوا بقولهم اقتُل نفسك وأهلكتَ نفسَك، عن الكاف ها هنا وعن إياك.

وكذلك المتكلم، لا يجوز له أن يقول أهلكتُنِى ولا أُهْلِكُنى لأنه جعل نفسه مفعوله فقبح، وذلك لأنهم استغنوا بقولهم أنفع نفسى عن "نى"، وعن "إياى".

---

[1] سيبويه : الكتاب. تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة ١٩٦٦-١٩٨٧) ٣٦٧/٢، الزمخشرى: المفصل فى علم العربية (بيروت د.ت) ص ٢٥٩.

[2] الزمخشرى : المفصل ص ٢٦٢، الرضى : شرح الكافية لابن الحاجب (القاهرة ١٣١٠هـ) ٢٨٥/٢.

[3] الزمخشرى : المفصل ص ٢٦٢.

وكذلك الغائب لا يجوز لك أن تقول ضربه إذا كان فاعلاً وكان مفعوله نفسه، لأنهم استغنوا عن الهاء وعن إيا بقولهم ظلم نفسه وأهلك نفسه، ولكنه قد يجوز ما قبح ها هنا فى حسبت وظننت وخلت، وأرى وزعمت، ورأيت إذا لم تعن رؤية العين، ووجدت إذا لم ترد وجدان الضالة، وجميع حروف الشك، وذلك قولك حسبتُنى وأرانى ووجدتُنِى فعلت كذا وكذا، ورأيتُنى لا يستقيم لى هذا، وكذلك ما أشبه هذه الأفعال، تكون حال علامات المضمرين المنصوبين فيها إذا جعلت فاعليهم أنفسهم كحالها إذا كان الفاعل غير المنصوب.

ومما يثبت علامة المضمرين المنصوبين هاهنا أنه لا يحسن إدخال النفس هاهنا، لو قلت يظن نفسه فاعلة وأظن نفسى فاعلة على حد يظنه وأظننى ليجزئ هذا من ذا لم يجزئ كما أجزأ أهلكت نفسك عن أهلكتك، فاستغنى به عنه ... وإذا أردت برأيت رؤية العين لم يجز رأيتُنِى، لأنها حينئذ بمنزلة ضربت»[1].

وجاء فيه أيضًا : «ولا يجوز أن تقول ضربتُنِى، ولا ضربتُ إياى، لا يجوز واحدٌ منهما لأنهم استغنوا عن ذلك بضربتُ نفسى، وإياى ضربتُ»[2].

هذان النصان النفيسان من كتاب سيبويه تردد صداهما من بعد فى كتب النحاة الخالفين، وأضاف بعضهم إلى ما جاء فيهما تفصيلات من الأهمية بمكان، سنعرض لها إن شاء الله.

ويمكننا أن نلحظ فى كلام سيبويه ما يأتى :

---

(1) سيبويه : الكتاب ٢ / ٣٦٦ – ٣٦٨.

(2) السابق ٢ / ٣٦٦.

١- فهم سيبويه ظاهرة "الانعكاس" كما فهمها نحاة الغرب، دون أن يضع لها مصطلحًا خاصًا كما فعلوا، بل جعلها جزءًا من تعديه الفعل إلى المفعول، فالرجل يدرك ما حددوا به معنى "الانعكاس" وهو أن يوقع الفاعل الفعل بنفسه، فيكون الفاعل مفعولاً به، وعبارته صريحة فى ذلك : «... لما كان المخاطب فاعلاً، وجعلت نفسه مفعوله ...»، «... لا يجوز له أن يقول أهلكتُنِى ولا أُهلِكُنى لأنه جعل نفسه مفعوله ...».

٢- حدد سيبويه الضمائر التى تحمل هذا المعنى بضمائر النصب والجر المتصلة وهى ياء المتكلم وكاف المخاطب، وهاء الغائب، ثم "إيا" مقدمة مضافًا إليها ضمائر التكلم والخطاب والغيبة، واستبعد بذلك أن تحمل ضمائر الرفع هذا المعنى، ومثل هذا نجده عند نحاة الألمانية، إذ ينصون على أن الضمائر المنعكسة لا تستخدم إلا فى حالتى النصب والجر، ولا يمكن أن تستخدم فى حالة الرفع[1].

٣- ذكر سيبويه أن هذه الضمائر ترد مباشرة مع بعض الأفعال، وقد ترد مسبوقة بكلمة "نفس" أو "إيا"، وواضح أن سيبويه يسوى بين قولك : ضربتُ نفسى، وإياى ضربتُ، ومع أنه يمنع : ضربتُ إياى، فقد أورد فى موضعين من كتابه شاهدًا يدل على استخدامه، وهو قول ذى الإصبع العدوانى :

كَأَنَّا يَوْمَ قُرَّى إِ ... نَّمَا نَقْتُلُ إِيَّانَا[2]

أى : نقتل أنفسنا، وقد حمل سيبويه هذا الشاهد على الضرورة.

---

(1) Grebe, P. Grammatik der deutschen Gegenwartssprache Duden 4 S. 276.

(2) سيبويه : الكتاب ٢ / ١١١، ٣٦٢، والرضى : شرح الكافية ٢ / ١٤.

٤- ما ذكره سيبويه يدل على أن الأفعال مع الضمائر المنعكسة تتصرف تصرفها مع غيرها فترد ماضية، ومضارعة، وأفعال أمر، وقريب من ذلك موجود فى غير العربية أيضًا كاللغة الألمانية، فإن الأفعال المنعكسة فيها تستخدم من حيث الزمن Tempus ودلالة الصيغة Mudus استخدام الأفعال غير المنعكسة[1].

٥- عرض سيبويه لتوزيع[2] هذه الضمائر محددًا استخدامها الصحيح والمواضع التى تخرج فيها على الصحة النحوية، ويمكننا أن نوضح ذلك على النحو الآتى:

(١) أ - *(أنا) ضربتُنِى.
ب- *(أنت) ضربتَكَ.
ج- * (هو) ضربَهُ.

(٢) أ- (أنا) ضربتُ نفسِى (إياى ضربتُ).
ب- (أنت) ضربتَ نفسك (إياك ضربتَ).
ج- (هو) ضربَ نفسه (إياه ضَرَبَ).

(٣) أ - *(أنا) ظننتُ نفسى مجتهدًا.
ب- * (أنت) ظننتَ نفسَك مجتهدا
ج- * (هو) ظنّ نفسَه مجتهدا

(٤) أ- (أنا) ظننتُنى مجتهدا
ب- (أنت) ظننتَكَ مجتهدا
ج- (هو) ظنَّهُ مجتهدا

---

(١) Helbig & Buscha : Deutsche Grammatik, S. 176.

(٢) انظر فى توزيع الضمائر المنعكسة وغير المنعكسة فى اللغة الإنجليزية :
Perlmutter & Soames : Syntactic Argumentation, p. 8.

بمقارنة هذه المجموعات يتضح أن الضمائر المتصلة التى تتحد مع الفاعل أو تعود إليه نوعان : ضمائر مسبوقة بكلمة نفس، وضمائر غير مسبوقة بها، وحيث تجوز هذه لا تجوز تلك، وهى فى الحالة الثانية مفعول مباشر للفعل، وفى الحالة الأولى انتقل حكم الضمير إلى كلمة نفس، فوقعت مفعولاً به، وأضيف الضمير إليها، والأفعال التى يرد معها ضمير المفعول عائدًا على ضمير الفاعل غير مسبوق بكلمة "نفس" أفعال محدودة، تكون مجموعة "مغلقة" من الأفعال حددها النحاة بعشرة أفعال، أما الأفعال التى يرد ضمير المفعول معها عائدًا على ضمير الفاعل مسبوقًا بكلمة "نفس" فهى مجموعة "مفتوحة" تشمل سائر الأفعال.

وإذا جاز لنا أن نعتد الأمثلة التى وردت فى رقم (١) بنية باطنة عميقة deep structure "تحولت" فى الأمثلة التى وردت فى رقم (٢) إلى بنية سطحية ظاهرة surface structure جاز لنا أن نعتد الأمثلة التى وردت فى رقم (٣) بنية باطنة "تحولت" فى الأمثلة التى وردت فى رقم (٤) إلى بنية سطحية ظاهرة، وإذا جاز أن يكون الضمير المنعكس مسبوقًا بـ "نفس" أو "إيا" فى رقم (٢)، فإنه لا يجوز أن يكون كذلك فى رقم (٤)، ويجوز لنا بعد ذلك أن نضع قاعدتين إجباريتين "تتولد" بهما الضمائر المنعكسة، وتشملان المادة اللغوية السابقة الواردة فى كتاب سيبويه.

القاعدة الأولى :

إذا كان الضمير مفعولاً أول لفعل من أفعال القلوب عائدًا على الفاعل كان ضميرًا منعكسًا.

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدًا على الفاعل فى غير أفعال القلوب مسبوقًا بكلمة نفس أو إيا كان ضميرًا منعكسًا.

وعلى أساس من هاتين القاعدتين يمكن استبعاد أن تكون الضمـائر فى الأمثلة الآتية ضمائر منعكسة :

(٥) أ- (أنا) ضربتُك.

ب- (أنا) ضربتُه

(٦) أ- (أنت) ضربتَنى

ب- (أنت) ضربتَه

(٧) أ- (هو) ضربنى

ب- (هو) ضربك

(٨) أ- (أنا) ظننتُك ...

ب- (أنا) ظننتُه ...

(٩) أ- (أنت) ظننتَنى ...

ب- (أنت) ظننته ...

(١٠) أ- (هو) ظنّنى ...

ب- (هو) ظنّك ...

كذلك لا يمكن أن "تتولد" بهما التراكيب السطحية الآتية :

(١١) أ - *(أنا) ضربتُ نفسَك.

ب- * (أنا) ضربتُ نفسَه.

(١٢) أ - *(أنت) ضربتَ نفسى

ب- *(أنت) ضربتَ نفسه.

(١٣) أ - *(هو) ضرب نفسى.

ب- *(هو) ضرب نفسك.

(١٤) أ - *(أنا) ضربتُنى

ب- *(أنت) ضربتَك

ج- *(هو) ضربَه

(١٥) أ - *(أنا) ظننتُ نفسى ...

ب- *(أنا) ظننتُ نفسَك ...

ج- *(أنا) ظننتُ نفسَه ...

(١٦) أ - *(أنت) ظننتَ نفسَك...

ب- *(أنت) ظننتَ نفسى...

ج- *(أنت) ظننتَ نفسه ...

(١٧) أ - *(هو) ظن نفسه ...

ب- *(هو) ظن نفسى ...

ج- *(هو) ظن نفسك ...

ولا يمكن بهما أيضًا إنتاج جمل "نحوية" فى البنية السطحية مثل :

(١٨) أ- *نفسى ضربتنى

ب- *نفسُك ضربتك

ج- *نفسُه ضربته

ولنشر الآن إلى ملحظ نراه ضروريًا فى المادة اللغوية السابقة، فقد حكمنا على (١٤ج) : هو ضربه بأنها غير صحيحة نحويًا، بناء على القاعدة الثانية على أساس أن الضارب هو المضروب كما يمكن إيضاح ذلك بالطريقة الآتية :

هو ضربه

أ أ

لكن هذه الجملة تحتمل أن يكون الضارب فيها غير المضروب، فلا يعود فيها ضمير المفعول على ضمير الفاعل، كما يمكن إيضاح ذلك بالطريقة الآتية :

هو ضربه

أ ب

ولذلك لابد من العودة إلى البنية الباطنة التى تحتوى على الخبر المراد، فإذا كان الضارب فيها هو المضروب انطبقت عليها القاعدة الثانية فولدت منها الجملة الصحيحة نحويًا وهى : هو ضرب نفسه، وإن كان الضارب فيها غير المضروب تولدت هذه البنية : هو ضربه الصحيحة نحويًا، وبهذا نعلم أن من التراكيب السطحية الظاهرة ما لا يمكن الحكم عليه بالصحة النحوية أو انتفائها عنه إلا بعد العودة إلى البنية الباطنة العميقة، وهذا الأمر غير متحقق فى المادة اللغوية السابقة إلا فى ضمير الغائب.

ولعل من اللازم الآن أن نختبر انطباق القاعدتين اللتين وضعناهما بناء على ما ورد من أمثلة فى كتاب سيبويه على مادة لغوية مستعملة فى أوثق نص عربى وأحدره بالاعتماد عليه، وهو القرآن الكريم، والأمر فى القاعدة الأولى هين ميسور، إذ الضمائر المنعكسة "تولد" بها مع مجموعة "مغلقة" من الأفعال محددة كما ذكرنا بعشرة أفعال، فإذا ذهبنا نلتمس لها دليلاً من القرآن الكريم وجدنا أنه لم يرد من أفعال القلوب التى يعود مفعولها الأول على فاعلها غير الفعل المضارع "يرى" مسندًا إلى ضمير المتكلم، وذلك فى قوله تعالى :

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ (يوسف : ٣٦)

وغير الفعل "رأى" ماضيًا مسندًا إلى ضمير الغائب كما فى قوله تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق : ٧)

والقاعدة منطبقة عليهما، فالضمير مفعول أول لفعل من أفعال القلوب عائد على الفاعل، فهو إذن ضمير منعكس.

فإذا تتبعنا استخدام القرآن الكريم لأفعال القلوب التى وردت فيه استخدامًا انعكاسيًا وهى : ظن، وحسب، ورأى، وعلم، تبين لنا أن القرآن الكريم يدخل فى عدد من المواضع "أنّ" على الضمير المنعكس على الفاعل، وأكثر ما يكون مع الغائب منعًا للبس الذى أشرنا إليه فى المثال (١٤ ج)، وذلك فى قوله تعالى :

- ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ (الحشر : ٢)
- ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ (يونس : ٢٢)

- ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ (يوسف : ١١٠)

- ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ (الكهف : ٥٣)

- ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ (البقرة : ٢٤٩)

- ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ﴾ (البقرة : ٢٤٩)

- ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأعراف : ٣٠)

- ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف : ١٠٤)

- ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ (المجادلة : ١٨)

- ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ (الأعراف:١٤٩)

وظاهر أن الضمير إذا اتصل بالضمير دون أن تفصل بينهما "أنَّ" فقيل: فظنوهم، أو : يحسبونهم، أو : رأوهم، أدى ذلك إلى اللبس فى البنية السطحية الظاهرة فالضمير عندئذ يحتمل العودة على الفاعل فيكون ضميرًا منعكسًا، والعودة على غير الفاعل فيكون غير منعكس.

والقرآن الكريم يلجأ إلى ذلك أيضًا إذا كان الفاعل مفصولاً عن ضمير النصب المنعكس عليه، إذ لا يمكن عندئذ اتصال الضمير بالفاعل، فوسطت "أنَّ" بينهما، كما فى قوله تعالى :

- ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ (يونس : ٢٤)

- ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (المطففين : ٤)

- ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ (الصافات: ١٠٢)

وقد فصلت "إنّ" المكسورة الهمزة بين الفاعل الظاهر والضمير المنعكس عليه فى موضع واحد فى قوله تعالى :

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (الصافات : ١٥٨)

وعلى أساس مما عرضناه من مادة لغوية ينبغى أن نعود إلى القاعدة الأولى التى وضعناها بناء على ما ورد فى كلام سيبويه والنحاة من بعده، فنجرى عليها التعديل الآتى :

القاعدة الأولى :

إذا كان مع أفعال القلوب ضمير عائد على الفاعل كان ضميرًا منعكسًا.

وننتقل الآن لننظر فيما تنطبق عليه القاعدة الثانية من القرآن الكريم، فقد ورد فيه قوله عز وجل :

- ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة : ١٣٠)
- ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة : ٢٣١)
- ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ (النمل : ٤٤)
- ﴿ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة : ٥٤)
- ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ (الأحزاب : ٥٠)
- ﴿فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (الحديد : ١٤)
- ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ (الأعراف : ٩)
- ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ (يوسف : ٥٣)

- ﴿مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ (البقرة :٢٠٧)

- ﴿يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ (النساء : ١١٠)

- ﴿لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي﴾ (المائدة : ٢٥)

- ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة : ٤٤)

- ﴿كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة : ١٨٧)

- ﴿فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (التوبة : ٣٦)

- ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ (النجم : ٣٢)

- ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (النساء : ٤٩)

- ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ (النساء : ١٠٧)

- ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ (النساء : ١١٣)

- ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ (الأنعام : ٢٦)

- ﴿وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ (الأعراف : ١٩٢)

- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ (الكهف : ٢٨)

- ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (إبراهيم : ٢٢)

وواضح أن القاعدة الثانية تنطبق انطباقًا تامًا على العبارات القرآنية السابقة مع تعديل طفيف فيها على النحو الآتي :

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدًا على الفاعل فى غير أفعال القلوب مسبوقًا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) كان ضميرًا منعكسًا.

وواضح أيضًا أن الضمير فى النصوص السابقة لم يرد مسبوقًا بـ (إيا)، لكن ورد فى كلام سيبويه ما يجيز نحو (إياى ضربتُ).

فوجب أن يضاف إلى القاعدة فتصبح :

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدًا على الفاعل فى غير أفعال القلوب مسبوقًا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) أو بكلمة (إيا) كان ضميرًا منعكسًا.

على أنا قد وجدنا فى القرآن الكريم شاهدًا بنى فيه الفعل للمجهول، فلم ينعكس الضمير على الفاعل، بل انعكس على نائب الفاعل، وذلك فى قوله تعالى :

- ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النساء : ٨٤)

من ثم وجب أن تعدل القاعدة مرة أخرى لتصبح :

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدًا على الفاعل أو نائبه فى غير أفعال القلوب مسبوقًا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) أو بكلمة (إيا) كان ضميرًا منعكسًا.

ولما كانت كلمة (نفس) أو جمعها، وكلمة (إيا) ترد كل منهما ملازمة للضمير المنعكس لا تنفك عنه، ولا ينفك عنها أو يذهب عن الضمير معنى الانعكاس، وتصبح الجملة التى يرد فيها "غير نحوية"، فإننا نبيح لأنفسنا أن نطلق على الضمير المسبوق بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس)، أو المسبوق

بكلمة (إيا) مصطلح "ضميمة منعكسة" ليتيسر لنا الوصف التركيبى والدلالى لها.

أولاً : الوصف التركيبى :

أ- مع أفعال القلوب :

١- الضمائر المنعكسة مع أفعال القلوب لا تكون إلا ضمائر تكلم أو خطاب أو غيبة فى محل نصب وتنعكس على الفاعل ضميرًا أو اسمًا ظاهرًا، غير مفصولة عنه، أو مفصولة عنه بـ (أنَّ) أو (إنَّ)، والنحاة يجعلون من خصائص هذه الأفعال أن ضمير الفاعل فيها يتعدى إلى ضمير المفعول، ولا يلتفتون إلى فاعلها الظاهر، ولا إلى توسط (أنَّ) أو (إنَّ) بين الفاعل والضمير المنعكس عليه، لأن شأنها فى ذلك شأن سائر الأفعال غير المنعكسة المتعدية إلى مفعولين، يقول ابن السراج : «ويجوز فى باب ظننت وحسبت أن يتعدى المضمر إلى المضمر»[١].

ويقول الزمخشرى : «ومنها (أى من خصائصها) أنك تجمع فيها بين ضميرى الفاعل والمفعول فتقول : علمتُنى منطلقًا، ووجدتَكَ فعلت كذا، ورآه عظيمًا»[٢]. وقال ابن يعيش فى شرحه لعبارة الزمخشرى : «وأما أفعال القلوب التى هى ظننت وأخواتها فإنه يجوز ذلك فيها ويحسن، فيتعدى "ضمير" الفاعل فيها إلى "ضمير" المفعول الأول دون الثانى فتقول: ظننتُنِى غنيًا، وحسبتَكَ غنيًا، وذلك لأن تأثير هذه الأفعال إنما هو فى المفعول الثانى، ألا ترى أن الظن والعمل إنما يتعلقان بالثانى، لأن الشك وقع فيه، والأول كان معروفًا عنده، فصار ذكره كاللغو فلذلك جاز أن

---

[١] ابن السراج : الأصول فى النحو، تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلى (بيروت ١٩٨٧) ٢ / ١٢١.

[٢] الزمخشرى : المفصل، ص ٢٦٢.

يتعدى ضمير الأول إلى الثانى، لأن الأول كالمعدوم، والتعدى في الحقيقة إلى الثانى، وقوله : «رآه عظيمًا» فى المثال، يريد : إذا كان المفعول الأول هو الفاعل المضمر فى "رأى" فاعرفه»[1].

ويقول الرضى فى شرح الكافية : «هذه الأفعال المذكورة فى متن الكافية، ولفظة "هَبْ" بمعنى احسب، و"رأى" الحلمية يجوز كون فاعلها ومفعولها ضميرين متصلين متحدي المعنى نحو : علمتُنِي قائمًا، وقال تعالى : ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾»[2] وقال السيوطى : «لا يجوز أن يكون الفاعل والمفعول ضميرين متصلين لشيء واحد فى فعل من الأفعال إلا فى ظننت وأخواتها، وفى فقدت وعدمت، قاله البهاء النحاس فى تعليقه على المقرب»[3].

٢- جوز بعض النحاة ورود الفاعل مع هذه الأفعال اسمًا ظاهرًا نحو : ظنه زيد قائمًا، فإذا كان الفاعل ضميرًا مستترًا يعود على المفعول الظاهر لم يجز نحو: زيدًا ظن منطلقًا[4] وقال الرضى : «والقياس جواز : ظن زيدٌ زيدًا قائمًا، أى نفسه»[5].

والأصوليون من النحاة على أنه إن وجب القياس لشيء حكمًا، وجاز أن يأتى السماع بضده فالرأى الأخذ بالقياس حتى يرد ما يبين ذلك[6].

---

[1] ابن يعيش : شرح المفصل (المنيرية، القاهرة د.ت) ٧ / ٨٨.

[2] الرضى : شرح الكافية فى النحو ٢ / ٢٨٥.

[3] السيوطى : الأشباه والنظائر فى النحو (بيروت ١٩٨٤) ٢ / ٥١.

[4] الرضى : شرح الكافية فى النحو ٢ / ٢٨٦.

[5] السابق نفسه.

[6] انظر : ابن جنى، الخصائص، تحقيق محمد على النجار (القاهرة ١٩٥٢) ١ / ١٢٥.

٣- يمكن أن يحل اسم آخر محل الضمير المنعكس، من ثم فالضمير المنعكس عنصر من العناصر المكملة للجملة، على أن هذا العنصر مطلوب من الفعل على وجه اللزوم، فلا يجوز حذفه، يقول ابن السراج : «... وإنما حقه أن يتعدى فعل المضمر إلى المضمر، وتكون أيضًا قد جعلت المفعول الذى هو فضلة فى الكلام لا بد منه وإلا بطل الكلام»[١].

ولا يقتصر استعمال أفعال القلوب على الضمائر المنعكسة، بل كما تستعمل هذه الأفعال منعكسة تستعمل غير منعكسة فنقول مثلاً : ظننت زيدًا قائمًا، أو : ظننتُك قائمًا، أو : ظن زيدٌ عمرًا قائمًا.

٤- لا يمكن أن ينعكس الضمير مع أفعال القلوب على "نائب الفاعل"، ولا أن تبنى هذه الأفعال للمجهول إذا اتصل بها ضمير منعكس، مع أنها أفعال متعدية إلى مفعولين، ومن ثم نعدها حالة خاصة من حالات التعدى، وتتفق هذه الأفعال من هذه الناحية مع الأفعال المنعكسة فى اللغة الألمانية[٢].

٥- يطابق الضمير المنعكس مع هذه الأفعال الفاعل فى الشخص والنوع والعدد.

٦- يجوز أن يتقدم الضمير المنعكس مع هذه الأفعال على الفاعل، كما اتضح ذلك فى المثال الذى أورده الرضى، وهو : ظنه زيدٌ قائمًا[٣]، فقد تقدم الضمير المنعكس، وفصل الفاعل بين المفعولين.

ب- مع غير أفعال القلوب :

١- الضمائر المنعكسة مع هذه الأفعال ضمائر تكلم وخطاب وغيبة، مسبوقة بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس)، أو بكلمة (إيا)، ويرى رايت أن الضمير

---

(١) ابن السراج : الأصول ٢ / ١٢١.

(٢) Grebe, P. : Grammatik der deutschen Gegenwartssprache Duden 4. S. 75.

(٣) الرضى : شرح الكافية ٢ / ٢٨٦.

قد يرد مسبوقًا بكلمة نفس، أو عين، أو وجه، (وفى العربية المتأخرة : روح، ذات، حال) مثل قتل نفسه، عز به نفسك، أهلكت روحى، أَسْلَمْتُ وَجْهِى لله»[1]، وقد رأينا أن نطلق على الضمير المنعكس المسبوق بكلمة نفس أو ما يشبهها مصطلح "ضميمة منعكسة"[2].

٢- ترد الضميمة المنعكسة فى القرآن الكريم فى موقع المفعول به لفعل ماض، أو مضارع، أو أمر كما ظهر فى الشواهد القرآنية التى ذكرناها. وقد ترد مفعولاً ثانيًا لفعل متعد إلى مفعولين من غير أفعال القلوب، وفى هذه الحالة يفصل الفاعل بين المفعولين كما فى قوله تعالى :

- ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران : ٢٨)

وترد مفعولاً به للمصدر كما فى قوله تعالى :

- ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (الروم : ٢٨)

وقوله عز وعلا :

- ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (غافر : ١٠)

وترد مفعولاً به لاسم الفاعل كما فى قوله جل وعز :

- ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ (الكهف : ٦)

وترد مفعولاً به لاسم الفعل كما فى قوله سبحانه :

- ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ (المائدة : ١٠٥)

---

(1) Wright, W.: A. Grammar of the Arabic Language (Beirut 1974) II, p. 272.

(2) يطلق نحاة الإنجليزية على myself etc وأمثالها مصطلح "الضمير المنعكس" ويطلق عليه بعضهم "الضمير المركب" (compound pronoun) راجع :
Thomson & Martinet : A Practical English Grammar, Oxford 1980, p. 41, Zandvoort : A Handbook of English Grammar, London, 1975, p. 144.

وترد الضميمة المنعكسة فى موقع المجرور بحرف جر أصلى كما نجد ذلك فى الشواهد القرآنية الآتية :

- ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (آل عمران : ٩٣)
- ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام : ١٢)
- ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ (يوسف : ٧٧)
- ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ (طه : ٦٧)
- ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه : ٤١)
- ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ (البقرة : ٢٣٥)
- ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ (التوبة : ٣٥)
- ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ (الإسراء : ٧)
- ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ (الأنعام : ١٣٠)
- ﴿أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ (المائدة : ٥٢)
- ﴿كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأنعام : ٢٤)
- ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأنعام : ١٣٠)
- ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأنبياء : ٦٤)
- ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ (الفرقان : ٢١)

- ﴿أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ (الزمر : ٥٣)

- ﴿فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ (البقرة : ٢٤٠)

- ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (النساء : ١١١)

- ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ (التوبة : ١٢٠)

- ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾

(يونس : ١٠٨)

- ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ (النمل : ٤٠)

- ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ (العنكبوت : ٦)

- ﴿وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ (فاطر : ١٨)

- ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ (محمد : ٣٨)

- ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (الفتح : ١٠)

- ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ (النحل : ١١١)

- ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ (الأعراف : ١٨٨)

- ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ (يوسف : ٥٤)

- ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ (سبأ : ٥٠)

- ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾

(البقرة : ١١٠)

- ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ﴾ (آل عمران : ١٥٤)

- ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ (النساء : ٦٥)

- ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الأنعام : ١٢٣)

- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (الروم : ٨)

- ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (الروم : ٤٤)

- ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ (المجادلة : ٨)

- ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ (البقرة : ٢٣٤)

- ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ (البقرة : ٢٢٣)

- ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ (آل عمران : ١٦٨)

- ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة : ١٤)

- ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (الأنعام : ١٠٤)

- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ (فصلت : ٤٦)

وترد الضميمة المنعكسة مع اسم الفاعل دون فاصل مجرورة بحرف جر أصلى كما فى قوله تعالى :

- ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ (الكهف : ٣٥)

- ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ (التوبة : ١٧)

وترد مفصولة بـ (ولو)، كما في قوله جل شأنه :

- ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ (النساء : ١٣٥)

وظاهر أن الضميمة المنعكسة المجرورة بحرف جر أصلي غير محفوظة الرتب، كما هو شأنها إذا كانت غير منعكسة، فهي ترد بعد الفاعل، وبعد المفعول، ومقدمة على الخبر، ومقدمة على الفعل والفاعل، ومحصورة بـ (إلاّ) وخبرًا لمبتدأ محذوف.

وترد الضميمة المنعكسة في موقع الجر بإضافة المصدر إليها كما في قوله جل شأنه :

- ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ (الحشر : ٩)
- ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ (يونس : ١٥)
- ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ (الكهف : ٥١)
- ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأنبياء : ٤٣)

وترد في موقع المجرور بحرف جر زائد في محل رفع فاعلاً، كما في قوله تعالى :

- ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء : ١٤)

٣- تعود الضميمة المنعكسة على ضمير بارز متصل، أو على ضمير مستتر، أو على اسم ظاهر كما ظهر في الشواهد السابقة.

٤- تطابق الضميمة المنعكسة ما تعود إليه في الشخص والنوع والعدد.

٥- من الممكن أن يحل محل الضميمة المنعكسة عنصر لغوي آخر، وليس في اللغة العربية أفعال لا تستخدم إلا منعكسة، على نحو ما نجد ذلك

مستخدمًا فى اللغة الألمانية[1].

٦- يجوز أن تبنى الأفعال للمجهول مع الضميمة المنعكسة، على ألا تكون الضميمة المنعكسة نائب فاعل، بل يظل لها موقع النصب، كما فى قوله تعالى :

- ﴿لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ﴾ (النساء : ٨٤)

٧- تستخدم الأفعال المنعكسة من حيث دلالة الصيغة والزمن استخدام الأفعال غير المنعكسة.

٨- يجوز أن ينحصر الضمير المنعكس عليه، أى : ضمير الفاعل، بـ (إلا) فينفصل، ولا تصبح هناك حاجة إلى كلمة "نفس" كما فى قولك : ما ضربك إلا أنت وقد أجازه النحاة[2] .

٩- يجوز أن ترد الضميمة المنعكسة معطوفة على ضميمة غير منعكسة، كما فى قوله تعالى :

- ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾

(آل عمران : ٦١)

١٠- ترد الضميمة المنعكسة عائدة على المفعول به، كما فى قوله تعالى :

- ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ (الأعراف : ١٧٢)

إذ المفعول به هنا فاعل فى المعنى، فالمعنى -والله أعلم- جعلهم يشهدون على أنفسهم، بدليل قولهم فى الإجابة عن السؤال الذى وجه إليهم:

---

[1] Gerbe : Grammatik der deutschen Gegenwartssprache Duden 4 S. 76.

[2] الرضى : شرح الكافية ٢ / ٢٨٦.

ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا، قال الزمخشرى : «أى : على أنفسنا»[1] ومثل ذلك قوله تعالى :

- ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ (الحشر : ١٩)

١١- قد ترد الضميمة المنعكسة مقلوبة، أى : آخذة موقع ما تعود عليه، تحقيقًا لغرض بلاغى، كما فى قوله تعالى :

- ﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (طه : ٩٦) بدل سولت لنفسى.

- ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ (يوسف : ١٨) بدل : سولتم لأنفسكم أمرًا.

- ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (آل عمران : ١٥٤) بدل : أهموا أنفسهم.

- ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (المائدة : ٨٠) بدل:قدموا لأنفسهم

١٢- قد تقوم (ال) متصلة بـ (نفس) بوظيفة الضمير المنعكس كما فى قوله تعالى :

- ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ (النازعات : ٤٠)

أى : نفسه[2] .

والآن بعد أن تم لنا الوصف التركيبى للضميمة المنعكسة يجدر بنا أن نعود إلى القاعدة الثانية التي وضعناها فنجرى عليها التعديل الأخير، حتى يمكن

---

[1] الزمخشرى : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل (القاهرة ١٩٥٣) ٢ / ١٣٧.

[2] الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن (القاهرة ١٩٥٤) ٣٠ / ٤٨.

أن "تولد" بها كل الجمل الصحيحة التى ذكرناها، وتكون صالحة لتوليد غيرها من الجمل الصحيحة.

القاعدة الثانية :

الضميمة الاسمية التى تطابق ضميمة اسمية أخرى سابقة عليها فى جملة واحدة هى ضميمة منعكسة.

ولما كانت هذه القاعدة تشمل الآن القاعدة الأولى، وتغنى عنها، فإننا نختصر القاعدتين فى قاعدة واحدة إجبارية هى :

القاعدة : (إجبارية) :

الضميمة الاسمية التى تطابق ضميمة اسمية أخرى سابقة عليها فى جملة واحدة هى ضميمة منعكسة.

ثانيًا : الوصف الدلالى :

١- تتحقق العلاقة الانعكاسية فى الأمثلة والشواهد السابقة بين عنصرين لغويين أحدهما منعكس والآخر منعكس عليه، والمنعكس عليه فيما أوردناه من أمثلة وشواهد يتسم بسمتين مميزتين distinctive features هما : [+ حى]، [+ بشرى].

٢- وردت العلاقة الانعكاسية فى الأمثلة والشواهد السابقة تامة، لكن الرضى فى شرح الكافية أشار إلى جواز أن تكون علاقة الانعكاس جزئية، فقد أورد المثال الآتى : رأيتُنَا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أى : رأيتُنى ومن معى، وأورد أيضًا قولهم : رأيتُماكَ تقول كذا[١]، فالضمير المنعكس هنا يعود على بعض المنعكس عليه.

---

[١] الرضى : شرح الكافية فى النحو ٢ / ٢٨٥.

٣- يجوز أن تكون العلاقة الانعكاسية تبادلية reciprocal يصير فيها فعل الانعكاس متبادلاً بين الفاعلين، وذلك فى نحو قوله تعالى :

- ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ (النور : ٦١)
- ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة : ٨٥)
- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء : ٢٩)
- ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ (البقرة : ٨٤)
- ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (الحجرات : ١١)
- ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة : ٥٤)
- ﴿اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء : ٦٦)
- ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ (الأنعام : ٩٣)

وأكثر ما يكون ذلك إذا كان الفاعل جمعًا.

٤- لا تتحقق العلاقة الانعكاسية -فى غير أفعال القلوب- إلا من خلال حدث يمكن أن ينعكس على الفاعل أو يعود عليه، فإذا لم يكن الحدث صالحًا للانعكاس لم يصح استخدام الضميمة المنعكسة معه، ويتضح ذلك من الأمثلة الآتية :

أ- أتممت العمل.

ب- * أتممت نفسى.

أ- تسلمت الجائزة.

ب- * تسلمت نفسى.

أ- ذقت الطعام

ب- * ذقت نفسى

أ- قطفت الثمار.

ب- * قطفت نفسى ... إلخ.

٥- يتحقق معنى الانعكاس دون ضميمة منعكسة ببعض صيغ الأفعال المزيدة التى تعبر عن معنى أفعال مجردة أو مزيدة مستخدمة مع ضميمة منعكسة، ومن ذلك صيغة (افتعل)، كما يتضح ذلك فيما يأتى :

- المرأة غسلت ثيابها.

* المرأة غسلت المرأة (إذا كانت المرأة فى الموضعين شخصًا واحدًا)

المرأة غسلت نفسها

المرأة اغتسلت

وقد عرض بروكلمن لبعض ذلك، فذكر أن صيغة (تفعَّل) صيغة انعكاسية لـ (فَعَّل) مثل : تكبَّر (= كبَّر نفسه) sich gross machen، ومثل تنبأ (= ادعى النبوة لنفسه) sich als propheten stellen، وذكر أن صيغة (تفاعل) صيغة انعكاسية لـ (فاعل) مثل : تقاتلوا (= قاتلوا أنفسهم) sich gegensetig bekämpfen، وقال : نادرًا ما تحمل صيغة (تَفَاعَلَ) معنى الادعاء مثل : تناوم (= ادعى النوم لنفسه) sich schlafend stellen، كما ذكر أن كلاً من صيغة (انفعل) مثل : انهزم، و(استفعل) صيغة انعكاسية لـ (أفعل) مثل : استوحش sich betrüben، ثم قال : ومن الشائع أن تدل هذه الصيغة على رغبة شخص فى تحقيق شيء لنفسه، مثل : استغفر[1].

على أن لهذه الصيغ معانى أخرى تجدها مبسوطة فى كتب الصرف، وقد أفرد لها أحد الباحثين كتابًا[2].

---

(1) Brockelmann, C. : Arabische Grammatik (Leipzig 1960) S. 38 - 40.

(2) هاشم طه شلاش : أوزان الفعل ومعانيها (النجف ١٩٨١).

وقد تتبعت ما ذكره الرضى فى شرح الشافية من معانى هذه الصيغ مما قد يدل على الانعكاس، فلم أجده أثبت لـ (انفعل) المعنى الذى ذكره بروكلمن لها، لكنه قال فى (تَفَاعل) : تغافلت : أظهرت من نفسى الغفلة، وأثبت لـ (تفعَّل) معنى التكلف، وهو حمل النفس على أمر فيه مشقة، مثل : تحلّم، وتمرّأ، أى : تكلف الحلم والمروءة، وقال فى : (افتعل) : والظاهر أنه لاتخاذك الشىء أصله لنفسك، فاشتوى اللحم أى : عمل شواء لنفسه، وامتطاه : جعله لنفسه مطية، وكذا : اغتذى، وارتشى، واعتاد، وقال فى (استفعل) : استعجلت زيدًا أى : طلبت عجلته، فإذا كان بمعنى عجلت، فكأنه طلب العجلة من نفسه[1].

ثم قال بعد أن سرد معانى الصيغ : «واعلم أن المعانى المذكورة للأبواب المتقدمة هى الغالبة فيها، وما يمكن ضبطه، وقد يجىء كل واحد منها لمعانى أخر كثيرة لا تضبط، كما تكررت الإشارة إليه»[2].

٦- ينبغى ألا تلتبس الضميمة المنعكسة (نفسه) وأخواتها بالضميمة المؤكدة التى تتفق معها لفظًا وتختلف معنى، فهى فى الأولى عنصر إجبارى دال على انعكاس الحدث على الفاعل، ولا يمكن حذفه دون أن تختل الجملة تركيبًا ودلالة، وهى فى الثانية عنصر اختيارى يؤكد اسمًا فى الجملة برفع الاحتمال عنه، وحذفه لا يخل بتركيب الجملة، ولا بمعناها الأصلى، إذا استغنينا عن المعنى الإضافى الذى يفيده التوكيد.

وأريد أن ألفت فى ختام هذا البحث إلى أن بعض الشعراء المعاصرين أخذوا يستخدمون الضميمة المنعكسة استخدامًا يخرج بها عن القاعدة، لا

---

[1] الرضى : شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق : محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاف، ومحمد محيى الدين عبد الحميد (بيروت ١٩٨٢) ١ / ٩٢ وما بعدها.

[2] السابق ١ / ١١٣.

جهلاً منهم بها، بل احتراء عليها، ومن هؤلاء الشاعر محمد أبو دومة، فقال فى بعض قصائده :

- لكنى لم أعبأ بى.

لم أتريث

واصلت لعلي أغفر لى إثمى[1]

وقال فى موضع آخر :

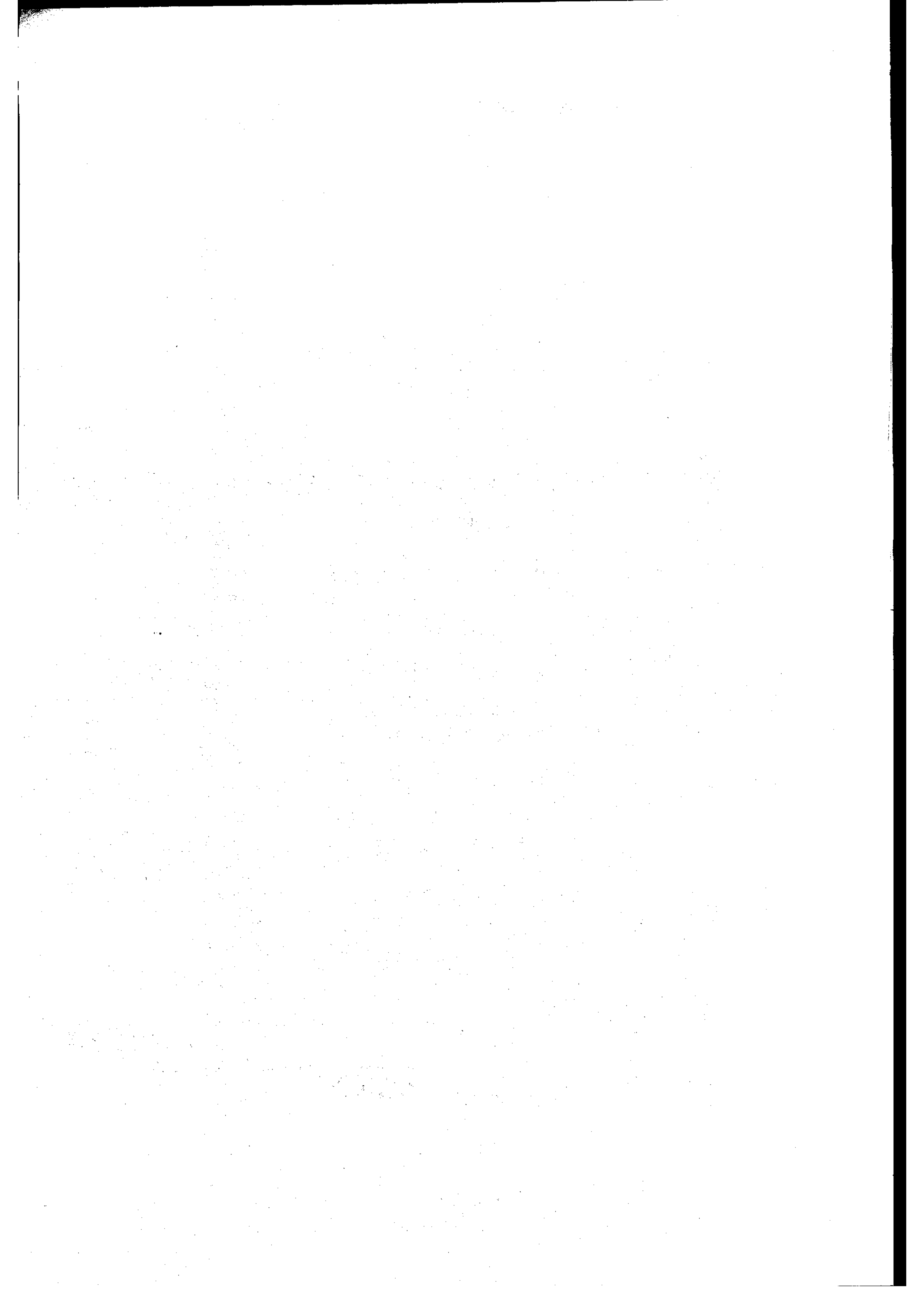
- بغيبته أسافر فيه، أدخله لأعرفنى

وأومن بى[2] .

وبعد، فهذا هو الوصف التركيبى والدلالى للضمائر المنعكسة، وما تتصل به من أفعال تسمى أفعالاً منعكسة أيضًا، عرضت له من خلال المادة اللغوية الواردة فى القرآن الكريم، وما ورد فى كتب النحو العربى التراثى، وأفدت فيه من مناهج الدرس اللغوى الحديث والمعاصر عند الغربيين، ومن نحاة بعض اللغات الأخرى فى رصدهم لهذه الظاهرة فى لغتهم، ومن نظرات بعض المستشرقين، ولعلى أكون بهذا البحث قد جلوت غامضًا، أو استدركت فائتًا، أو أضفت جديدًا.

(1) محمد أبو دومة : أتباعد عنكم فأسافر فيكم (القاهرة ١٩٨٨)، ص ٥٤.

(2) السابق، ص ٨٧.

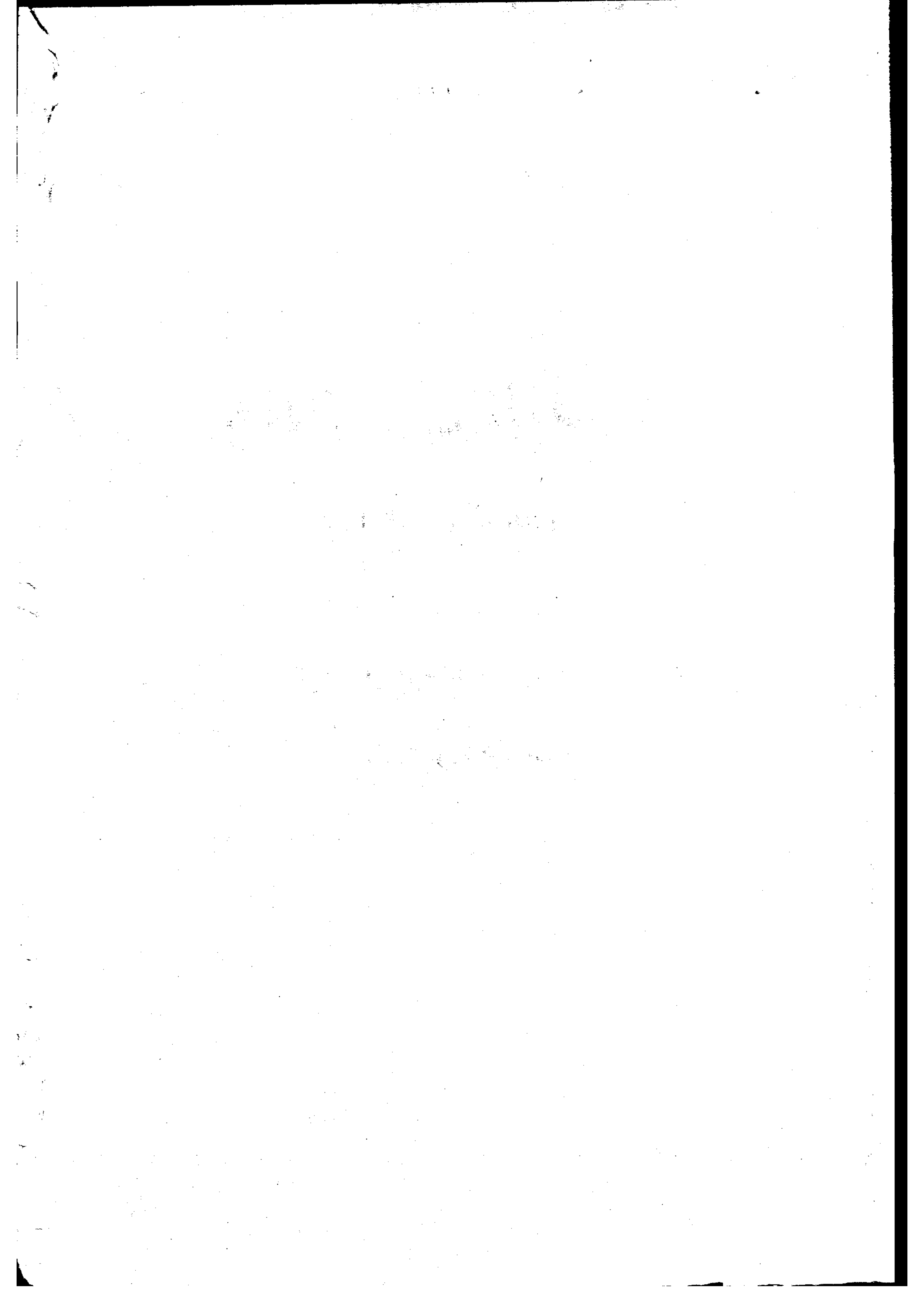


وظائف اللغة

م. أ. ك. هاليداي

ترجمه عن الإنجليزية ومهّد له :

أ . د . محمود أحمد نحلة



التمهيد للترجمة :

صاحب هذا البحث علم شامخ من أعلام مدرسة لندن فى علم اللغة هو مايكل ألكسندر كيركورود هاليداى، ولد فى ليدز - يوركشاير بإنجلترا سنة ١٩٢٥م لأسرة جامعية. كان أبوه ولفريد ج. هاليداى (١٨٨٩ - ١٩٧٥) مديرًا لإحدى المدارس، وقام بعد تقاعده بدور أساسى فى جمع المادة اللهجية الخاصة بشمال إنجلترا فى كتاب هارولد أورتون : مسح عام للهجات الإنجليزية Survey of English Dialects.

حصل هاليداى على البكالوريوس فى اللغة الصينية وآدابها من جامعة لندن، ودرس بعد تخرجه علم اللغة فى جامعة بكين، ثم فى كامبردج، حيث حصل على الدكتوراه سنة ١٩٥٥.

بعد أن شغل بعض الوظائف في كامبردج وإدنبره انتقل إلى الكلية الجامعية بلندن سنة ١٩٦٣ ليعمل مديرًا لمركز أبحاث الاتصال، حيث أدار مشروعين بحثيين مهمين أحدهما عن الخصائص اللغوية للإنجليزية العلمية، والثانى عن علم اللغة وتعليم الإنجليزية. وفى سنة ١٩٦٥م عين أستاذًا لعلم اللغة العام بالكلية الجامعية بلندن، وقد ظل يعمل بها حتى نهاية عام ١٩٧٠م.

فى المدة من ٧٢ - ١٩٧٣م كان زميلاً لمركز الدراسات المتقدمة فى العلوم السلوكية فى ستانفورد بكاليفورنيا، ثم عمل أستاذًا لعلم اللغة فى جامعة إلينوى فى المدة من ٧٣ - ١٩٧٥. وفى بداية ١٩٧٦م أصبح رئيسًا لقسم جديد لعلم اللغة بجامعة سيدنى وظل يشغل هذا المنصب حتى تقاعد سنة ١٩٨٧، وظل يعمل به بعد التقاعد.

درّس فى الجمعية اللغوية التابعة للمعاهد الصيفية اللغوية الأمريكية : فى (إنديانا) ١٩٦٤، وفى (أوكلاهوما) ١٩٦٦، وفى (متشجان) ١٩٧٣، ونال

العضوية الشرفية للجمعية سنة ١٩٧٨، كما عمل أستاذًا زائرًا فى جامعات ييل، وبراون، ونيروبى.

فى عام ١٩٦٩ منحته جامعة نانسى بفرنسا سنة ١٩٦٩م الدكتوراه الفخرية،وفى ١٩٨٦م منحته جامعة سنجابور درجة الأستاذية الفخرية، وفى عام ١٩٨١م حصل على جائزة دافيد راسل للبحث المتميز فى تعليم الإنجليزية من المجلس الوطنى لمعلمى الإنجليزية بأمريكا.

ولايزال للرحل حتى كتابة هذه السطور عطاؤه العلمى الوافر، وهو يهتم فى أبحاثه الحالية بعلم الدلالة، ونحو الإنجليزية المعاصرة، والتطور اللغوى فى الطفولة الباكرة، وعلم اللغة النصّى، والاستخدام اللغوى، والتطبيقات التعليمية لعلم اللغة، والذكاء الاصطناعى، كما تشمل اهتماماته اكتساب اللغتين الأولى والثانية، والشعرية، والاضطرابات اللغوية.

لقد كان هاليداى أنبه تلامذة فيرث، وأكثرهم وعيًا بأفكار أستاذه واستيعابًا لها، وقد استطاع أن يمنح هذه الأفكار الوضوح والتماسك اللذين كانت تفتقر إليهما، وأن يضع منذ وقت مبكر إطارًا نظريًا محكمًا لنظرية لسانية تقوم على أفكار فيرث، يشاركه فيها بعض زملائه حتى سُمُّوا (الفيرثيين الجدد).

على أن هاليداى لم يكتفِ بما تمثله من أفكار فيرث، بل وسّع دائرة معارفه، وأفاد من مصادر أخرى كثيرة فى وضع نظرية محكمة للوصف اللغوى صالحة للتطبيق على لغات مختلفة، ومازال يطورها ويعدّلها حتى ظنّ بعض الباحثين أنه عدل أخيرًا عن أفكاره المبكرة، واتجه بالنظرية اتجاهًا آخر جديدًا.

والحق أن نظريته مرت بمراحل ثلاث. بدأت أولاها بالبحث الذى نال به درجة الدكتوراه سنة ١٩٥٥ ونشره سنة ١٩٥٩ بعنوان (لغة الصينيين.

التاريخ السرى للمغول)

"The Language of the Chinese. Secret History of the Mongols"

وقد استطاع فيه أن يضع إطارًا نظريًا متماسكًا تعالج من خلاله العلاقات بين الوحدات اللغوية معالجة منهجية، ثم اتضحت معالم النظرية فى هذه المرحلة بالبحث الذى اكتمل قبل وفاة أستاذه فيرث ونشره عام ١٩٦١م وعنوانه فصائل نظرية النحو **Categories of the Theory of Grammar** وقد سميت النظرية فى هذه المرحلة "نحو المقياس والفصيلة" **Scale and Category Grammar**.

وقد بدأت معالم التطور فى هذه النظرية تظهر منذ منتصف العقد السادس من القرن العشرين، وتنامى هذا التطور حتى أصبح يعدّ مرحلة ثانية فى حياة النظرية. وقد أفضى هذا إلى بزوغ نموذج أشد إحكامًا أطلق عليه علم اللغة النظامى **Systemic Linguistics** أو النحو النظامى **Systemic Grammar**؛ لما أصبح لمفهوم النظام **System** من أهمية بالغة فيه.

وقد حملت ملامح التطور توجهًا وظيفيًا جعل بعض الباحثين يطلق على نموذج هاليداى فى هذه المرحلة "النحو النظامى الوظيفى". على أن هذا التوجه الوظيفى لم يكن بمعزل عن التوجه الاجتماعى، بل ظهر الميل الواضح إلى دمجهما معًا مع اهتمام متنامٍ بالظواهر الدلالية.

أما المرحلة الثالثة فيمكن التأريخ لها بكتاب هاليداى : مدخل إلى النحو الوظيفى (سنة ١٩٨٥) **An Introduction to Functional Grammar** إذ كان ثمرة اهتمامه المتزايد بوظائف اللغة فى المجتمع وما يعبر عنها من تراكيب. وقد وضع به أسس نظرية وظيفية غير منبتة الصلة عن الأسس المنهجية التى قام عليها فكرة اللغوى فى المراحل الثلاث، بل إن نحوه النظامى يمثل المرتكز الأساسى

لنحوه الوظيفي؛ ومن هنا تميزت نظريته الوظيفية عن نظريتين وظيفيتين معاصرتين إحداهما نظرية النحو الوظيفي عند سايمون دك Simon Dik والأخرى نظرية النحو الوظيفي التوحيدى عن كاى Kay.

وفى العام نفسه الذى أصدر فيه هذا المدخل إلى النحو الوظيفي ظهر له كتاب شاركته فيه زوجته الهندية الأصل رقية حسن عنوانه :

Language, Context, and text : aspects of language in social - Semiotic Perspective (Oxford University Press, 1985).

والبحث الذى أقدمه اليوم مترجمًا هو الفصل الثانى من هذا الكتاب فى طبعته الثانية (١٩٨٩) التى أعيد إصدارها سنة ١٩٩٠ من ص١٥ - ٢٨. وترجع أهمية هذا الفصل إلى أنه محضه لوظائف اللغة التى أصبحت تمثل محور النظرية. و لم يقتصر الرجل فيه على التنظير بل عمد إلى التطبيق المفصل على نصين أحدهما شعرى والآخر نثرى وبين على نحو شديد الوضوح والعمق كيف تحققت فيهما وظائف اللغة. وأرجو أن يكون فى هذه الترجمة إثراء للدراسة اللغوية العربية المعاصرة بمتابعة الحديث عن نظرية لم يتح لها ما ينبغى من الاهتمام فى العالم العربى.

الترجمة(*)

مدخل :

ماذا نفهم من مصطلح "وظائف اللغة" ؟ لعل المقصود من كلمة وظيفة فى أبسط معانيها أن تكون مرادفة لكلمة "استعمال"؛ لذلك حين نتحدث عن وظائف اللغة فنحن لا نعنى إلا الطريقة التى يستعمل بها الناس لغتهم أو لغاتهم إن كان لهم أكثر من لغة. وإذا عبرنا عن ذلك بصورة عامة قلنا إن الناس ينجزون بلغتهم أشياء كثيرة، أى أنهم يتوقعون أن ينجزوا بالكلام والكتابة والاستماع والقراءة عددًا كبيرًا من الأهداف المختلفة والأغراض المتباينة. ومن المستطاع أن نحاول تعداد هذه الأهداف والأغراض وتصنيفها بطريقة أو بأخرى، وقد حاول عدد من العلماء أن يقوموا بذلك آملين أن يجدوا إطارًا عامًا، إلى حدّ ما، أو نظامًا لتصنيف الأغراض التى من أجلها يستخدم الناس لغتهم.

ثمة عدد من التصنيفات المألوفة لوظائف اللغة، منها مثلاً ذلك التصنيف الذى قدمه مالينوفسكى واقترن بعمله فى السياق **situation** والمعنى **meaning**، وقد أشرنا إليه قبلاً. لقد قسم مالينوفسكى (١٩٢٣) وظائف اللغة إلى فئتين واسعتين: مقامية **pragmatic** وسحرية **magical**. ولقد كان بحكم كونه متخصصًا فى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) مهتمًا بالاستخدامات العملية أو المقامية للغة، (ثم قسمها بعد ذلك إلى فرعين: فاعلة **active** وروائية **narrative**) من جهة، ومن جهة أخرى كان مهتمًا بالاستخدامات الطقوسية أو الدينية.

(*) أشكر للدكتورة / ماجدة السباعى الأستاذ المساعد بقسم اللغة الإنجليزية، بكلية الآداب جامعة الملك سعود مراجعتها الدقيقة لهذه الترجمة.

على أن هناك تصنيفًا مختلفًا حدّ الاختلاف اقترن باسم عالم النفس النمساوى كارل بيولر K. Bühler (١٩٣٤) الذى اهتم بوظائف اللغة من وجهة نظر لا تعنى كثيرًا بالثقافة culture لكن بالفرد. لقد ميز بيولر بين اللغة التعبيرية expressive، واللغة النزوعية conative، واللغة التمثيلية representational. فاللغة التعبيرية هى التى تتجه إلى النفس، أى إلى المتكلم، واللغة النزوعية هى التى تتجه إلى المخاطب، واللغة التمثيلية هى التى تتجه إلى سائر الموجودات، أى إلى أى شىء غير المتكلم أو المخاطب.

لقد استخدم بيولر الإطار التصورى الموروث عن أفلاطون : التمييز بين المتكلم والمخاطب والغائب، وهذا بدوره مأخوذ عن النحو (كان مصدره النحو البلاغى الذى جاء قبل أفلاطون) -وهو يقوم على حقيقة أن الأنظمة الكلامية فى كثير من اللغات الأوربية (بما فيها اليونانية القديمة) دارت حول فصيلة الشخص، مفرقة بين الشخص الأول وهو المتكلم، والشخص الثانى وهو المخاطب، والشخص الثالث وهو كل ما عداهما. على هذا الأساس اعترف بيولر بثلاث وظائف للغة وفق توجيهها إلى شخص أو آخر من الأشخاص الثلاثة. وقد تبنت مدرسة براغ خطته، ووسعها من بعد رومان ياكوبسون (١٩٦٠) فأضاف ثلاث وظائف أخرى : الوظيفة الشعرية poetic وتوجه إلى الرسالة message، والوظيفة التعاملية transactional وتوجه إلى قناة الاتصال channel، والوظيفة الماورائية أو الواصفة metalinguistic وتوجه إلى الشفرة code.

لقد تبنى خطة بيولر وطورها فى اتجاهات مختلفة المربى الإنجليزى جيمس بريتون (١٩٧٠) الذى اقترح إطارًا يتألف من الوظائف التعاملية والتعبيرية والشعرية للغة. لقد اهتم بريتون بتطوير (قدرات الكتابة) عند

الأطفال فى المدرسة، وتمسك بالرأى القائل إن الكتابة تطورت أول ما تطـورت فى سياق تعبيرى expressive، ثم اتسعت القدرة "متجهة" إلى الكتابة التعامليـة من جهة، والكتابة الشعرية من جهة أخـرى. واللغـة التعامليـة هـى تلـك التـى تؤكد على دور المشارك، على حين أن التأكيد فـى اللغـة الشـعرية يكـون علـى دور الكاتب أكثر منه على دور المتلقى.

وقد قدم دزموند موريـس (١٩٦٧) فـى دراسـته الشـائقة عـن الجنس البشرى من وجهة نظر متخصص فى السـلوك الحيوانـى تصنيفًـا آخـر لوظـائف اللغة يتمثـل فـى الحديـث الإخبـارى information talking والحديـث المزاحـى mood، والحديث الاستكشافى exploratory، والحديث المتلطـف grooming، فالأول يقوم على تبادل المعلومات، ويبدو أن موريس كان يعنى ضمنًا أنه يـأتى أولاً على الرغم من أنه يظهر آخرًا فى تاريخ حياة أطفال البشـر. والثـانى كمـا هـى الحـال عنـد بيولـر وبريتـون وظيفـة تعبيريـة، والثـالث حـدده بأنـه حديـث للحديث، يؤدى وظائف جمالية، على حين أن الرابع ثرثـرة مهذبـة لا معنـى لهـا تستخدم فى المناسبات الاجتماعية، وهو ما أطلق عليه مالينوفسكى قبـل أربعـين عامًا "اتصال المجاملـة" phatic communication ويعنـى بـه الاتصـال الكلامـى حين يستخدم الناس تعبيرات مثل "يوم جميـل، أليـس كذلـك؟" وسـيلة لتسـهيل المهمة الاجتماعية، وتجنب الاحتكاك.

وعلى الرغم من أن التصنيفات تبدو جدّ مختلفة، وأن كلاً منها يستخدم مصطلحات مختلفة عن الأخـرى، وعلـى الرغـم مـن أن أحـدًا منهـم -باسـتثناء بريتون- لم يقرأ ما كتبه الآخرون، فهناك تماثل كبـير بينهـم، وهـو مـا يمكـن أن نوضحه بوضع تصنيفاتهم فى جدول واحد يعرضهـا فـى صفـوف علـى النحـو الذى يكون فيه التماثل رأسيًا، فكل مدخل يماثل على نحو أكثر أو أقل مـا فوقـه

وما تحته. وحين نفعل هذا نستطيع أن نراهـا جميعًـا تسـلّم بـأن اللغـة تسـتعمل للحديث عن أشياء (إخبارية – روائية – تمثيلية)، وهـى كلهـا تسـلم بـأن اللغـة تستخدم لتحقيق أهدافـى وأهدافـك؛ تعبيرًا عـن النفـس، وتأثـيرًا فـى الآخريـن (مزاجية – تعبيرية – نزوعية – فاعلة). وثمة أيضًا وظيفة ثالثـة للغـة تتمثـل فـى الجانب الجمالى أو التصوير المجازى.

الجدول رقم (١)

<table dir="rtl">
<tr><td rowspan="2">مالينوفسكى (١٩٢٣)</td><td rowspan="2">سحرية</td><td rowspan="2">[مظلل]</td><td colspan="4">مقامية</td></tr>
<tr><td colspan="2">فاعلـــة</td><td colspan="2">روائيـــة</td></tr>
<tr><td>بيولر (١٩٣٤)</td><td colspan="2">[مظلل]</td><td>تعبيرية
متكلم</td><td>نزوعية
مخاطب</td><td colspan="2">تمثيلية
غائب</td></tr>
<tr><td rowspan="2">بريتون (١٩٧٠)</td><td rowspan="2">شعرية</td><td rowspan="2">[مظلل]</td><td rowspan="2">تعبيرية</td><td colspan="3">تبادلـــية</td></tr>
<tr><td colspan="2">نزوعية</td><td>إخبارية</td></tr>
<tr><td>موريس (١٩٦٧)</td><td>حديث
استكشافى</td><td>[مظلل]</td><td>حديث
مزاجى</td><td>حديث
متلطف</td><td>[مظلل]</td><td>حديث
إخبارى</td></tr>
<tr><td rowspan="2"></td><td colspan="2">استخدام مجازى</td><td colspan="3">استخدام تبادلى للتأثير</td><td rowspan="2">استخدام إخبارى
موجه إلى المحتوى</td></tr>
<tr><td>شعرى</td><td>طقوسى</td><td>تعبير
ذاتى</td><td>دعم
متبادل</td><td>سيطرة على
الآخر</td></tr>
</table>

ملحوظة : الأجزاء المظللة تمثل الاستخدامات التـى لم يوردهـا المؤلـف المذكـور أمامها.

الوظيفة خاصية جوهرية للغة :

ما قام به أمثال هؤلاء العلماء كان فى أساسه بناءً لإطار تصورى، من نوع ما، بمصطلحات غير لغوية، ناظرين إلى اللغة من الخارج، ومستخدمين هذا الإطار وسيلة لتفسير الطرائق المختلفة التى يستخدم بها الناس اللغة. وعلى أساس من كل هذه التفسيرات لوظائف اللغة يمكننا أن نقول إن الوظيفة تعادل الاستعمال، فمفهوم الوظيفة مرادف لمفهوم الاستعمال. بيد أنه كى نواصل أبحاثنا الخاصة بنا علينا أن نخطو خطوة أخرى، خطوة تفسر الاختلاف الوظيفى، لا بوصفه اختلافًا فى استخدام اللغة، بل بوصفه بنية ذاتية، أو أساسًا محضًا لتكوين اللغة نفسها، ولوضع النظام الدلالى على وجه الخصوص.

بعبارة أخرى سوف تُفَسر اللغة لا بوصفها مجرد استخدام للغة، بل بوصفه خاصية جوهرية للغة نفسها، وشيئًا أساسيًا فى تطور النظام الدلالى، فكأنما نقول إن تنظيم أية لغة طبيعية يفسَّر فى ضوء نظرية وظيفية.

ما أحب أن أقوم به هنا هو أن أوضح الأساس الوظيفى للغة من خلال تحليل جملة واحدة، وهو أمر محفوف بالمخاطر؛ لأن ثمة دائمًا خطرًا يتمثل فى أن تعدَّ بعض السمات العارضة التى هى خاصية لجمل معينة سمات أساسية للنحو بصفة عامة، فطبيعى أن السمات التى تظهر فى جملة معينة لابدّ أن تكون سمات عارضة بالنسبة للنظام اللغوى كله. إنها السمات التى اخترناها فى هذا المثال. وعلى ذلك ففى تفسير الجملة نحاول أن نربط ما نقوله بالفصائل العامة general categories الموجودة فى نحو اللغة.

دعنا نمعن النظر فى الجمل الآتية :

أو اتركى قبلة فى الكأس، ولن أطلب نبيذًا

هذه جملة من قصيدة إنجليزية مشهورة فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى (بن جونسون : إلى سيليا) إنها ليست البيت الأول، كما يمكن أن نتصور ذلك بسهولة. إنها فى الحقيقة البيت الثانى. ولن أشغل بالبيت الأول الآن، بل أريد أن أقوم بنوع من التعليق التحليلى على هذه الجملة، لا بوصفه - على أية حال- جزءًا من تحليل أدبى، بل بوصفه تدريبًا لسانيًا نطابق به السمات التى توضح النقطة العامة وهى الأساس الوظيفى للغة.

المعنى التجربى Experiential Meaning :

دعنا إذن ننظر أولاً إلى هذه الجملة من وجهة نظر تتصل بمعناها بوصفه التعبير عن نوع ما من العمليات : واقعة ما، حدث، حالة، أو أية ناحية أخرى، يمكن إدراكها فى عالم الواقع، ترتبط به بعلاقة رمزية من نوع ما. فإذا نحن حملناها على ظاهرها إلى حد ما أمكن تفسيرها على النحو الوارد فى الجدول الآتى (جدول رقم ٢) :

الجدول رقم (٢)

التركيب التبادلى

أنت اتركى قبلة فى الكأس و (أنا) لن أطلب نبيذًا

(أنت)	اتركى	قبلة	فى كأس
فاعل حقيقى	حدث	شىء	موضع
فاعل نحوى	عملية	هدف	ظرف مكان

(أنا)	قطبية	طلب	نبيذ
فاعل حقيقى	نفى	عملية	شىء
قائل		منطوقة	مجال

ولنتأمل كلمة **(اتركى)** : إذا أخذناها وحدها سوف نفسرها بأنها نوع من العمليات، بتحديد أدق : حدث ما. ثم هناك كلمة **(قبلة)** والمفروض أنها نوع من الأشياء على الرغم من أنه ليس واضحًا كل الوضوح أى نوع من الأشياء تكون، وهى مجال الحدث أو نطاق تأثيره. والذى ربط بين هاتين

الكلمتين هو (فى + الكأس) وهو نوع من العناصر الظرفية، المفروض أنه ظرف مكان، أى موضع. وعلى هذا فإن عندنا تمثيلاً للحدث، وشيئًا يتـأثر بـالحدث، ومكانًا يقع فيه. وقد نشعر أيضًا أننا مضطرون إلى أن نسدّ حاجتنا إلى شـخص يؤدى الحدث. ومن ثم دعنا نضف -لغرض الإيضاح فحسب- شيئًا يمكـن أن نسميه فاعلاً، أى شخصًا يفعل الفعل، لأن ذلك لا يتحقق صراحة فى اللغة.

كذلك الحال فى النصف الثانى من الجملة، ثم كلمة (نبيـذ) التـى هـى نوع معين من الأشياء، وكلمة (أطلب) التـى يمكـن أن نعتبرهـا عنصـرًا مفـردًا، وهى عملية، ولكنها مختلفـة عـن العمليـة السـابقة؛ إذ إنـك تطلـب شيئًا، وقـد تستخدم نوعًا من أنواع الإشارات، ربما كان إشارة لغوية، لتحقيق هذا الغرض، دعنـا نسـمها عمليـة شـفوية أو لفظيـة verbal process. وهنـاك أيضًـا فـاعل حقيقى doer، لكن الفاعل الحقيقى يتمثل الآن فى كلمة (أنا)، وهو مرة أخـرى فاعل من نوع مختلف، ليس فاعلاً نحويًا بل هو فاعل يشترك فى العمليـة اللفظيـة -أو لا يشترك فيها لأنه فى الحقيقة منفى- فلنسمّه "القائل" sayer.

من ثم فإن الجملة -على أبسط مستوى- يمكـن أن تعـد تمثيـلاً لظـاهرة مركبة فى عالم الواقع، فنحن نعلم أن فيه أشـياء مثـل الكئـوس، والنبيـذ، ونحـن نعرف أننا حين نتكلم نصبح أشخاصًا : "أنا" و"أنت"، ولدينـا تصـورات معينـة لهذه الأشياء. إننا نعرف أن ثمة عمليات تختص بالطلب والترك، حتى ليمكننا أن نفعل شيئًا ينطبق عليه مفهوم "القبلة"، مع أنه شىء مختلف عن النبيذ، لأنه علـى الرغم من أنه مشفر نحويًا على أنه اسم فهو عادة اسم لحدث وليس اسمًا لشـىء. على أية حال إذا كان مما يمكن أن نتركه فى كأس فمن الجائز إذن عند مسـتوى معين من التفسير أن نراه أيضًا شيئًا.

لم نخطُ حتى الآن إلا خطوة واحدة فى تفسير هـذه الجملة مـن حيـث هى تمثيل لظاهرة يمكن إدراكها، لكننا عزلنا من هذه الجملة سمات معينة يمكن أن تعدّ ممثلة لعالم الواقع كما هو مدرك فى تجربتنا. ويمكن القول إنها تعبر عـن المعنى التجربى لتلك الجملة. ومن الواضح أنه سيكون علينا أن نضيف إلى ذلك مكونًا component آخر يأخذنا إلى عالم التمثيل التخييلى أو غير الصريح للتجربة. وتلك خطوة أخرى فـى التفسير تسمح لنا أن نوضح هـذا التصور الغريب فى قول الشاعر : "**اتركي قبلة في الكأس**".

من الممكن أن نعد هذا تعبيرًا استعاريًا موسعين المصطلح ليشمل أى عنصر من عناصر التمثيل فيه نقل، نقل من نوع ما، كذلك الذى تمثل هنا فى النقل المزدوج لمعنى كلمة "قبلة"؛ لأن كلمة قبلة بوصفها اسمًا هى فعلاً كلمة استعارية من حيث إنها اسم لعملية أكثر من كونها اسمًا لشىء، تلك الخطوة الاستعارية الأولى هى خطوة مؤسسة داخلة فى تكوين اللغة الإنجليزية. وهنا تأتى على كل حال الخطوة الثانية: استعمال خاص لكلمة قبلة يقتضى عودة -على مستوى أعلى- إلى تصور متمثل فى حقيقة أن كلمة "قبلة" اسم؛ فالأسماء -نمطيًا- تدل على مسميات (أشياء)، والأشياء يمكن أن تترك فى أرجاء المكان، ومن ثم نستطيع أن نقول : "**اتركي قبلة فى كأس**". لقد تطلب منا هذا خطوتين لكى نصل إلى هذه النقطة، كل خطوة منهما تضمنت نوعًا من النقل الاستعارى.

إذا نحن تابعنا هذا الخط من الاستدلال، خطوة كل مرة، فسوف نكون قادرين على تكوين سلسلة من الإدراكات الاستعارية تؤدى بنا إلى تفسير هذه الجملة بوصفها ممثلة لما يمكن أن نشفره على نحو أقل استعارية وأكثر مباشرة، كما فى نحو : "**قبلاتك أشهى من النبيذ**". وبطريقة أكثر مباشرة ربما نستطيع

أن نفسرها فنقول : "أحب أن اقبلك أكثر من حبى لشرب النبيذ". وحتى هذا بطبيعة الحال لا يضع نهاية للقصة؛ لأننا من ثم مضطرون إلى السعى وراء صيغ التعبير والأعراف الأدبية التى تقرر أن هذه الصياغة طريقة ملائمة لإبلاغ رسالة مخصوصة؛ لكن لكى نقوم بذلك لابد أن نعدل عن صيغة تجريبية للمعنى إلى أخرى، وننظر إلى الجملة نفسها من وجهة نظر أخرى مختلفة.

المعنى التبادلى Interpersonal Meaning :

انظر إلى الجدول رقم (٣)

الجدول رقم (٣)

التركيب التبادلى

أو اتركى قبلة فى الكاس

أنت	افعلى ذلك
فاعل	بقية
طلب : رجاء	

و

لن أطلب نبيذًا

أنا	طوعًا	أفعل هذا
فاعل	محدود	بقية
عرض : تعهد		

فى النصف الأول نميز شيئًا يدل علي الرجاء : "**أرجوك أن تفعلى هذا**". وهذا بأبسط المصطلحات الدلالية شكل من أشكال وظيفة الطلب فى الخطاب العام. فإذا نظرنا الآن إلى النصف الثاني من الجملة فسوف نميز المعنى: "**لن أفعل ذلك**" أو بعبارة أخرى "**أتعهد بألا أفعل ذلك**"، وهذا شيء يمكن أن نشفره بأكثر الألفاظ شيوعًا مستخدمين كلمة العرض **offer**.

إننا ننظر هنا إلى ناحية من معنى الجملة جدّ مختلفة. إننا لا ننظر إليها الآن من جهة وظيفتها فى تمثيل تجربتنا، بل ننظر إليها من جهة وظيفتها فى عملية التفاعل الاجتماعى، فهى لا تفسَّر بأنها طريقة فى التفكير، بل طريقة فى

الفعل؛ فالمعنى هو : **"أرجوك أن تفعلى شيئًا، وأتعهد بألا أفعل شيئًا آخر"** - من هنا شفر نوع آخر من المعنى فى الجملة نفسها، نوع من المعنى سوف نطلق عليه "المعنى التبادلى"، فالجملة ليست تمثيلاً للواقع فحسب، بل هى أيضًا قطعة من التفاعل بين المتكلم والسامع، فعلى حين أن اللغة فى معناها التجريبى وسيلة عاكسة، فهى فى معناها التبادلى وسيلة فاعلة. إننا فى الحقيقة نستطيع أن نستخدم هذين المصطلحين فنتحدث عن اللغة بوصفها انعكاسًا **reflection**، وعن اللغة بوصفها فعلاً **acting**، من حيث هى طريقة للدلالة على المعنيين التجريبى والتبادلى.

لاحظ أننا فى التحليل النحوى نحتاج الآن إلى معرفة مجموعة متميزة أخرى من العناصر. ولن نقوم بالتحليل الآن بمصطلحى "المشاركين **participants**" والعمليات **processes**، وفكرة الفاعل (المسند إليه **subject**) وعناصر أخرى متصلة به لا تظهر هنا، ففى العبارة الثانية عندنا المسند إليه "أنا"، وفى العبارة الأولى عندنا المسند إليه "أنت",

(أنت) اتركى قبلة فى الكأس و (أنا) لن أطلب نبيذًا

المعنى المنطقى Logical Meaning :

إذا نحن جمعنا بين التفسيرين التجريبى والتبادلى أمكننا أن نفسر كل عبارة على حدة، لكننا لانزال مضطرين إلى تفسير حرف العطف (الواو). وبعبارة أخرى: هذان القسمان من الجملة بينهما علاقة على نحو ما، والآن يبدو شكل العلاقة نوعًا من الربط **co-ordination** البسيط بين شىء وآخر : **(أنت) اتركى قبلة "و" (أنا) لن أطلب نبيذًا**، أو هو على نحو أكثر تحديدًا -رجاء، والآخر عرض **offer** فما معنى الربط بين رجاء وعرض ؟ من الواضح أن هذا شىء يجب أن نعيد تفسيره على أنه شىء آخر غير الربط البسيط بين عناصر

متماثلة، فعادة حين نربط (أ) و(ب) فإن (أ) و(ب) ينتميان إلى فئة واحدة. أما هنا فإن (أ) و(ب) لا ينتميان إلى فئة واحدة، إذ إنّ أحدهما طلب والآخر عرض، فما نتيجة الربط بينهما ؟ النتيجة أننا نحتاج إلى إعادة تفسيرهما فى ضوء علاقة أخرى لا نعبر عنها في الإنجليزية تعبيرًا إردافيًا paratactically كما هى الحال هنا، بل على نحو اتباعى hypotactically باستعمال (إذا). وعلى ذلك فالخطوة التالية التى نحن فى حاجة إليها هى أن ندرك أنه ليس ثمة استعارة فى المعنى التجريبى فحسب، بل ثمة استعارة أيضًا فى المعنى التبادلى؛ لأن الشىء الذى شفر على أنه "التماس مع عرض" سوف يفسر فى الحقيقة على أنه عرض مشروط بالموافقة على رجاء. ويمكننا أن نعبر عن هذا بقولنا : "إذا تركت قبلة فى الكأس فلن أطلب نبيذًا". وعلى ذلك فالمعنى التبادلى هو: إذا أنت (**وافقت على**) أن تفعلى هذا فأنا (**أتعهد بـ**) ألاّ أفعل ذلك.

لكننا لكى نخطو هذه الخطوة اضطررنا إلى أن نستنجد بوظيفة ثالثة من وظائف اللغة، أو بجانب ثالث من ترتيب النظام الدلالى هو تعبيره عن العلاقات المنطقية الجوهرية، وهى ليست علاقات المنطق الصورى، بل هى تلك التى أخذت منها فى النهاية علاقات المنطق الصورى. أما العلاقات المنطقية التى أنشئت فى اللغات الطبيعية فهى العلاقات التى يعبر عنها فى النحو بوصفها أشكالاً من الربط أو الإرداف parataxis والتفريع أو الإتباع بالأداة hypotaxis من ثم فالمكون الثالث فى مثالنا، الذى ينبغى أن نعتد به لتوضيح هذه العلاقة بين الجزأين، هو العنصر المنطقى الذى يمثله معنى : "**إذا ... فـ**".

إذا تركت قبلة في الكأس فلن أطلب نبيذًا

لقد قمنا بعدد من الخطوات لتفسير هذا البيت فى اتجاه إيضاح كيفية دلالته على ما يفعل. إذا توقفنا عند هذه النقطة، وعدنا فالتقطنا التفسير الذى

ذكرناه من قبل وهو **"قبلاتك أشهى من النبيذ"**، وجعلناه الآن يتضمن فى المعنى المكونَ التبادليَّ الفعال فإننا نستطيع أن نجعله شخصيًا، ونعيد تفسير البيت على نحو أقرب إلى المراد، فنقول : **"قبلاتك عندى أثمن من النبيذ"** إننا عندئذ نستطيع أن نعدّ كلمة **"قبلة"** وكلمة **"نبيذ"** عمليتين فنقول : **"أحب أن أقبلك أكثر مما أحب أن أشرب الخمر"**. وإعادة التفسير هذه تؤدى إلى الاستعارة النهائية حيث تدل الصياغة على "تصريح بالحب".

ثمة فضلاً عن ذلك مثال آخر للعلاقة المنطقية فى البيت، تتمثل فى استخدام **"أو"** التى تربطه ربطًا إردافيًا بما سبقه. ونحن على كل حال لم نمعن النظر بعد فى البنية النصية الشاملة. إننا لم ننظر إلى هذا البيت من جهة خصائصه بوصفه خطابًا discourse فلكي نقوم بذلك نحتاج إلى سياق. من هنا علينا أن نبدأ بما يجب أن نستوفيه في البيت الأول الذى ورد فى القصيدة قبله، وهو :

اشربى لحبى بعينيك فحسب وسوف أعاهدك بعينيّ أنا

أو اتركى قبلة فى الكاس ولن أطلب نبيذًا

الآن نلاحظ عددًا من السمات الإضافية فى هذا النص :

١- النمط الخاص بـ(أنت) افعلى كذا و(أنا) سوف أفعل كذا تكرر فى الحقيقة فى الموضعين، أى : (أنا) أطلب منك أن "تفعلى" ذاك و(أنا) سوف "أفعل" هذا، فالمعنى هنا أيضًا على "إذا"، أى : **"إذا أنت شربت لحبى بعينيك فسوف أعاهدك بعينى"** وهو مماثل لـ**"إذا أنت تركت قبلة فى الكاس فلن أطلب عندئذ نبيذًا"** فهنا نمط واحد : طلب متبوع بعرض، وهو فى كلتا الحالين عرض مشروط بالموافقة على طلب. هذا التكرار هو نفسه جانب من جوانب "النصية" texture.

٢- هناك الترتيب الموضوعى thematic لهذين البيتين، ففى كل منهما حددت الوظيفة الكلامية فى صدر العبارة بجعلها تمثل الموضوع. إنهما كالإعلان عند البدء "ما أوشك أن أقوله طلب" أو يكون ما يكون. هذه المطابقة بين الموضوع theme والصيغة الفعلية mood ليست غريبة على وجه العموم. إنها فى الحقيقة النموذج النمطى الذى يستخدم لكل عرض offer وطلب command حيث يبدأ المتكلم فى الأغلب بالعنصر الذى يعلن عن الصيغة (وكونه نمطيًا لا يقلل من أهميته بالقياس إلى البنية النصيّة).

٣- ثمة مكون آخر فى "النصية" يعتمد على الإيقاع rythm والتنغيم intonation، وهو ما يجعلنا نتبع من أجله طريقة خاصة فى قراءة البيتين أود أن أوضحها على النحو الآتى : (الشرطة المائلة أو الشرطتان تدل أو تدلان على نهاية التفعيلة(*)، والعلامة (‸) التى توضع تحت مستوى السطر تدل على إيقاعة beat غير منبورة).

// ‸ or / leave a / kiss wi /thin the /cup //
‸ and / i'll not / ask for / wine //

إذا أنت قبلت هذه القراءة فعندنا إذن ثلاث نقاط لعلو الإيقاع أو البروز prominence هى : قبلة، وكأس، ونبيذ. هذه القصيدة بطبيعة الحال مألوفة عند أغلب الإنجليز من حيث هى أغنية، منذ أن لحنت، أكثر من كونها كلامًا يقال، لكنها إذا نطقت بطريقة طبيعية دون موسيقا فهذه إذن هى المواضع المحتملة التى يظهر فيها البروز.

هذا النوع من البروز سمة من سمات النظام الفونولوجى فى الإنجليزية الحديثة الذى تقسم فيه أية قطعة من خطاب منطوق إلى تتابع من مجموعات

(*) التفعيلة foot فى الشعر الإنجليزى تتكون من مقطعين أحدهما منبور والآخر غير منبور (المترجم).

نغمية أو وحدات منغمة، لكن منها حد نغمي فاصل (قد بينته الشرطتان المائلتان (//) في المثال السابق). وليست المجموعة النغمية مجرد وحدة صوتية، وإنما تعبير عن "وحدة معنى"، عن كتلة واحدة من المعلومات في مجمل الرسالة. وفي كل وحدة معلومات نقطة بروز هي نواة النغم (وقد أظهرت هنا بكتابتها بالخط البارز)، والبروز أيضًا سمة فونولوجية. إنه القطعة التي تحمل أكبر قدر من الحركة المنغمة، لكنه مرة أخرى يعبر عن بروز في المعنى. إنه يشير إلى بؤرة المعلومات في الوحدة، هذه البؤرة تدل على ذروة المعلومات الطارئة (سواء أكانت جديدة أم تقابلية) من ثمّ فالنمطان كلاهما -التقسيم إلى وحدات من المعلومات، وتحديد موقع البؤرة في كل منها- يكونان معًا عنصرًا جوهريًا في "نصيّة" اللغة المنطوقة.

٤- النص في الحقيقة بيت من الشعر، ولذا فإنَّ له إيقاعًا نموذجيًا بسبب انتمائه إلى نوع أدبي مخصوص. بعبارة أخرى إن له بحرًا حددته صيغة شعرية مخصوصة جاء مثالاً لها، وهي هنا البنية العروضية المرتبة في شكل تقليدي :

/ or leave / a kiss / within / the cup /
and I'll / not ask / for wine /⌢ /

باستثناء أنه في علم العروض التقليدي قد يقال إن في البيت سبع تفعيلات على حين أن فيه في الواقع ثماني تفعيلات؛ لأن ثمة تفعيلة صامتة في النهاية. فهو بيت ذو ثماني تفعيلات، يتكون كل منها من مقطعين : قصير وطويل (إيامبك). وهذا النمط العروضي سمة أخرى من سمات البنية النصّية. والإيقاع الحقيقي للبيت نتاج للتوتر الحاصل بين بنيته العروضية وإيقاعه الطبيعي الذي يكون له في حوار بالإنجليزية المنطوقة.

إننا نستطيع إذا أردنا، أن نمضي إلى مرحلة أبعد، فنحلل البيت بمصطلحات تتصل بتنغيمه حين ينطق بصوت عالٍ. ومرة أخرى سوف يكون

هناك التوتر الحاصل بين الفواصل النغمية فى الخطاب الطبيعى، والخواص التنغيمية للحن الموسيقى.

كل هذه السمات -التوازن الدلالى والنحوى بين البيتين، والبنية الموضوعية، والإيقاع، والبؤرة الإخبارية، ثم البنية العروضية -تمثل جوانب مختلفة من نصيّة البيت. إننا نشير إل كل هذا على أنه معناه النصى، والمعنى النصّى هو الذى يجعل من البيت نصًا يميزه عن نمط الصياغة المصطنعة أو المتحجرة.

خلاصة القول أننا ميزنا الآن أربعة جوانب مختلفة لمعنى البيت هى فى الحقيقة المكونات الأربعة فى علم دلالة أية لغة. ولكى نكون قادرين على استخدام هذه المفاهيم فإننا فى حاجة إلى أن نكون قادرين على أن نتحدث عنها، وقادرين على أن نعطيها أسماءها. وسوف نشير إليها على النحو التالى :

المعنى التجريبى	experiential
المعنى التبادلى	interpersonal
المعنى المنطقى	logical
المعنى النصى	textual

إن خيوط المعنى هذه كلها متداخلة النسج فى تركيب الخطاب. إننا لا نستطيع أن ننتقى كلمة مفردة أو عبارة ونقول : إن لهذه معنى تجريبيًا فحسب، أو إن لتلك معنى تبادليًا فقط. ما كان علينا أن نقوم به فى تحليل نصنا هو أن نعود كل حين إلى الجملة كلها، ونفحصها مرة أخرى من وجهة نظر جديدة.

وهذه نقطة مهمة ينبغى الالتفات إليها؛ لأن ثمة قدرًا من سوء الفهم لمفهوم وظائف اللغة، فكثيرًا ما يفترض أن لكل جملة وظيفة واحدة فحسب، أو

فذلك يقتضى أن يكون من الممكن أن نشير إلى كل جزء منفصل من الجملة ونقول: هذا الجزء من الجملة له هذه الوظيفة، وذلك الجزء له تلك الوظيفة، والجزء الآخر له وظيفة أخرى، لكن الحياة على وجه العموم ليست كذلك، ومن المؤكد أن اللغة ليست كذلك، فكل جملة فى أى نص متعددة الوظائف، لكن ليس بتلك الطريقة التي تجعلك تشير إلى مكون معين أو قطعة معينة ثم تقول: هذه القطعة ليس لها إلا هذه الوظيفة. إن المعانى تنسج معًا فى نسيج كثيف بطريقة -لكى نفهمها- ينبغى ألا ننظر إلى أجزائها المختلفة نظرة منفصلة، بل الأحرى أن ننظر إلى الشيء كله، على نحو متزامن، من عدد من الزوايا المختلفة. وكل جهة من جهات النظر تسهم في التفسير الكلي. وتلك هى الطبيعة الأساسية للاتجاه الوظيفي.

العلاقة بين النصّ ومقامه :

قبل أن نفرغ من هذا البيت دعنا الآن ننظر إليه من وجهة نظر وظيفة الشيء كله فى سياق أوسع متبنين وجهة النظر التى ناقشناها فى الفصل الأول حين تكلمنا عن العلاقة بين النص والمقام context of situation فقد نكون قادرين على قول بعض الأشياء عن هذا البيت، ومن ثم عن القصيدة كلها ضمنًا، وذلك بالمصطلحات الآتية : المجال field ونوع المشاركة tenor والصيغة mode. فما الذى يمكن أن نقوله تحت تلك العناوين ؟

أما فيما يتعلق بمجال الخطاب -وهو الفكرة العامة التى يدور الكلام حولها- فإننا نستطيع أن نقول بوضوح إنه "قصيدة حب" بأشد الألفاظ عمومًا، فإن مجال الخطاب هو "الحب"، لكنه حب معبر عنه تعبيرًا استعاريًا باستخدام مفاهيم الشراب والنخب.

أما عنواننا الثانى وهو نوع المشاركة فيركز على العلاقات الشخصية القائمة : من هما المشاركان فى هذا النص ؟ بوضوح، وبأشد الألفاظ عمومًا: هما رجل وامرأة، وبتحديد أكثر هما حبيب وحبيبة. وينبغى أن نضيف، على أية حال، أن ثمة عنصرًا فرعيًا هنا هو أنَّ هذه قصيدة، وذلك يعنى أنها نص عام، ولا نعرف على وجه التحديد فى أية مرحلة من مراحل وجودها أصبحت نصًا عامًا. لقد كان هذا على أية حال نوعًا معترفًا به وشائعًا فى بداية القرن السابع عشر. ومن جهة أخرى قد يكون فى المقام الأول قصيدة حب كتبها شاعر لحبيبته قبل أن ترى النور، بوصفها نصًا عامًا. أيًا ما كان الأمر، لقد كان فى هذا النص نوع ثانوى من المشاركة يتعلق بشاعر يوجه الخطاب إلى معاصريه.

وأما الثالث الذى يتعلق بصيغة الخطاب فينبغى القول بأنه الجزء الخاص الذى تقوم فيه اللغة بدور فى العملية التفاعلية. فى المثال الأول عاملناه على أنه نص منطوق، وهو أيضًا بطبيعة الحال وثيقة مكتوبة. ولهذا دعنا نقل إنه منطوق/ مكتوب. ويمكننا أن نحدده على نحو أكثر تفصيلاً بأنه قد يكون كتب ليلقى بصوت عال، لكن علينا أيضًا أن نقول إنّه منغَّم، تمييزًا له عما هو تلقائى. إنه تعبير من نوع أدبى معترف به، يتطلب صيغًا من التعبير، متقنة إلى حدّ كبير، ومنغلقة على ذاتها إلى حدّ ما، ويشار إليها غالبًا على أنها تصور غريب، أو "استعارات تخييلية" بعضها (وليس كلها) يَبْدهُنا بخروجه عن المألوف. وهذا بدوره نتاج مرحلة مخصوصة فى التاريخ الاجتماعى / الثقافى لإنجلترا فيما بعد العصر الإليزابيثى.

ما الذى يمكننا أن نقوله عن العلاقة بين هذه العنوانات : المجال، ونوع المشاركة، والصيغة، وعن السمات اللغوية الخاصة الموجودة فى القصيدة ؟

يمكننا أن نرى أن المجال -وهو فى الواقع قصيدة حب مع تصور للحب قد تحقق استعاريًا على هذا النحو- قد انعكس ببساطة شديدة على المفردات، وعلى تحديد العمليات processes، والمشاركين participants. إنه منعكس فى استعمال الكلمات "اشربى"، "اشربى وأعاهد"، و"كأس"، و"نبيذ"، و"عينى"، و"قبلة" وهى تتضمن عنصرين أساسيين : عنصر "الشراب" المتمثل فى الكلمات "اشربى، اشربى وأعاهد، كأس" من جهة، ومن جهة أخرى "موتيف" الحب المتمثل على وجه الخصوص فى "العينين" و"القبلة". وثمة بطبيعة الحال تفاعل معقد بين هذين العنصرين يتمثل فى فكرة الكأس التى مستها الشفتان بما يشبه القبلة، وفى العينين اللتين تلتقيان عبر الكأس كما فى الحب.

لكن مجال الخطاب لم ينعكس على المفردات فحسب، بل كان متضمنًا أيضًا فى تعدية التراكيب فى النحو : فى العمليتين الفعليتين : "أعاهد"، و"أطلب". وفى العمليتين "اشربى" و"القبلة"، لكن ليس -كما نلاحظ- "يشرب" + "نبيذًا" أو "يقبّل" + "شخصًا"، فهذه أفعال غير متعدية فى القصيدة، فليس هناك مفعول به لـ"يشرب" أو "يقبل".

والآن إذا نظرنا إلى هذا النمط بمزيد إمعان أمكننا أن نرى السمات المقامية التى أدخلناها تحت مجال الخطاب قد انعكست انعكاسًا كبيرًا على واحد فقط من صيغ المعنى فى القصيدة، هى تلك التى أشرنا إليها بالصيغة التجريبية. وعلى هذا هناك نوع من العلاقات النظامية بين الاثنين يمكننا أن نعبر عنه على النحو الآتى: **يعبر عن المجال من خلال الوظيفة التجريبية فى علم الدلالة.**

ثانيًا : إذا نحن تأملنا نوع المشاركة فى الخطاب الذى له صلة بعلاقة رجل بامرأة، حبيب وحبيبة على وجه التحديد، وبعلاقة الشاعر بمعاصريه،

فكيف كان التعبير عن هذه الناحية من المقام ؟ كان من خلال اختيار الشخص بالمعنى النحوى : "**أنا**" و"**أنت**"، وكان هذان هما المسند إليهما فى هذين البيتين، ومن جهة أخرى كان من خلال اختيار الوظيفة الكلامية "**الطلب**" (الرجاء تحديدًا) و**العرض** (التعهد تحديدًا). فالطلب قد تحقق نحويًا من حيث هو جملة أمرية: "**اشربى لحُبى بعينيك فحسب**"، "**اتركى قبلة فى الكأس**" وتحقق العرض نحويًا من حيث هو جملة خبرية المسند إليه فيها "**أنا**" فضلاً عن أداة الاستقبال "سوف" "**وسوف أعاهدك بعينى أنا، ولن أطلب نبيذًا**".

إنَّ هذا يمثل نوع المشاركة، أى العلاقات الشخصية اللازمة بتشفيرها فى استعارة بارعة محكمة الصياغة مثل : افعلى هذا، وسوف أفعل ذاك، وهذا بدوره يعد تمثيلاً للعلاقة العرفية التى تظهر دائمًا فى هذا النوع الأدبى، عرف الحبيبة المتمنعة التى ينبغى أن تحمل على الموافقة والاقتناع. وكما أننا كنا قادرين على أن نقف على سمات معجمية - نحوية **lexico-grammatical** معينة، بوصفها عاكسة للمجال خاصة، أى تلك التى حددناها بوصفها حاملة المعنى التجريبى، فإننا نستطيع كذلك أن نقف على سمات معجمية - نحوية أخرى بوصفها عاكسة لنوع المشاركة على وحه الخصوص، أى تلك التى حددناها بوصفها حاملة للمعانى التبادلية. بعبارة أخرى: **يعبر عن نوع المشاركة من خلال الوظيفة التبادلية فى علم الدلالة.**

وأخيرًا حين نأتى إلى صيغة الخطاب فى الشعر الغنائى فى نوع أدبى مرتبط بالشعراء الميتافيزيقيين، فإن ذلك الارتباط يحدد -بالإضافة إلى النمط العروضى- الموضوع الذى يختار الشاعر الكتابة فيه. إنها سمات عامة فى الشعر الغنائى أن يوجه موضوعه على نحو قوى إل شخص، حتى يكون الشاعر والمخاطب هما الموضوع: فـ"أنا" و"أنت" يأتيان أولاً. فضلاً عن ذلك

فالقصيدة بوضوح، نص مكتفٍ بذاته، وقد انعكس هذا فى قوة النصية الداخلية، فى التوازن الذى لاحظناه بين العبارتين الأوليين. وكل هذه السمات مجتمعة تدل على الصيغة. مرة أخرى لهذا يمكننا أن نسجل ملاحظة عامة هى أن الصيغة تنعكس نمطيًا فى السمات المعجمية النحوية التى كنا قادرين على تحديدها بوصفها حاملة للمعانى النصية :

يعبر عن الصيغة من خلال الوظيفة النصية فى علم الدلالة

تلخيصًا لهذه الفقرات القليلة الأخيرة يمكننا أن نصوغ العلاقة بين المقام والنص على النحو المذكور فى الجدول رقم (٤) :

الجدول رقم (٤)

علاقة النص بالمقام (= سياق الحال)

المقام	يتحقق بـ	النصّ
سمات السياق		المكون الوظيفى فى النظام الدلالى
مجال الخطاب ما يدور حوله		المعانى التجريبية التعدية، التسمية... إلخ
نوع المشاركة فى الخطاب من يشترك فى الحديث		المعانى التبادلية الصيغة، الصيغية، الشخص...إلخ
صيغة الخطاب الدور المخصص للغة		المعانى النصية الموضوع-المعلومات-علاقات متماسكة

الوظائف والمعانى فى النص :

نوع النمط الذى وجدناه فى بيت الشعر السابق -حيث استطعنا على نحو منظم أن نربط عناصر المقام بمكونات المعنى فى النص- ليس شيئًا مصنعًا لهذا النص المخصوص، بل هو فى الحقيقة سمة عامة فى كل النصوص. دعنا

ننظر مرة أخرى فى مقتطف من حديث إذاعى قدمه أسقف وولويتش(*) من حيث هو مثال لنص من نوع مختلف حدّ الاختلاف عن النص السابق. وقد كان هذا الحديث مناقشة عن طبيعة العقيدة المسيحية، ودفاعًا عن العقيدة فى مواجهة إلحاد القرن العشرين. وقد حددنا مجاله، ونوع المشاركة فيه، وصيغته على النحو الآتى :

المجال : المحافظة على نظام من العقائد تقوم عليه مؤسسة دينية، الديانة المسيحية، موقف الأعضاء منها، نصف اصطلاحى.

طبيعة المشاركة : سلطة (بكلا معنييها : أى شخص بيده سلطة، وشخص متخصص يوجه خطابه إلى الجمهور)، جمهور غير مرئى وغير معروف (كجمهور القراء) لكن العلاقة نظامية (من قس إلى جمهور).

الصيغة : مكتوب ليُقرأ بصوت عالٍ، فعل عام (وسيلة الإعلام : الراديو) حديث من طرف واحد (مونولوج). نص هو كل النشاط المتعلق بالموضوع، مقنع، مع استخدام الاستدلال المنطقى.

(*) ذكر هاليداى هذا المقتطف فى الفصل الأول من الكتاب ص١٣- ١٤. ولم يُعِد ذكره هنا، وسوف أورده مترجمًا ليستطيع القارئ متابعة المناقشة :

(من حديث إذاعى لأسقف وولويتش :

... لذلك ينبغى أن يأخذ المسيحى الإلحاد مأخذ الجد لا لكى يكون قادرًا على الرد عليه فحسب، بل لأنه هو نفسه ينبغى أن يظل مؤمنًا فى منتصف القرن العشرين .. آخذين ذلك فى الحسبان فإنى أسألك أن تتعرض لمطاعن الإلحاد الثلاثة الجديدة، فهى ليست مجرد ثلاثة أنماط من الإلحاد كل منها موجود بدرجات متفاوتة فى أى نمط يمثلها، بل هى ثلاثة بواعث دفعت الناس أن يتساءلوا أو يشكوا فى الإله الذى نشأوا ونشأنا فى ظله، وهى متمثلة فى عبارات ثلاث موجزة :

- الإله عقلاً غير ضرورى
- الإله عاطفة يمكن الاستغناء عنه
- الإله أخلاقًا لا يطاق.)

، لننظر ما فى هذا النص الذى يكشف عن السمات المتعددة لسياقه :

فيما يتصل بالمجال عندنا مرة أخرى بوضوح شديد المفردات -كلمات وظيفتها أنها أسماء، فثمة وحدات معجمية تعبر عن معنى المسيحية، والمحافظة على المعتقدات، وهى لا تقتصر على لفظتى "إله" و"مسيحى"، بل تشمل أيضًا "الإلحاد" و"المؤمن"، وتعبيرات من نحو "البواعث التى تدفع المرء إلى الشك" وفيه أيضًا كلمات تستخدم فى الهجوم، ومقاومة الهجوم، الاستعارة العسكرية فى المقدمة، كما كانت دائمًا فى الكتابات المسيحية، حيث ينبغى أن يكون مفهوم المسيحى المحصّن فى المقدمة. وثمة أيضًا كلمة "مطاعن". فإذا أضفنا إلى الجملتين التاليتين المقتطف التالى، فسوف نجد كلمة "دفاع" و"تقدم" و"استسلام".

لكن مرة أخرى ينبغى ألا يعنى هذا ضمنًا أن المفردات هى التى حملت المعنى التجريبى منفردة، فالكلمات فى وظيفتها بوصفها أسماء هى حقًا جانب من أنماط التعدية فى النحو، وأنماط العملية التى تحدثنا عنها، وهى تلك التى تحمل حقًا المعنى التجربى. فى هذا النص، كما هو المتوقع من النظر إلى مجال الخطاب، نجد بصفة أساسية نوعين من العمليات :

١- من ناحية هناك العمليات العقلية mental التى تعكس ما يمثل قطعة من الخطاب ذات ارتباط وثيق بالفكر، عمليات يعبر عنها بالكلمات مثل : "أخذه مأخذ الجد"، "أجاب"، "يتعرض لـ"، "شك"، "كبرير". وأهمية هذه ليست فى الكلمات المخصوصة بقدر ما تمثل فى حقيقة أنها جميعًا تعبيرات لنوع واحد من العمليات فى اللغة، ذلك النمط من العمليات العقلية الذى يمكن ضمنًا أن نعبر عنه تعبيرًا لفظيًا. إنها أفكار يمكن أن تقال بصوت عالٍ. إن هذه هى وظيفتها فى النظام الدلالى فى الإنجليزية الذى هو محور اهتمامنا هنا.

٢- النوع الثانى من العمليات الموجودة فى هذا النص، مرة أخرى كما هو متوقع، هو العملية العقلانية، حيث يتركز النقاش حول مشكلات الوجود والمرجعية. وهذه يعبر عنها من خلال عمليات علاقية بأفعال من نحو: "يمثل"، "يكون"... وهكذا، فمجال الخطاب ملحوظ بوضوح فى أنماط التعدية التى هى التعبيرات اللغوية الأولية عن الوظيفة التجريبية.

وطبيعة المشاركة، كما رأينا، هى التى تصدر من القس إلى الجمهور، وقد انعكس هذا نمطيًا فى السلسلة : أطلب منك (أن تفعل شيئًا) ثم دعنا (نفعل شيئًا معًا) بعبارة أخرى يكون التفاعل بعبارة هاأنذا القس وهاأنتم أولاء الجمهور، وأنا أدعوكم إلى فعل شيء، ولكننى أريدكم أن تنظروا إلى هذا على أنه شيء نشترك فيه معًا، فدعونا ...(تأمل هذه عودًا على بدء). وقد استمرت الفكرة المتكررة (الموتيف) نفسها فى المقطوعات التالية حيث يشير المتكلم إلى "تنشئتهم" و"تنشئتنا"، و(نا) هنا تعنى المخاطبين والمتكلم، و(نحن) التى يراد بها الشمول مقصودة هنا.

ثم هناك صيغة الفعل، وهى التعبير عن وظيفة الكلام فى النحو التى تعرض نمطًا شائقًا، فالأسقف يتكلم بوصفه سلطة، وهى -كما أشرت- سلطة فعلاً بالمعنيين اللذين يدل عليهما اللفظ، فهو متخصص، أى أنه سلطة أكاديمية بوصفه عالم لاهوت، وهو أيضًا راعى أبرشية، أى سلطة كنسية، وقد شفر دوره بوصفه متخصصًا فى عبارات إخبارية، حيث يكون المعنى : **"هذه هى الكيفية التى تكون عليها الأشياء"**، وهذا هو التفسير، وشفر دوره بوصفه راعيًا فى عبارات أمرية حيث يكون المعنى : **هذا ما ينبغى علكم و(على) فعله.** وأوامره غير مباشرة من أنواع مختلفة (مثلاً : **على المسيحى أن يأخذ الإلحاد مأخذ الجد**)، وعلى هذا فالتأثير العام مضاعف. هذا هو المقام : أنا أحدثك

حديث المتخصص: هذا ينبغى أن يُفعل، كما أحدثك بوصفى راعى أبرشية. ثم مرة أخرى نوع المشاركة أى العلاقة بين المتكلم وجمهوره منعكسة فى الأنماط النحوية التى تعبر عما نسميه المعانى التبادلية.

وأخيرًا الصيغة فهى خاصة بنص مكتوب ليلقى بصوت عالٍ، لكنه مكتوب بحرص شديد. إنه بسيط نحويًا إلى أقصى حدّ، ومكثف معجميًا إلى أقصى حد. والجمع بينهما سمة من سمات اللغة الرسمية المكتوبة، إنه على النقيض من اللغة التلقائية المتكلمة التى تميل إلى أن تكون معقدة.

لقد ميزت هذا النص تراكيب نحوية بسيطة، مع قدر ضخم من المادة المعجمية الممزوجة بها. هذا النص أيضًا استدلال منطقى، وهو بذلك يتتابع من خلال روابط مثل "لهذا"، "آخذين فى الحسبان"، "بدوره"، "أولاً"، "التالى" وهلم جرا. إنه مصوغ صياغة نصية عالية، لكن، بصفة أساسية، من خلال نوع من التماسك خاص به.

حيث تكون إحالة إلى سابق، كما هى الحال دائمًا فى أية مادة نصية، يحال دائمًا إلى نص. بعبارة أخرى حين تستخدم كلمات مثل: "هذه"، "هى"، "هم" فهى لا تحيل إلى أناس أو إلى أشياء، لكن إلى قطعة من الاستدلال السابق. وتلك خصيصة للخطاب المنطقى الاستدلالى الدقيق. مرة أخرى الصيغة، وهى الجزء الخاص الذى تقوم فيه اللغة بدور فى الحدث الكلى -طبيعة الوسيلة والوظيفة الخطابية- منعكسة فيما أسميناه المعانى النصية شاملة الأنماط المتماسكة.

أعتقد أن هذا الذى ذكرناه بأبسط الألفاظ هو الطريقة التى يقوم بها المتكلمون بتنبوات عن المعانى التى ينبغى أن تتبادل، وقد كانت هذه هى النقطة التى بدأت منها فى الفصل الأول. تخيل أنك دخلت، كما نفعل كثيرًا فى الحياة الواقعية، إلى موقف كلامى كان قد بدأ فعلاً، لا يهم أى موقف يكون؛

فقد يكون جماعة من الناس يشتركون في أي نوع من النشاط، وقد دخلت أنت فردًا على الجماعة. إنك سوف تكون قادرًا بسرعة شديدة على أن تشترك معهم في الحوار المتبادل. كيف تفعل ذلك ؟ إنك تفعله فيما أرى ببنائك في ذهنك نموذجًا للمقام: وأنت تفعل ذلك بالطريقة الآتية : إنك تحدد له "مجالاً" بملاحظة ما يجرى، ثم تحدد نوع المشاركة بالوقوف على العلاقات الشخصية القائمة، وتحدد الصيغة بملاحظة ما يمكن تحقيقه باللغة. إنك تقوم بتنبؤات عن أنواع المعانى التى من المتوقع أن تكون محور الاهتمام في هذا الموقف الكلامى الخاص. فأنت تأتي وذهنك متيقظ، ومعك بعض جوانب لغتك معدّة من قبل لتستخدم فى الحديث المتبادل. شيء مثل هذا فيما أعتقد هو الذى يحدث، وإلا فمن المستحيل أن نفسر كيف يمكننا فى الحياة الواقعية أن نشترك بهذه السرعة فى موقف ما لم نكن نعلم عنه من قبل شيئًا.

الفهـــرس

